الكتب

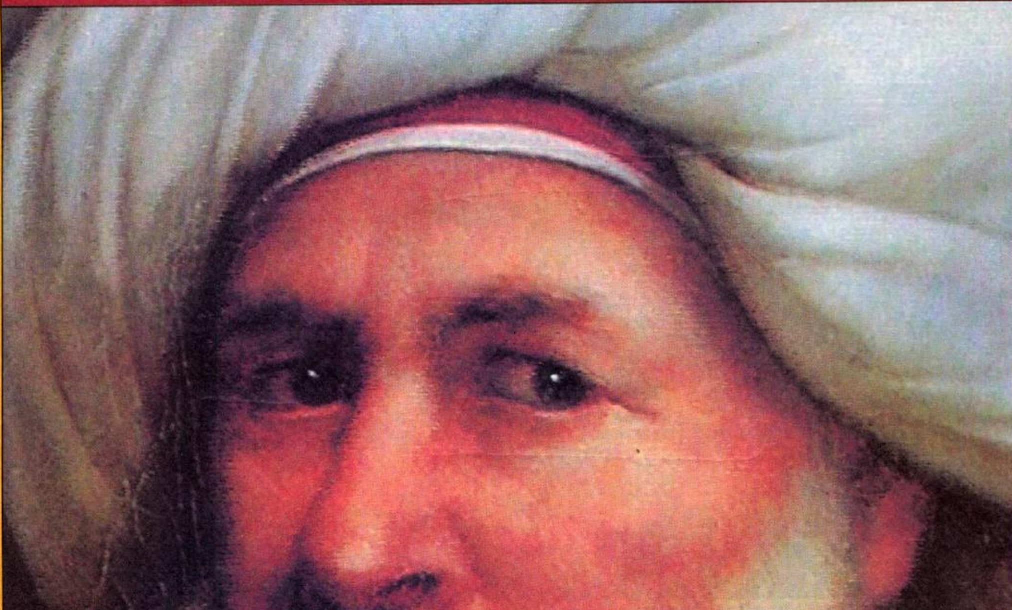
وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث والسبعون . السنة السابعة . فبراير ٢٠٠٥ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 73 - February 2005

« سبيل الباشا » .. / أجنيشكا دوبرولسكا - خالد فهمى



بوش والشرق الأوسط .. دراما الحرب والحرية / دنيس روس - أيمن الصياد

مخاوف القرن الجديد وآماله .. طب وبيئة وتكنولوجيا / اينياسيو رامونيه - فتح الله الشيخ

المتاهة .. الشرق الأوسط والسلاح النووي / محمد عبد السلام

طه حسين .. وآراء أدبية غير مسئولة / رجاء النقاش

السنة السابعة
العدد الثالث والسبعون
فبراير ٢٠٠٥

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- اجنيشكا دوبرولسكا.. مهندسة أمريكية متخصصة في الترميم المعماري.
- أحمد اشقر.. باحث في مقارنة الأديان.
- أمارتيا سين.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على نوبل في الاقتصاد ١٩٩٨.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- إينياسيو راموتيه.. رئيس تحرير لوموند ديلوماتيك.
- باتريك هاني.. باحث سويسري.
- دنيس روس.. المبعوث الأمريكي السابق في الشرق الأوسط.
- رجاء النقاش.. ناقد أدبي.
- حسام تمام.. باحث مصري.
- خالد فهمي.. أستاذ مساعد تاريخ الشرق الأوسط الحديث في قسم دراسات الشرق الأوسط والإسلام بجامعة نيويورك.
- فتح الله الشيخ.. أستاذ الكيمياء الفيزيائية بجامعة جنوب الوادي.
- ماجد شبر.. باحث عراقي.
- محمد عبد السلام.. خبير بالوحدة العسكرية - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- نايل محمد شامة.. باحث في العلاقات الدولية - جامعة سانت أندروز - بريطانيا.
- هشام شرابي.. مفكر فلسطيني.

رسوم العدد للفنان:

محمد حجي - سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٩٣٠٢٩٠ / ٢٩٣٠٤٩٣ / ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٢٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري - ص.ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٢٨٥٤٦ - e-mail: weghat@alkotob.com

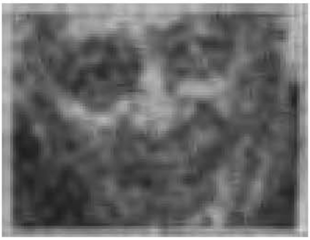
ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

❀ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ❀

واشنطن في الشرق الأوسط







دنيس روس

كانت للولايات المتحدة مصالح شائكة، في الشرق الأوسط منذ أصبحت قوة كونية. إلا أن تأمين تدفق نفط الإقليم إلى الاقتصاد العالمي احتل دائماً مركز أولويات مصالحها. وخلال الحرب الباردة جاء التنافس مع الاتحاد السوفيتي، حول الحلفاء في المنطقة، في مرتبة تالية. بينما ظل تقديم العون من أجل حماية إسرائيل والإبقاء على الصراع العربي - الإسرائيلي دون تصعيد إلى معركة فاصلة في مرتبة ثالثة. ورغم أن واشنطن تعاملت مع أزمة الرهائن في إيران، والعدوان العراقي، والصراع العربي - الإسرائيلي. إلا أن أجندتها السياسية الخارجية ظلت بشكل عام منشغلة بمناطق أخرى، مثل أوروبا وآسيا. الآن لم يعد ذلك صحيحاً، فلأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة أصبح الشرق الأوسط هو مركز اهتمامها الأول.

وإذا ما ألقت الإدارة الجديدة للرئيس جورج دبليو بوش نظرة فاحصة على مصالح الولايات المتحدة والمخاطر التي تهددها سوف تجد أن همومها الرئيسية تبزغ من الشرق الأوسط بشكل أساسي. الحرب على الإرهاب ربما تكون عالمية لكن جذورها توجد هنالك: في العراق حيث الفوضى التي لن تستطيع الولايات المتحدة الخروج منها بسهولة، وفي إيران حيث تصطدم الإدارة الأمريكية الجديدة باختبار شديد الصعوبة ليس من السهل تجنبه، وفي الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين حيث تشكل وفاة عرفات، وقرار إسرائيل الانسحاب من غزة، نقطة تحول تحمل إمكانيات جديدة للحل، وربما أيضاً احتمالية المزيد من الاضطرابات. وقد توجد مشاكل أخرى في مناطق أخرى، لكن لن يكون من بينها ما سيأخذ الكثير من وقت وموارد الرئيس بوش وقدرته على الاحتمال خلال السنوات الأربع المقبلة.

مع تواجد أكثر من ١٠٠ ألف من القوات الأمريكية على الأراضي العراقية، إضافة إلى انتخابات شهر يناير، تصبح الأولوية للعراق ويصبح السؤال الحرج الذي يحتاج إلى إجابة هو: هل يصبح العراق أكثر أم أقل أمناً؟ إذا نظرنا إلى هجمات «العصيان» وتطورها واتساع نطاقها وتنامي عدد المشاركين فيها، وصعوبة التقدم في إعادة الإعمار، فقد يبدو من المعقول القول إن الموقف يزداد سوءاً. هزيمة العصاة في الفلوجة قد تبشر ببزوغ يوم جديد. لكن يبقى علينا الانتظار كي نرى ما إذا كانت هذه الهزيمة ستولد المزيد من المقاومة للولايات المتحدة والاستياء من رئيس الوزراء إياد علاوي أم أن قوات الأمن العراقية سيكون بمقدورها إبقاء الفلوجة، ومناطق أخرى في المثلث السني، بعيدة عن العصاة بعد مغادرة القوات الأمريكية. هناك العديد من الدراسات التي تقدم اختيارات متباينة للسياسة الأمريكية في العراق. والأمر الواضح، على أية حال، هو أن الولايات المتحدة لا تملك أن تفشل. الفشل في العراق سيكون نكسة مدمرة للحرب على الإرهاب إذ من شأنه إقناع المجاهدين بأنهم سوف ينتصرون دائماً في نهاية المطاف. هنا تحتاج الولايات المتحدة، وحلفاؤها، إلى إيجاد إدراك بحتمية هزيمة المجاهدين وليس انتصارهم. ويبقى أن تعريف واشنطن للنجاح يجب أن يصبح - وبقدر كبير - أكثر اعتدالاً.

وأفضل ما يمكن للولايات المتحدة أن تأمله ربما يكمن في قيام نظام حكم فيدرالي يتميز بالمرونة ويتمثل في حكومة مركزية لها سلطات محدودة تترأس أقاليم حكم ذاتي وتضم أغلبية حاكمة ترضى الأقليات. مثل هذه الحكومة إذا ما تعاملت بلطف مع شعبها

بترتيب مع:

«Foreign Affairs»

عدد يناير - فبراير ٢٠٠٥

ترجمة: جمال إسماعيل

ولم تهدد جيرانها، فمن المؤكد أن النتائج تكون مقبولة.

تحسن الأوضاع في العراق لن يبعده عن صدارة نشرات الأخبار في المستقبل المنظور، لكن واشنطن لا تستطيع تجاهل قضايا أخرى حساسة مثل إيران، العلاقات الإسرائيلية - الفلسطينية، والإصلاحات السياسية في الإقليم، وهي قضايا من المحتمل أن تفرض تحديات ليست أقل أهمية من تلك القائمة في العراق.

إيــران الــنـــوويـــة

خطت إيران خطوات معتبرة على طريق أن تصبح قادرة على إنتاج أسلحة ذرية. ونظراً للتقدم الإيراني في مجال تكنولوجيا الطرد المركزي للغاز، فإن الإيرانيين ربما يحتاجون إلى عام واحد كي يتمكنوا من تخصيب اليورانيوم وتحويله إلى سلاح فتاك دون مساعدات خارجية.

أحراز طهران للتقدم في مجال الأسلحة النووية من شأنه إحداث تحول في الشرق الأوسط. وإذا أصبحت إيران نووية فمن المحتمل أن دولاً أخرى في المنطقة قد تفعل الشيء نفسه.

اللافت هنا أن العالم العربي الذي يفترض امتلاك إسرائيل لرؤوس نووية يدرك أن الإسرائيليين الذين يحيطون برنامجهم النووي بالغموض، لن يلجئوا إلى السلاح النووي إلا كخيار أخير. لكن إيران النووية قصة مختلفة: فالسعودية، التي ربما تكون استفادت من شبكة التهريب الباكستانية للمواد والخبرة النووية قد تقرر أنها في حاجة إلى قنبلة ذرية لردع إيران أو إحداث الثقل الموازي في مواجهتها. ومن المؤكد أن مصر غير الراغبة في التخلي عن مكانتها في العالم العربي، سوف تمارس الضغوط الملائمة للحصول على قدرات نووية. وسوريا التي يبدو أيضاً أنها استفادت من الشبكة الباكستانية لن تتخلف عن الركب. وكذلك الجزائر التي لديها بالفعل مفاعلها الخاص بالأبحاث سيكون لديها الحافز الجديد لكي تصبح نووية.

مشهد «الشرق الأوسط النووي» يثير القلق. ولا يمكن أن نطرح جانباً المخاطر التي قد تنجم عن حادث عارض أو حتى حرب لا مناص منها. وإسرائيل لن تقبل باجتياز إيران عتبة الأسلحة النووية. وقد سبق وأعلن شاؤل موفاز، وزير الدفاع الإسرائيلي، وفي أكثر من مناسبة، أن إسرائيل تعتبر إيران النووية أمراً غير مقبول. ومن المؤكد، في ضوء ما سبق، أن ارئيل شارون، رئيس الوزراء، سوف يسأل بوش، خلال زيارته المقررة في وقت لاحق من هذا العام، سؤالاً بسيطاً: هل ستتحرك واشنطن لفعل شيء في مواجهة إيران، أم أن على إسرائيل أن تقوم بذلك؟

هل تستطيع الولايات المتحدة قطع رأس القنبلة النووية الإيرانية؟ لن يكون

رغم أن واشنطن تعاملت مع أزمة الرهائن في إيران، والعدوان العراقي، والصراع العربي - الإسرائيلي، إلا أن «أجندتها» السياسية الخارجية ظلت بشكل عام منشغلة بمناطق أخرى، مثل أوروبا وآسيا. الآن لم يعد ذلك صحيحــاً، فــلأول مــرة في تاريخ الــولايات المتحــدة أصبــح الشــرق الأوسط هو مركز اهتمامها الأول

الأمر سهلاً إذ أن الإيرانيين من مختلف التوجهات والألوان السياسية، يعتقدون أن امتلاكهم للأسلحة النووية ليس رمزاً للقوة القومية فحسب، بل ضرورة استراتيجية وسط محيط عدائي. تبدو إيران أيضاً وكأنها قد تعلمت الدرس من الهجوم الإسرائيلي على المفاعل النووي العراقي في عام ١٩٨١: اختارت إيران طرقاً متعددة لإنتاج المواد القابلة للانشطار مستخدمة لذلك مواقع لمصانع إضافية حولت طاقاتها وإمكانياتها لهذا الهدف بدلاً من تركيز محاولات تحقيقه في موقع واحد بارز. وبهذا يصبح البرنامج النووي الإيراني أقل عرضة للهجمات العسكرية ويتيح لها إعادة تشييد الخبرة والمعرفة النووية من جديد، وفي أعقاب أي هجوم محتمل.

هذه العقبات لا تعني أن لا شيء يمكن أن يحدث لمنع، أو تأخير، البرنامج النووي الإيراني. وقبل وضع البدائل العسكرية في الاختبار يجب على الولايات محاولة تغيير الحسابات الإيرانية إزاء التحول إلى دولة نووية. وترى إيران في الوقت الحالي أن تكلفة سعيها النووي هي تكلفة ضئيلة. وعلى مدار السنوات الماضية اقتربت إيران كثيراً من تطوير القدرة النووية دون عواقب واضحة، الأمر الذي جعل ثقتها تتزايد في أنها تستطيع مواصلة السعي مع تجنب كل خطر داهم أو جزاءات. وتدرك إيران أن الولايات المتحدة غارقة في العراق وأقل قدرة على الفعل العسكري ضدها.

بدت إيران غير عابئة بقرارات الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وعندما دعت الوكالة طهران إلى تعليق جهود الإثراء الشديد لليورانيوم والكشف عن أنشطتها النووية، أعلن الإيرانيون أنهم سيحولون ٤٠ طناً مترياً من اليورانيوم «الخام الضعيف Yellowcake» إلى يورانيوم «سداسي الذرات hexe Floride» لإنتاج مركب يثري وقود الأسلحة «غير النووية».

تعتقد الحكومة الإيرانية أيضاً أن لها فعالية بالنسبة للأوروبيين، وليس العكس. لقد هددت بريطانيا، فرنسا، وألمانيا بالعقوبات لكي تدفع بالإيرانيين إلى وقف الإثراء الشديد لليورانيوم. لكن أوروبا لم تفرض أياً من تلك العقوبات عندما نكثت إيران باتفاق تعليق برنامجها النووي في أكتوبر عام ٢٠٠٣. وبدلاً من ذلك تبدو الدول الأوروبية وإيران على مشارف اتفاقية ثانية، ولو حول المبادئ. وقد أبلغت إيران الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنها ستعلق نشاطات التخصيب في انتظار مساعدات مادية وتقنية أوروبية. الدول الأوروبية وبالإضافة إلى امتناعها عن تقديم وعود بعلاقات اقتصادية جديدة مع إيران، ربما تكون استغلت إعادة انتخاب بوش من أجل التفاوض حول العقوبات الحقيقية المتوقعة، والتي ستكون شديدة إذا ما نكثت إيران باتفاقها للمرة الثانية. لكن، وطالما رأت أوروبا أن العقاب هو حجب الفوائد وليس دفع الثمن، فهل تعتقد إيران أن عليها حقاً الوفاء بالتزاماتها بدلاً من مواجهة العواقب؟ هل ستسمح إيران بعمليات تفتيش كافية ومفاجئة لكي تثبت أنها علقت كل جهود وعمليات تخصيب اليورانيوم؟ وهل تكون إيران مستعدة لوقف مساندتها لإرهاب حماس أو حزب الله كجزء من صفقة أوسع؟

من الواضح أن الإجابة هي لا. ولإظهار ما يمكن اعتباره أقل من نوايا طيبة، أكد حسن روحاني، رئيس المفاوضين الإيرانيين أن التعليق سيكون مؤقتاً ويستمر «خلال فترة المحادثات» مع الدول الأوروبية حول حزمة كاملة من المساعدات الاقتصادية والسياسية لصالح إيران. وفي الأيام التالية مباشرة لإعلان التعليق المؤقت، زعم المجلس الوطني للمقاومة، المجموعة الإيرانية المعارضة التي تتخذ من باريس مقراً، أن إيران تصنع «الأسلحة سرية في موقع داخل حدود مدينة طهران. بعدها أعلن كولن باول، وزير الخارجية، أنه أطلع على أدلة تدعم هذه المزاعم وأن الإيرانيين يعملون على إنتاج نظام للأسلحة النووية.

بعد ١٨ عاماً من الخداع الإيراني للوكالة الدولية للطاقة الذرية، مع وجود إجماع واسع بين الإيرانيين بأن دولتهم يجب أن تحصل على القدرة النووية، من الصعب الاعتقاد أن إيران سوف تفي بما عليها من التزامات في الصفقة ما لم تقتنع بإمكانية فرض العقوبات أو ما هو أسوأ من ذلك.

ويدرك نظام الملالي الحاكم أنه غير محبوب داخلياً. واعتصار إيران اقتصادياً عن طريق العقوبات الفعالة ربما يحرك قلاقل اجتماعية. لقد قاد تردي الحالة الاقتصادية إلى اضطرابات خلال السنوات الماضية، ومن المحتمل أن تشعر القيادة الإيرانية بالقلق إزاء العواقب الناجمة عن عزلة دولية حقيقية.

العزلة، على أية حال، لا يمكن فرضها ببساطة ولابد من خلق الظروف المهيئة لها. كما يجب أن تستند المحاولة الأمريكية لمعالجة الموقف عبر «الاشتباك العسكري» إلى فهم واضح مؤداه أن هذا الاشتباك إذا فشل فإن العزلة ستكون العاقبة وهذا قد يتطلب من واشنطن أن تتحدث مباشرة مع طهران، سواء بالتنسيق مع الأوروبيين أو كجزء من الجهد الحالي للوصول إلى اتفاق نهائي. على الولايات

الفشــل فــي العــراق ســيكون نكســة مــدمــرة للحرب على الإرهاب إذ من شأنه إقناع المجاهدين بأنهــم ســوف ينتصــرون دائمــاً في نهاية المطــاف

المتحدة أن تحدد العواقب بشكل مباشر وتؤكد أن إيران قد تواجهها إذا انتهكت شروط الاتفاقية. وعلى أوروبا محاكاة تحذيرات الولايات المتحدة. سيكون على الدول الأوروبية إعلان أنها تساند عقوبات فعالة لعزل إيران إذا ما نكثت بالتزاماتها أو امتنعت عن السماح بالتفتيش المفاجئ. وتحتاج واشنطن أيضاً إلى التهديد بتقديم ضمانات أمنية إلى جيران إيران إذا ما أصبحت نووية. هذه الضمانات يمكن أن تشمل تدبيرات وقائية ضد الأسلحة التقليدية والصواريخ المضادة للصواريخ، زيادة تواجد الأسطول الأمريكي في، وبالقرب من، الخليج الفارسي، وربما تشمل أيضاً تقديم ضمانات نووية لأي دولة تهددها إيران. في الوقت نفسه، سيكون من الضروري الإعلان بوضوح أن الولايات المتحدة لا تستبعد الخيار العسكري لتأخير البرنامج النووي الإيراني.

إدارة المحادثات بهذا الشكل ربما تقنع إيران أن الأسلحة النووية لا تساوي ما قد تدفعه من ثمن باهظ. والتهديد بفرض عقوبات اقتصادية ربما يكون من الصعب تنفيذه في وقت وصل فيه سعر برميل النفط إلى ٥٠ دولاراً. إيران تدرك هذه الحقيقة وبدأت بالفعل، أكثر من ذلك، في تحويل تعاملاتها التجارية تجاه الشرق. وخلال العام الماضي توصلت إلى اتفاقيتين بحوالي ١٠٠ بليون دولار لتصدير النفط والغاز إلى الصين. البعض يجادل بأن أفضل وسيلة للتعامل مع المشكلة الإيرانية هي بإحداث تغيير للنظام. ورغم أن تغيير النظام ربما يكون أمراً مرغوباً، لكن لا يوجد على أرض الواقع ما يشير إلى أن هذا المشروع المعقد يمكن أن يتحقق قبل إنتاج إيران للأسلحة النووية والذي قد يتم خلال عام أو عامين. يبقى أنه، وإذا لم تستطع الولايات المتحدة وقف إيران من التحول إلى نووية عبر الدبلوماسية والتأثير الاقتصادي، ربما يكون عليها أن تضع في اعتبارها العودة إلى خيار الضربات العسكرية المركزة. في هذه الحالة سوف تحتاج واشنطن إلى النظر بعناية إلى الخيارات الإيرانية وتقدير ما يمكن أن تحصده من جراء مهاجمة التسهيلات النووية الإيرانية.

وبينما يظل الخيار العسكري قائماً فقد يكون على الولايات المتحدة استخدام عصي متباينة كي تمنع إيران من التصنيع الفعلي للأسلحة. فهل يمكن حتى لهذا الهدف المحدود أن يتحقق؟ ربما. هل يكون كافياً؟ هذا غير واضح وإن كان لا بد من وضعه في الاعتبار.

نـــقـــطـــة تحـــول

تعد وفاة عرفات نهاية لحقبة وبداية لأخرى جديدة. فهل تغير الوفاة من الموقف شيئاً أم تبقى على الشكوك والاحتمالات معاً؟

كان عرفات، بالنسبة للإسرائيليين، إرهابياً ليس مستعداً لإنهاء الصراع والقبول جدياً بالتعايش مع الدولة اليهودية. وبالنسبة للفلسطينيين كان الأيقونة والأب ورمز القضية والمفوض الأصيل الذي نجح في انتزاع الاعتراف الدولي بأمانيهم الوطنية. ومن الحتمي أن تخلق وفاته الفراغ النفسي والعملي الذي يخشى الفلسطينيون أن يؤدي إلى صراع على السلطة. ومن المفارقات أن هذا الخوف ذاته من شأنه أن يولد الاستقرار، ولو على المدى المنظور. ومن المؤكد أن الفلسطينيين يرون أن الصراع على السلطة يؤدي إلى حرب أهلية هو آخر ما يريدون حيث لن يؤدي إلا إلى مزيد من الضعف بين صفوفهم. لهذا سارع رئيس الوزراء الفلسطيني، أحمد قريع، إلى لقاء كل الفصائل لضمان الاستقرار خلال الفترة الانتقالية. ورغم مطالبة حماس بأن تكون جزءاً من قيادة جماعية إلا أنها تعهدت أيضاً بالحفاظ على التفاهم بين الفلسطينيين. وأدت التفاهمات الداخلية إلى قرار سريع وضع محمود عباس على رأس السلطة الفلسطينية التي تحركت بسرعة لإصدار القانون الأساسي الذي ضمن إجراء الانتخابات التي كانت ضرورية ليس لإدارة أمور خلافة عرفات فحسب، بل السبيل الوحيد لإحلال قيادة جديدة محله تتمتع بالسلطة والشرعية التي كانت له.

يؤخذ في الاعتبار أيضاً أن الانتخابات قدمت المبرر القوي لاستئناف الحوار الإسرائيلي - الفلسطيني. كان على الإسرائيليين والفلسطينيين أن يتوصلوا إلى بعض تفاهمات أساسية لخلق مناخ ملائم للانتخابات التي احتاجها الجانب الفلسطيني للحفاظ على الاستقرار في مرحلة ما بعد الفترة الانتقالية، ورأى فيها الجانب الإسرائيلي مفتاح وجود قيادة فلسطينية مسئولة. كذلك فإن قدرة الجانبين على جعل الانتخابات ممكنة كانت محدودة بدون مساندة دولية. والذين يرون أن الولايات المتحدة لا تدفع ثمن جلوسها خارج الملعب في انتظار حدوث حالة إرهاق للجانبين تسمح للدبلوماسية أن تعمل، عليهم تحمل عواقب خطأين في التقديرات: الأول أن القدرة على تحاشي الإرهاب تتجاوز - بقوة - كل التقديرات، والثاني أن الآثار النفسية - ناهيك عن الخسائر المادية والبشرية - للحرب المستمرة تضعف مصداقية دعاة السلام على الجانبين إلى درجة تجعل من الصعب استئناف الجهود الدبلوماسية.

بعد وفاة عرفات، وفي حضور توني بلير رئيس الوزراء البريطاني، قال بوش إنه سيعمل خلال فترة رئاسته الثانية على جعل الدولة الفلسطينية حقيقة. ولتحقيق ذلك يجب على الولايات المتحدة أن تعيد صياغة موقفها كجسر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وبؤرة ارتكاز في حوار ثلاثي الأضلاع بطرح القضايا الصعبة حول ما يجب أن يفعله، وما يريده، كل جانب. مثل هذه المناقشات الثلاثية يمكن أن يؤدي إلى تحسين الشروط على أرض الواقع من أجل التنسيق بشأن الخطط الإسرائيلية الخاصة بالانسحاب من غزة وفك الارتباط مع الجزء الشمالي من الضفة الغربية.

لقد سبق وأعلن محمود عباس، في صيف عام ٢٠٠٣، وخلال الأشهر الثلاثة التي تولى فيها رئاسة الحكومة الفلسطينية: أن شارون لو كان انسحب من غزة وأطلق سراح السجناء، لكان بإمكانه (عباس) التغلب على مقاومة عرفات لمسئولياته كرئيس للوزراء والأمر الجوهري أن محمود عباس أثبت للفلسطينيين أن العنف لم يفلح وأن إبراء المسئولية والتمسك بالاعتدال يقود إلى تحقيق الأهداف الفلسطينية. وبالطبع فإن أياً من هذه الأهداف لم يتحقق وأصاب موقف عرفات: محمود عباس بالشلل وقاد إلى استقالته. الآن تشكل وفاة عرفات نقطة تحول ممكنة لكل من الجانبين إذا ما توصلا، ومعهما الولايات المتحدة، إلى تفاهمات تحدث تغييراً في العلاقات اليومية بين الشعبين. التصريحات والنوايا الطيبة وحدها يهزمها العنف على الأرض. وعلى إسرائيل مساعدة القيادة الفلسطينية الجديدة، بعد الانتخابات، على إظهار قدرتها على إحداث تغيير حقيقي وتحسين أوضاع حياة الفلسطينيين. الانتخابات وغياب عقبة عرفات ستسهل للفلسطينيين الوفاء بالتزاماتهم، وخاصة الأمنية، بعد أن أثبتوا للعالم أن بإمكانهم إدارة انتخابات بأسلوب عادل وسلمي. واشنطن، والآخرون، عليهم التركيز على إمداد فوري للسلطة الفلسطينية بمساعدة مالية معتبرة تسهل مهمة إعادة تنظيم وتدريب المؤسسات المنوطة بالأمن، وتمكن السلطة من إمداد الشعب الفلسطيني بمظلة أمان اجتماعي.

لقد أدى ارتفاع أسعار النفط خلال هذا العام إلى وجود عائدات مفاجئة تقدر لدى السعودية وحدها بـ ٣٥ بليون دولار. ولا يوجد ما يحول دون تقديم دول الخليج بليون دولار لتمويل خطط التنمية الفلسطينية. على واشنطن وحلفائها العرب أن يأخذوا على عاتقهم بعض المسئوليات إذا كانوا يرغبون حقاً في نزع فتيل الصراع ومساعدة كل الفلسطينيين الذين عانوا طويلاً.

البعض قد يقترح أن الولايات المتحدة يجب أن تكون أكثر طموحاً وتقدم خططاً لحل سريع لقضايا الحل النهائي. وبوضوح، يجب على الولايات المتحدة استغلال اللحظة المواتية خاصة أن الفشل في استغلالها سيكون باهظ التكلفة. الوقت الآن وقت الواقعية لا

مشهد «الشرق الأوسط النووي» يثير القلق. ولا يمكن أن نطرح جانباً المخاطر التي قد تنجم عن حادث عارض أو حتى حرب لا مناص منهـــا. وإســـرائيل لن تقبل باجتيـــاز إيران عتبة الأسلحة النووية

الأوهام والخيال. ولا توجد قيادة فلسطينية، منتخبة من الشعب الفلسطيني أو غير منتخبة، يمكنها تقديم تنازلات بشأن القضايا المصيرية مثل القدس والحدود واللاجئين. الاتفاق بهذا الشأن مستحيل دون تنازلات من الجانبين. ويجب على قيادات السلطة تأسيس سلطتهم أولاً بالبرهنة على فعاليتهم. إنهم يحتاجون إلى طمأنة شعبهم أن حكومته قادرة على إنهاء الفساد وتأسيس حكم القانون وتحقيق حرية الحركة والتحرر من التدخلات العسكرية الإسرائيلية والتنسيق خلال فك إسرائيل لارتباطها بغزة. ورغم أن شارون كان مصراً على عدم التنسيق عندما ظن في عدم وجود شريك للتحدث إليه، الآن يبدو أن موقفه قد تغير. وقد أعلن أن إسرائيل ستبحث تنسيق الأمن والانسحاب مع قيادة فلسطينية «على استعداد لمحاربة الإرهاب». هنا، ومرة أخرى، فإن خلق بيئة صالحة للانتخابات يجب أن يمتد الآن إلى قضايا أخرى باعتبار أن التنسيق يضمن منفعة الطرفين. وبدلاً من اكتفاء إسرائيل بترك الأرض والمستوطنات في غزة فإن تسليمها إلى السلطة الفلسطينية سيسمح لها بالحصول على مصداقية شعبية. إسرائيل سوف تطالب، بالتأكيد، السلطة الفلسطينية بضمانات وخطط تفصيلية لتطبيق هذه الضمانات لكي يتم تنفيذ هذا التسليم. لقد أرادت حماس أن تخلق الانطباع بأن أساليب العنف وراء قرار إسرائيل بالخروج من «تحرير» غزة، لكن السلطة الفلسطينية يجب عليها توضيح أن هجمات حماس ضد الإسرائيليين ستتوقف وأن عنف حماس سيقابل برد فعل مدمر من جانب شارون.

المساعدات الدولية للمناطق التي تنسحب منها إسرائيل يمكن أن تساعد في ضمان الأمن. ومشروعات إعادة الإعمار التي تفيد الشعب الفلسطيني يمكن أن تلتزم بسلسلة الانسحابات الإسرائيلية وبالتزامات السلطة الفلسطينية لحفظ الهدوء. على سبيل المثال: إسرائيل سوف تفكك المستوطنات. هذا لن يساعد فقط في تخفيف الضغط على الفلسطينيين الذين هدمت مساكنهم، لكنه سيخلق أسباباً إضافية تقنع حماس بتجنب إفساد الانسحاب الإسرائيلي وتمكن السلطة من التعامل مع أي مجموعات مسلحة تعتزم القيام بعمليات أثناء الانسحاب.

يمكن أيضاً للمساعدات الدولية التي ترتبط بانسحابات منضبطة، أن تكون مرهونة بمدى المحافظة على الأمن والهدوء وعدم القيام بعمليات عسكرية ومباشرة السلطة للمسئوليات الأمنية في المناطق التي تخليها إسرائيل.

لا يوجد بين هذه الإجراءات ما يمكن أن يضمن النجاح أو حتى الأمن. لكن الولايات المتحدة تواجه لحظة أو فرصة مواتية جداً، والخلاصة التي لا مفر منها، المستخلصة من الماضي في الشرق الأوسط، أن هذه اللحظة إذا ضاعت فإن العالم يصبح دائماً أكثر سوءاً.

أمل الديمقراطية

يحتاج الرئيس بوش، وهو يأخذ في اعتباره المشهد العام في الشرق الأوسط، وما به من تحديات، مع بداية فترة رئاسته الثانية، يحتاج إلى أن يضع نصب عينيه ثلاثة جزئيات ترسم حكمة غالية: الأولى أن العنف يملأ عادة كل فراغ يحدث. الثانية أن كل بداية دبلوماسية سرعان ما تفضي إلى طريق مسدود. والثالثة أن الحرب على الإرهاب هي، في الواقع، حرب ضد إسلام متطرف. وفي تعاملها - بعيد المدى - مع مشكلة التطرف الإسلامي أو الحرب على الإرهاب، تحتاج الولايات المتحدة إلى الاعتراف بأن لها حلفاء في العالم الإسلامي. وعلى الدرجة نفسها من ضرورة الإبقاء على الوسائل العسكرية لهزيمة أعداء لا يفهمون إلا لغة العنف، تعتمد استراتيجية الولايات المتحدة أيضاً على وصول دعاة الإصلاح إلى السلطة في الشرق الأوسط. وفي النهاية فإن أنصار الإسلام المعتدل هم فقط القادرون على أفكار دعاة التطرف لمصداقيتهم.

إن التزام الرئيس بوش بـ «ديمقراطية» في الشرق الأوسط يمكن أن يساعد دعاة الإصلاح. وقد ساعد بالفعل إلى حد ما. كما أن التقدميين الذين يعارضون سياسات بوش في العراق وإسرائيل ومع الفلسطينيين، يتجهون إلى الاعتراف بأن دعوة بوش من أجل التغيير أعطتهم مساحة أكبر للعمل والحركة داخل مجتمعاتهم التي لطالما ظلت مغلقة. ومن المؤكد أن مجموعة الثمانية للدول الصناعية المتقدمة، إضافة إلى روسيا، ما كانت لتعلن عن مبادرة «منتدى المستقبل» مع دول الشرق الأوسط ما لم يضغط بوش باتجاه الحاجة إلى ترويج الديمقراطية لمواجهة الغضب الشعبي الذي يستثمره دعاة التطرف. لكن «المنتدى من أجل المستقبل» يعد اقتراباً أقل طموحاً بكثير من التصور الأصلي لدى بوش. إنه يخلق حواراً بين مجموعة الثمانية والشرق الأوسط حول كيفية بناء قطاع خاص والتحول التدريجي للتعليم في الإقليم.

المناقشات الخاصة، غير الرسمية، حول كيفية بناء مجتمعات مدنية سوف تجري أيضاً بشكل موازٍ في المنتدى. لكن، وإلى الآن، فإن المغرب والأردن كانتا أكثر حماسة، إزاء المشاركة، من مصر والسعودية بما لهما من تأثير إقليمي أكبر. بالإضافة إلى ذلك تريد مجموعة الثمانية أن لا تبدو وكأنها تمارس الضغوط أو تفرض أولويات على دول الشرق الأوسط وخاصة تلك التي خففت من ضغوطها الناهضة للتغيير وتوسيع مجال المشاركة السياسية في أنظمة عادة ما قاومت الاحتواء. وبفرض عدم وجود اندفاعة نحو الديمقراطية فإن الإصلاح اليوم يعد مطلباً إقليمياً. وقد أصبح دعاة الإصلاح أكثر إصراراً نتيجة لشعور معظم الأنظمة بضرورة الاستجابة ولو بقدر قليل، وذلك في مواجهة التهديد القادم من المتطرفين. وهو تهديد أكثر إلحاحاً.

وتحتاج إدارة بوش إلى الإنصات للإسلاميين المعتدلين والالتزام بمساندتهم وإدراك أن الوقت قد حان لخلق آليات أكثر انتظاماً لهذه المساندة والتعرف منهم على أفضل الطرق للمساعدة.

الإصلاح الناجح هو في صالح الشرق الأوسط والولايات المتحدة. وكلما حسنت الولايات المتحدة من أدائها في العراق، كلما ازداد دعاة الإصلاح قدرة على الحركة. وكلما قدمت الولايات المتحدة المزيد لنزع فتيل الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، أو للنجاح في احتواء الأزمة مع إيران، كلما تحسنت البيئة الملائمة لإحراز تقدم ذي معنى. وإذا كان رحيل عرفات يخلق فاتحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، فعلى الولايات المتحدة النفاذ منها، وإذا كشفت فاتحة من نوع آخر عن نفسها في إيران، ويكون من شأنها التأثير على رغبتها النووية، فعلى الولايات المتحدة أن تتصرف بشكل عاجل إدراكاً منها أن الوقت قصير والبديل ليس جذاباً.

إذا فشلت الولايات المتحدة في تحقيق تقدم في هذه المناطق فإن هدف الإصلاح الإقليمي سيصاب بنكسة لا محالة. لكن دعاة الإصلاح من الإسلاميين مصرون على المثابرة وبدءوا في التعبير بوضوح عن أنفسهم. وبغض النظر عن أي شيء فإن البيت الأبيض في حاجة إلى مساعدتهم.

وفي النهاية فإن نجاح فترة الرئاسة الثانية لبوش ربما يكون معلقاً بمدى حسن إدارته في التعامل مع التحديات المفروضة في الشرق الأوسط. الإقليم، ومعه العالم، في مفترق طرق. فهل تستقر الأوضاع في العراق أم تستمر الفوضى التي تهدد شعبه وجيرانه؟ هل تتنازل إيران عن طموحاتها النووية أم أنها تأخذ الشرق الأوسط إلى طريق توالد نووي غير مقيد؟ هل تتعايش دولة فلسطينية جديدة مع إسرائيل - كما قال بوش - أم أن الفرصة المواتية لتهيئة قيادة فلسطينية مسئولة ستضيع وتضيع معها إمكانية السلام؟ هل يزيد المعتدلون الإسلاميون من تحديهم للأوضاع الحالية في مجتمعاتهم، أم أن الإسلاميين المتطرفين يصبحون أكثر سيطرة؟

أسئلة كثيرة لم يحدث من قبل أن كان للإجابات عنها تأثير واضح على حياة الأمريكيين. ●

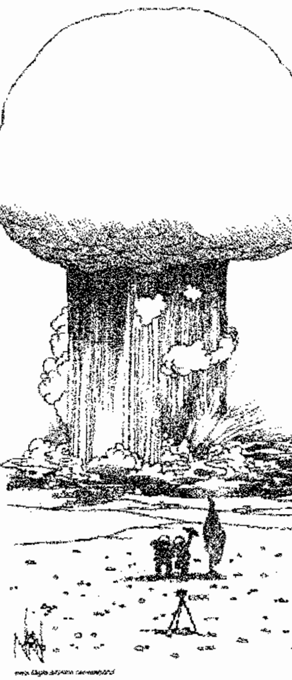
الإصلاح الناجح هو فى صالح الشرق الأوسط والولايات المتحدة. وكلما حسنت الولايات المتحدة من أدائها فى العراق، كلما ازداد دعاة الإصلاح قدرة على الحركة

لم تقبل مصر على الإطلاق، ولم يبدُ أبدا أنها يمكن أن تقبل بالوضع القائم، الخاص باستمرار إسرائيل فى امتلاك الأسلحة النووية، فلم تصدر القاهرة أية إشارة بأنها من الممكن أن تتعايش مع حالة الاحتكار النووى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط

المتاهة

الشرق الأوسط والسلاح النووى

محمد عبد السلام



** واجهت مصر منذ بداية الستينيات فى القرن الماضى ثلاثة خيارات رئيسية للتعامل مع المشكلة النووية التى كانت تتشكل مع الوقت فى المنطقة، وهى التوازن أو التعايش أو الإزالة، فقد كان التصريح الأول للرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٠ عندما كشف رئيس الوزراء الإسرائيلى ديفيد بن جوريون عن وجود مفاعل ديمونا، هو أنه «إذا كانت إسرائيل تستطيع أن تصنع قنبلة ذرية، فنحن أيضا نستطيع أن نصنعها» ثم أضاف «سنحصل على الأسلحة الذرية بأى ثمن كان، لأن الموضوع موضوع مصير، ولن نقبل أن نصبح شعبا من اللاجئين» وهو تقريبا نفس رد فعل الاتحاد السوفيتى (السابق) أو الأرجنتين أو باكستان، فى مواجهة أطراف مناوئة امتلكت هذا السلاح، أو القدرة على إنتاجه، وفقا لآليات التوازن التى تقرر أن الأسلوب المؤكد لتحييد تأثيرات سلاح يمتلكه الخصم هو امتلاك سلاح مضاد من نفس النوعية.

ويتطلب الأمر جهدا استثنائيا لتتبع ما جرى فى إطار ذلك الخيار على مستوى التفكير الاستراتيجى (أو السياسى فى واقع الأمر)، و الواقع العملى، لكن الثابت هو أن التفاعلات ذات العلاقة بهذا الاتجاه قد انحسرت رسميا مع الوقت بالقصور الذاتى. وفى وقت ما اتخذت مصر قرارا بوقف التفكير فى «الخيار العسكرى النووى»، مع الاعتماد على مستويات من التوازن، عرفت باسم «روادع الحد الأدنى». واستقر أن مصر تمثل أحد التطبيقات البارزة لنموذج سائد دوليا يرتبط بعدد كبير من الدول الرئيسية التى اتخذت قرارا بعدم امتلاك أسلحة نووية، رغم امتلاكها - من الناحية الفنية - مستويات من القدرات التى تتيح لها ذلك نسبياً، مثل اليابان وألمانيا والبرازيل والأرجنتين وكوريا الجنوبية وتايوان وإندونيسيا... إلخ.

وعلى الرغم من أن بعض أطراف تلك المجموعة تثير فى السنوات الأخيرة بعض «القلق» داخل الولايات المتحدة، بفعل ما أدت إليه تحولات طارئة أو مستجدة فى البيئة الدولية المحيطة بها من طرح لاحتمالات نكوص بعضها عن قراراته القديمة، فى ظل ما يبدو أنه ضغوط أو اعتبارات قد تدفعها لبدء «جولة جديدة» فى اتجاه الانتشار النووى، خاصة بالنسبة لليابان والبرازيل. وعلى الرغم من كثافة الحملة التى استهدفت مصر بالحديث عن أن الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لم تحقق فى معلومات أفادت بوجود نشاطات نووية، أو أن مصر قد تعاملت أيضا - مثل ليبيا وإيران - مع شبكة د. عبد القدير خان التى أدارت نشاطات واسعة فى السوق النووية السوداء، أو أن مصدرا نوويا غير محدد مشعا قد وجد خارج المرافق النووية، أو القول أخيرا بأن مصر قد أجرت تجارب معملية تتعلق بإنتاج بعض نظائر اليورانيوم، فإن كل ذلك لم يؤد إلى أى تحول فى التقديرات السائدة بشأن نوايا مصر النووية.

لكن بالتوازى مع ذلك، لم تقبل مصر على الإطلاق، ولم يبدُ أبدا أنها يمكن أن تقبل بالوضع القائم، الخاص باستمرار إسرائيل فى امتلاك الأسلحة النووية، فلم تصدر القاهرة أية إشارة بأنها من الممكن أن تتعايش مع حالة الاحتكار النووى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط، وبدا عام ١٩٩٥ على سبيل المثال - خلال حملة تمديد أمد معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية إلى ما لانهاية - أنها يمكن أن تصطدم بالولايات المتحدة. وتبنت مصر فى هذا الاتجاه خيار إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية (أو أسلحة التدمير الشامل) فى الإقليم، الذى يعنى عمليا ضرورة إزالة ما لدى إسرائيل من أسلحة نووية، وقد اتبعت فى إدارة ذلك الخيار أساليب مثيرة، فبقدر ما كان يمثل مشروعا لإخلاء المنطقة من تلك الأسلحة، كان يمثل موقفا سياسيا تجاه إمكانية التفكير فى التعايش مع وجودها، حتى لو كانت إسرائيل لا تقوم علنا بالتهديد باستخدام تلك الأسلحة فعليا، إذ أن مجرد وجود الأسلحة النووية ينتج تأثيرات سياسية، ترتبط بالمكانة الإقليمية والتأثيرات النفسية والضغط العام، بصرف النظر عن استراتيجية استخدامها عسكريا.

لكن ظل هناك سؤال دائم يرتبط بخيار مصر الثالث عبر ٣٠ سنة تقريبا تفصل بين بداية طرح مشروع الإخلاء فى الأمم المتحدة عن عام ٢٠٠٥ هو: هل يمكن بالفعل إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية (Nuclear- Weapon Free Zones NWFZ) فى الشرق الأوسط؟

وفى الواقع، تبدو أية محاولة للإجابة

التسلح ونزع السلاح والأمن الدولى
(الكتاب السنوى ٢٠٠٤)
مركز دراسات الوحدة العربية
معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى
المعهد السويدى بالإسكندرية
بيروت: ١٢٠٠ صفحة، ٢٠٠٤

تشير حالة الشرق الأوسط بوضوح إلى أن إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية في ذلك الإقليم، لم تكن فكرة قابلة للتطبيق خلال الفترة الماضية، ولا تزال كذلك في المرحلة الحالية، بفعل عدم توافر معظم شروط إقامتها بمدى واسع

عن هذا السؤال، وكأنها محاولة للسير في «متاهة»، بعكس ما حدث في أربعة أقاليم أخرى أقيمت بها فعليا مثل تلك المناطق، فحالة الشرق الأوسط تثير تعقيدات ذات بدايات واضحة، لكنها بلا نهايات محددة، إذ أنه بمجرد عبور المدخل تبدأ المشكلات، فهناك دروب ممتدة على مدى البصر بدون أية لوحات توضح المسافة التي قطعت أو المسافة التي تبقت، وهناك طرق دائرية تلتف حول المشكلة لتعود مرة أخرى إلى البداية، إلا أن هناك ما هو أسوأ، مسالك مسدودة تؤدي رؤية قواطعها إلى حالات من الشلل المؤقت.

لكن الحركة عبر كل ذلك تظل منطقية تماما، ومحددة أيضا، مع شعور دائم بأن ثمة «مخرج» للمتاهة يوجد في مكان ما، فكل ما يوجد حقيقي وليس سرابا، لكنه يتسم بملامح معقدة، وبالتالي فإن كل ما يمكن القيام به لتحليل احتمالات قيام تلك المنطقة هو رسم «خريطة طريق» تعتمد على ما هو معروف نظريا في الدراسات الأكاديمية وما اختبر عمليا على الأرض في أقاليم أخرى، وما حدث فعليا في عالم الشرق الأوسط خلال الفترة الماضية، فربما يوضح ذلك لافتات الطرق التي تشير إلى مسارات معينة، أو يحدد المسافات التي يجب قطعها للوصول إلى باب الخروج في النهاية.

وبداية، فإن هناك مجموعة من المشكلات التي تواجه هذا الخيار، إذ أن تاريخ إقامة مثل تلك المناطق يمثل في حد ذاته مشكلة، فمنذ ظهور فكرة «NWFZs» في الأمم المتحدة عام ١٩٥٦، توالت المشروعات الخاصة بإقامتها، ليصل عددها إلى ما يزيد على ٢٥ مشروعا تشمل كافة أقاليم العالم تقريبا. لكن بينما تم التقدم عمليا في اتجاه إنشاء NWFZs «ترتبط بمناطق قارية يابسة آهلة بالسكان، في أربع حالات هي: أمريكا اللاتينية، والبحر الكاريبي (تلاتيلولكو - ١٩٦٧)، ومنطقة جنوب المحيط الهادي (راراتونجا - ١٩٨٥) ومنطقة جنوب شرق آسيا (بانكوك - ١٩٩٥)، وقارة أفريقيا (بليندابا - ١٩٩٦)، واجهت عملية إنشاء NWFZs في أقاليم العالم الأخرى كشمال أوروبا، والشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشبه الجزيرة الكورية، مشكلات مختلفة، رغم أن أهمية الأطر الإقليمية للتعامل مع مشكلات التسلح النووي كانت تتصاعد مع الوقت في ظل العقبات التي كانت تواجه الأطر الدولية الخاصة بالتعامل مع تلك المشكلات.

ويندرج مشروع إقامة NWFZ في إقليم الشرق الأوسط تقليديا ضمن المشروعات الأكثر أهمية وتعقيدا بين كافة المشروعات التي تبلورت عبر مسيرة تطور فكرة إقامة NWFZ، وإن كان يقرن دائما بمشروع إقامة NWFZ في جنوب آسيا الذي لم يطبق، ولم تعد هناك إمكانية كبيرة لتطبيقه فعليا بعد عام ١٩٩٨. فقد دأبت معظم التحليلات على التأكيد على أنه بقدر أهمية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، بقدر صعوبة تحقق هذا الهدف. وعلى حد تعبير بعض المحللين «لا يوجد إقليم، خارج أقاليم الحلفين الكبيرين توجد حاجة لإقامة NWFZ فيه أكثر من الشرق الأوسط، ولا يوجد إقليم توجد به مصالح متعارضة يصعب حلها مثل الشرق الأوسط». وعادة، ما يتم إرجاع أهمية وصعوبة إقامة NWFZ في الشرق الأوسط إلى مجموعة من العوامل المتداخلة التي تشكل ملامح البيئة الاستراتيجية في الإقليم، وتجعل منه إقليما فريدا بين أقاليم العالم، فهناك مزاعم تاريخية ذات مضمون صراعي، وشكوك متبادلة، وصراعات مسلحة، وإنكار لحقوق أساسية، وتداخلات سكانية واسعة، وأهمية اقتصادية للتجارة الدولية، وترسانات ضخمة من الأسلحة المعقدة، إضافة إلى العامل الأكثر أهمية، وهو وجود أسلحة نووية فعليا على ساحة الإقليم، بموازاة محاولات مستمرة متتالية من جانب دول أخرى لامتلاك تلك الأسلحة.

إن مجمل هذه الأوضاع يشير إلى أن الشرق الأوسط إقليم ذو سمات خاصة، تختلف نسبياً عن الأقاليم التي شهدت إقامة NWFZs فيها، على نحو دفع بعض المحللين المتطرفين في انتقاداتهم لتطبيقات مفهوم NWFZs عملياً، إلى القول بأن كل ما أنشئ من قبل من NWFZs لا يمثل أهمية سوى على المستوى الرمزي، ولا يكتسب من خلالها مفهوم NWFZ معناه الحقيقي، مع الإشارة إلى أن ذلك يمكن أن يتحقق فقط إذا تمت إقامتها في أقاليم مثل الشرق الأوسط، تطرح مشكلات وتحديات عديدة من الصعب للغاية أن يتم التغلب عليها. ورغم أن التيار السائد في تحليلات NWFZs لا يوافق على مثل هذه التقييمات التي تتضمن أحياناً أخطاء حقيقية في إدراك عناصر المفهوم وأبعاد تطبيقاته، إلا أن معظم التحليلات يؤكد في تناوله لآفاق أو مستقبل NWFZs، على أن حالة إقامة NWFZ في الشرق الأوسط تمثل تحديا حقيقيا بحكم تعقيدات الأوضاع العامة في الإقليم، سواء فيما يتصل باحتمالات إنشائها من ناحية، أو طبيعة الإطار الذي يمكن أن تقام تبعاً له من ناحية أخرى.

وفي الواقع، فإن الأبعاد الخاصة لحالة الشرق الأوسط قد أدت إلى طرح القضية الجوهرية المتصلة بمسألة NWFZ مباشرة فيما يتعلق بتلك الحالة، بأكثر مما طرح بشأن معظم المشروعات الأخرى - التي لم تطبق - لإقامة NWFZs بما في ذلك حالة جنوب آسيا، وهي قضية إمكانية نشأة NWFZ في الإقليم من عدمها، في ظل وجود تيارين تقليديين بهذا الشأن:

الأول: تيار يشير إلى أن إقامة NWFZ في الشرق الأوسط غير ممكنة، وأن المنطقة قد تتجه نحو وضع انتشار نووي متعدد، أو يتم التعامل مع مشكلتها النووية من خلال تدابير أخرى لضبط التسلح النووي، أو قد يبقى الحال على ما هو عليه، وهو تيار يمكن ملاحظته في كثير من الكتابات، ومن خلال تقييمات سائدة لدى قطاع واسع في «الجماعة الاستراتيجية» الإقليمية. ويستند هذا التوجه على تعقيدات الأوضاع الاستراتيجية العامة في الشرق الأوسط، وصعوبة التعامل معها على نحو يتيح إقامة مثل هذه المنطقة خلال مدى زمني يمكن تقديره. إضافة إلى أن الأسلحة النووية قد دخلت إلى ساحة الشرق الأوسط بالفعل. في ظل شك عميق لدى كثير من المحللين بأن إسرائيل يمكن أن تقبل بإزالتها تحت أية ظروف متصورة، على الرغم من تأييدها لفكرة إقامة NWFZ في الشرق الأوسط.

لقد تبلور مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط عام ١٩٧٤ داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد مر حوالي ٣٠ عاماً (١٩٧٤ - ٢٠٠٤) على بداية المشروع دون أن تتجاوز عملية إقامة NWFZ بالإقليم، «مرحلة ما قبل المفاوضات»، رغم موافقة إسرائيل على المقترح الخاص بذلك منذ عام ١٩٨٠، ورغم انتقال المقترح عملياً من الإطار الدولي إلى الإطار الإقليمي منذ عام ١٩٩١. ولا يمكن مقارنة الفترة الزمنية لهذه المرحلة (ما قبل المفاوضات) بفترة «العامين» التي استغرقتها مثيلتها في حالة أمريكا اللاتينية - الكاريبي، كما أنها أطول بكثير مما استغرقته نفس المرحلة في حالة جنوب الهادي (٨ سنوات). كما أنها تجاوزت في طولها ما استغرقته كذلك مرحلة ما قبل المفاوضات في حالة جنوب شرق آسيا (٢١سنة). والأهم أنه لا يبدو أن تلك العملية قد تتحول في اتجاه مرحلة المفاوضات الرسمية خلال وقت قصير، فلم يحدث تطور جوهري في هذا الاتجاه، بما يشير - تبعاً لذلك - إلى عراقيل حقيقية تعترض طريق إقامة مثل هذه المنطقة في الشرق الأوسط.

الثاني: تيار يشير إلى أن إقامة NWFZ في الشرق الأوسط ممكنة التحقيق. فتبعاً لكثير من التقديرات التي يطرحها عدد من محللي NWFZs، يعتبر مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط «مشروعاً واقعياً، أو يمكن اعتباره كذلك»، على الرغم من أن إقامة مثل هذه المنطقة سوف تستغرق وقتاً طويلاً في الغالب. وتبعاً لتلك التقديرات، فإن التحدي القائم هو الكيفية التي يمكن أن تبدأ بها المحادثات بين أطرافه، وهو تقريباً نفس التوجه السائد في الأمم المتحدة بهذا الشأن. فالدراسة التي أعدها الخبراء الاستشاريون بالمنظمة حول هذه المسألة عام ١٩٩٠ أشارت إلى أنه «لا يوجد أيضاً أساس متين للشك في أن جميع الحكومات المعنية تعتقد أن إنشاء NWFZ (في الشرق الأوسط) يعتبر أفضل من الحالة الراهنة، والمشكلة هي كيفية إنشاء مثل هذه المنطقة والشروط التي تنشأ بها» فإنشاء مثل هذه المنطقة - تبعاً لهذا التيار - ممكن من حيث المبدأ.

يضاف إلى ذلك، أن خبرة عملية إقامة NWFZs تشير إلى أن إنشاءها قد يستغرق عقوداً طويلة تبعاً لخصوصيات كل حالة، ورغم طول مرحلة ما قبل المفاوضات. كما يطرح الاتجاه السابق - في الشرق الأوسط، إلا أنها لم تخترق بعد الحاجز الزمني للمنطقة الإفريقية التي استغرقت تلك المرحلة في عملية إقامتها ٣١ سنة (١٩٦٠ - ١٩٩١). والأهم أن المشروع لم يتعرض خلال هذه الفترة لانهيارات حادة على غرار ما حدث لمشروع إقامة NWFZ في جنوب آسيا عام ١٩٩٨، بل إن التوافق العام في الإقليم بشأن إقامتها، وحول بعض العناصر الخاصة بإطارها كان يتعمق مع الوقت، رغم أن ما يطرح بشأن المراحل الانتقالية في عملية الإقامة أو آليات التفاوض حول إنشائها أو التعقيدات الخاصة بتطبيقها يشير إلى أن تلك العملية قد تستغرق فترة أطول من أية NWFZ قائمة أخرى، كما أنها سوف تتسم بملامح أكثر تعقيداً.

إن المدخل الأساسي الذي يمكن الاقتراب من خلاله بشكل موضوعي من الإجابة على السؤال الرئيسي السابق يرتبط بمحاولة اختبار مدى انطباق شروط Pre-conditions أو متطلبات Prerequisites إقامة المناطق الخالية من الأسلحة النووية، كما حددتها الكتابات النظرية من ناحية، وعلى ضوء خبرة الدول التي أقامت مثل هذه المناطق من ناحية أخرى، لتحليل مدى توافر متطلبات أو شروط أو عوامل إنشاء NWFZ في الشرق الأوسط، وإمكانية إقامتها في إطار السمات والملامح الخاصة بها في الشرق الأوسط. وتتمثل الأسئلة الفرعية التي تشير الكتابات النظرية إلى ضرورة بحثها عبر طريق الاقتراب من الإجابة في :

. ما هي ملامح النطاق الجغرافي المناسب لإقامة NWFZ؟

. ما هو نمط العلاقات السياسية الملائم لتسهيل إمكانية التوصل إلى إقامة NWFZ؟

. ما هو شكل موازين القوى والقدرات النووية الذي يمثل قاعدة مناسبة لإقامة NWFZ؟

. ما هي أنماط تأثير العامل الدولي في عملية إنشاء NWFZ؟

وتتمثل النتائج العامة المرتبطة بإجابة تلك التساؤلات في أنه إذا تم التمييز بين شروط الإقامة وشروط الفعالية الخاصة بأنظمة NWFZs. توجد أربع مجموعات من المحددات الأساسية لإقامة NWFZs، طرح من جانب الباحثين والدول ووثائق الأمم المتحدة، بشأن كل منها عدد من الشروط المسبقة الرئيسية اللازمة لإنشاء تلك المناطق، وهي:

١. المحددات المتصلة بالنطاق الجغرافي للمنطقة، وتتضمن شرط صلاحية الإقليم جغرافيا لإقامة NWFZ، سواء فيما يتصل بحدوده الطبيعية أو حدوده الاستراتيجية، وشرط مشاركة الدول الرئيسية، والهامة عسكريا، في الإقليم بها.

٢. المحددات المتصلة بالصراعات القائمة في الإقليم، وتتضمن شرطين مترابطين يتصلان بغياب الصراعات الإقليمية الرئيسية المعرقلة لقيامها، وضرورة حل/ تسوية تلك الصراعات بما يسهل إنشاءها.

٣. المحددات المتصلة بالأوضاع النووية في الإقليم، وتتضمن شرطاً رئيسياً بعدم وجود أسلحة نووية فيه، مع شرطين مكملين يتصلان بالتوازن النسبي بين القدرات النووية لدوله، وانفصال الموازين العسكرية لفئات التسليح الرئيسية في الإقليم.

٤. المحددات الخاصة بمواقف القوى النووية الكبرى من إنشاء المنطقة، باعتبارها الفئة الأهم بين الأطراف الخارجية ذات العلاقة بالمنطقة، وتتضمن أحد الشروط المعقدة التي تركز على احترام تلك الدول مركز NWFZ .

وهناك بالطبع شروط أخرى تمت الإشارة إليها في دراسات مختلفة، لكنها إما أنه لم يكن هناك اتفاق بشأنها، أو أنها كانت ثانوية، أو أنها تمثل شروط فعالية.

وجود سلاح نووي لدى إسرائيل، في ظل تصورات قائمة لديها بأهمية استمرار وجوده، يمثل العامل المركزي بين العوامل الحاسمة الثلاثة المؤثرة على إقامة NWFZ في المنطقة



وقد أكدت الخبرة العملية لإقامة NWFZs في الأقاليم الأربعة التي تمت إقامة مناطق خالية بها فعليا على ضوء الشروط المتفق نظرياً على أنها تشكل اتجاه تأثير المحددات الأساسية لإقامتها، إلى أن المحددات العامة لإقامة NWFZs، بمضامينها العملية، تتمثل في الجدول التالي:

١ ـ مشاركة الدول الرئيسية في الأقاليم، فقد وضح من الخبرة العملية أنه شرط تأسيس رئيسي يرتبط بتوافق تلك الدول منذ البداية على المبادئ العامة لإقامة المنطقة، بمستوى يتيح بدء مرحلة المفاوضات، ولا يرتبط مصطلح الدول الرئيسية فقط بالقوى الإقليمية الكبرى في الإقليم، وإنما ما تعتبره دول الإقليم «دولا مهمة»، على أسس إستراتيجية تستند إلى مدركات التهديد، والقدرة على التأثير عسكرياً على الموازين الإقليمية.

٢ ـ تسوية الصراعات الإقليمية البينية ذات الأبعاد الخاصة، وهو شرط إقامة مزدوج التأثير، كانت له انعكاساته في معظم الحالات، يرتبط اتجاه تأثيره (تأسيس/استكمال إقامة) بمضمون الصراعات المتصلة بأوضاع كل إقليم، لكن يتمثل أهم أنماط تلك الصراعات في صراعات الدول الرئيسية /الهامة عسكريا حتى لو لم تكن حادة، خاصة إذا كانت تطرح احتمالات خاصة بامتلاك أو استخدام الأسلحة النووية في الإقليم.

٣ ـ عدم وجود أسلحة نووية في الإقليم عند التأسيس، وهو شرط تأسيس رئيسي يتسم بتعقيدات خاصة ترتبط بتعقيدات مستوى الامتلاك ذاته. وتبعا للخبرة العملية،لا يمنع وجود تلك الأسلحة من تصور إمكانية إقامة NWFZ في الإقليم، إلا أن بدء عملية إقامتها فعلياً يستلزم عدم وجود تلك الأسلحة قبل التأسيس.

أما بالنسبة لشرط احترام NWSs لمركز NWFZ، فإنه شرط يتسم بأهمية كبيرة بصفة عامة، لكنه ـ من واقع الخبرة العملية ـ لم يكن شرط إقامة، وإنما شرط فعالية ذا أبعاد إنشائية، يرتبط بضرورة مراعاة «الدول الإقليمية» المصالح الأساسية للقوى النووية الكبرى في المنطقة، بما يتيح موافقتها نسبياً على احترام مركز NWFZ في الإقليم، خاصة في المناطق التي يرتبط الهدف الخاص لإقامتها بحظر نشاطات نووية تقوم بها NWSs في المنطقة.

لكن هناك شرطين رئيسيين لم يتم تجاوزهما في أية منطقة، وهما: شرط مشاركة الدول الرئيسية بالإقليم في عملية تأسيس المنطقة، وهو شرط مسبق لابد من توافره قبل تأسيس المنطقة. وتبعاً لخبرة عملية إقامة NWFZs الأربع، لم تكن هناك مرونة بهذا الشأن إلا في حالات فرعية شديدة الخصوصية. والثاني: شرط عدم وجود أسلحة نووية في الإقليم عند التأسيس، وهو شرط مسبق توافر في كل الحالات قبل تأسيس المنطقة. فلم تكن أية دولة من الدول تمتلك أسلحة نووية بصرف النظر عن أوضاع تسليح NWSs الخارجية حول المنطقة. وفي الحالات التي كانت هناك أسلحة نووية مملوكة لإحدى دول تلك المناطق، تمت إزالة تلك الأسلحة قبل التأسيس.

وعلى الرغم من أن الصراعات الإقليمية المحددة القائمة في الإقليم تعتبر محدد إقامة رئيسيا، إلا أن الشرط الأساسي المتصل بها ليس شرطا حاكما مثل الشرطين السابقين، إذ أنه يشكل، من واقع الخبرة العملية، عاملا شديد التعقيد في تأثيراته بحيث لا توجد قواعد عامة واضحة بشأنه تتجاوز خصوصيات الأقاليم، فقد يكون عامل تأسيس مهماً في بعض المناطق، وقد يكون عامل اكتمال إقامة في بعضها الآخر. كما قد لا يتطلب الأمر تسوية كاملة للصراعات في بعض الأقاليم بينما يستلزم الأمر حلها بشكل شبه كامل في إقليم آخر، فهي تؤثر يقينا على إقامة NWFZs، لكن اتجاهات تأثيراتها ترتبط بطبيعة الصراعات المحددة في كل إقليم.

محددات إقامة NWFZs بين الأدب النظري والخبرة العملية

الأدب النظري		الخبرة العملية	
المحددات العامة	الشروط المحددة	قائم	حاكم
النطاق الجغرافي	شرط صلاحية الإقليم جغرافيا	×	×
	مشاركة الدول الرئيسية في الإقليم	✓	✓
الصراعات الإقليمية	غياب الصراعات الإقليمية الرئيسية	؟	×
	حل/ تسوية الصراعات الإقليمية الرئيسية	✓	×
الأوضاع النووية	عدم وجود أسلحة نووية في الإقليم	✓	✓
	توازن القدرات النووية + انفصال أنظمة التسليح	؟	×
العامل الدولي	احترام NWSs مركز المنطقة	×	×
	(مراعاة دول المنطقة مصالح NWSs فيها)	✓	×

في هذا الإطار، تشير حالة الشرق الأوسط بوضوح إلى أن إقامة NWFZ في ذلك الإقليم، لم تكن فكرة قابلة للتطبيق خلال الفترة الماضية، ولا تزال كذلك في المرحلة الحالية، بفعل عدم توافر معظم شروط إقامتها بمدى واسع في الإقليم؛ فقد كانت مجمل العوامل التي تؤثر أكثر من غيرها على إقامة NWFZ قائمة في المنطقة. وكانت مجمل أوضاع كل منها، تطرح مشكلات تدفع في اتجاه عرقلة التقدم في اتجاه «مرحلة المفاوضات» الخاصة بإقامتها في ظل تعارضات واسعة بين أطراف الإقليم حول علاقتها بإقامة NWFZ في الإقليم، مع عدم حدوث تقدم في اتجاه التعامل معها بصورة تتيح إمكانية تصور إقامة هذه المنطقة في مدى زمني يمكن تحديده على النحو الذي يمكن توضيحه في الجدول التالي:

إن ثمة مشكلة تواجه عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط. فعلى الرغم من انه لم تكن هناك إشكالية كبيرة في تحديد النطاق الجغرافي للإقليم لأغراض إقامة NWFZ فيه، بفعل وجود توافق نسبي على تعريفه، كانت هنالك إشكالية تتصل بعدم مشاركة غالبية الدول الرئيسية والهامة بالشرق الأوسط في محادثات ACRS، مع عدم وجود ما يشير إلى إمكانية تجاوز هذا الوضع في المدى القصير. كما كان وجود صراع إقليمي رئيسي متعدد الأطراف والأبعاد هو الصراع العربي الإسرائيلي، وتشابكه مع بؤرة التوتر الحادة في الخليج يمثل عائقا جوهريا أمام إمكانية التقدم في اتجاه إقامة NWFZ، على الرغم من بداية واستمرار تسويته سلميا، إذ كانت ثمة تعارضات بين مواقف الدول العربية وإسرائيل بشأن أولوية / توازي عمليتي تسوية الصراع - إقامة المنطقة. ويشير عدم وجود مفهوم محدد للتسوية ذاته إلى تعذر إمكانية تجاوز هذا الوضع.

الأهم، أن الشرق الأوسط يشهد فعليا وجود أسلحة نووية على ساحته، في ظل حالة احتكار لا توحي مستويات القدرات النووية القائمة بإمكانية تجاوزها في المدى الزمني القصير، ولا يوحي الموقف الإسرائيلي بإمكانية تصور «إزالة» هذه الأسلحة في أي مدى زمني محتمل في الشرق الأوسط بصفة عامة. يضاف إلى ذلك، أنه على الرغم من تأييد NWSs لإقامة NWFZ في الشرق الأوسط بصفة عامة، إلا أن مصالحهما الإستراتيجيه ووجودها العسكري في المنطقة يتطلبان مواقف إقليمية شديدة المرونة تجاههما، في حين لا يوجد يقين بهذا الشأن، بما يوحي بأن احترام هذه الدول المركز اللانووي للمنطقة لدى إقامتها يظل محل نقاش. لكن القضية الأعقد هي أن الوجود العسكري الدولي في الإقليم يمكن أن يطرح آثاراً حادة على عملية إنشاء المنطقة ذاتها عند بدء التفاوض حول تأسيسها. وليس فقط فعاليتها في التطبيق بعد قيامها. فإقامة NWFZ في الشرق الأوسط تواجه مشكلة شديدة التعقيد.

إن تطبيق مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط - كما هو واضح - قد واجه معضلة تتصل بعدم توافر الشرطين اللذين يقيمان - تبعاً للخبرة العملية لإقامة NWFZ السابقة - على أنهما حاكمين لأي عملية خاصة بإقامة مثل هذه المناطق، بحيث لم يتم تجاوزهما في أية حالة معا. وهما: شرط مشاركة الدول الرئيسية بالإقليم في عملية إقامة / تأسيس المنطقة، وشرط عدم وجود أسلحة نووية في الإقليم بداية الإقامة / التأسيس عملياً، وهما شرطا تأسيس مسبقان.

يضاف إلى ذلك عامل ثالث يعتبره - في ظل خصوصية تأثيره - كثير من المحللين «العامل الرئيسي» في إقامة/ عدم إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، وهو استمرارية تأثيرات الصراع العربي - الإسرائيلي. فبصرف النظر عن التعقيدات المحتملة المتصلة بمشكلة احترام أو عدم احترام NWFZ المركز اللانووي للمنطقة، توجد ثلاث عوامل رئيسية - أهمها الأوضاع النووية في الإقليم - تعرقل معاً عملية إقامة NWFZ في المنطقة. وهي كلها عوامل كان لكل منهما أثر حاسم بمفرده في عرقلة إقامة مثل هذه المنطقة في حالات سابقة.

المحددات/ التحقق	الشروط الرئيسية	الوجود	التوافر	وزن التأثير	إمكانية التوافر
النطاق الجغرافي	مشاركة (عدم مشاركة) الدول الرئيسية في الإقليم	مطروح بشدة	×	حاسم	غير محددة
الصراعات الإقليمية	غياب (وجود) الصراعات الرئيسية في الإقليم	مطروح بشدة	×	(حاسم)	محدد
الأوضاع النووية	خلو (انتشار) الأسلحة النووية من الأمن الإقليمي	مطروح بشدة	×	حاسم	غير متصورة
العامل الدولي	احترام (أو عدم احترام) NWSs المركز اللانووي للمنطقة	مثار	؟	هام	غير محددة

الشرق الأوسط يشهد فعليا وجود أسلحة نووية على ساحته، في ظل حالة احتكار، لا توحي مستويات القدرات النووية القائمة بإمكانية تجاوزها في المدى الزمني القصير



لكن المثير في حالة الشرق الأوسط هو أن عملية إقامة NWFZ في الإقليم لم تتحرك خطوة رسمية واحدة تتجاوز بها «مرحلة ما قبل المفاوضات» القائمة، على الرغم من أن الإقليم قد شهد تطورات مختلفة، أدت إلى تليين حدة تأثير بعض العوامل التي تحول دون بدء التحرك في اتجاه التفاوض حول إقامتها، خلال التسعينيات، على كافة المستويات تقريبا، كالتالي:

١ - النطاق الجغرافي: فقد تم التوصل إلى توافق نسبي حول النطاق الجغرافي «الوظيفي» لمنطقة الشرق الأوسط مع تطوير صيغ مختلفة للتعامل مع الأطراف المجاورة. وشارك أكاديميون ومسئولون سابقون من معظم الدول الرئيسية التي لم تشارك رسميا في محادثات ACRS في نقاشات «المسار الثاني» غير الرسمية، في ظل موافقة ضمنية من جانب حكوماتهم على ذلك.

٢ - الصراعات الإقليمية: فقد شهدت عملية التسوية السلمية للصراع العربي - الإسرائيلي تقدما ملموسا في اتجاه تسوية كثير من قضاياها فعليا، أو التوصل إلى أطر أو تفاهمات للتعامل مع المشكلات التي لم تحل، مع وجود تحولات هامة في توجهات إيران إزائها في ظل رئاسة خاتمي، وبروز تصورات حول إمكانية التمييز بين التفاهم حول إقامة NWFZ (في إطار عملية التسوية)، مع عدم البدء في التطبيق الفعلي لها إلا بعد نهايتها.

٣ - الأوضاع النووية: فقد بلورت مصر «مداخل أكثر تدريجية» بشأن لا نووية إسرائيل، مع التأكيد على وجود تمييز بين المحادثات والمفاوضات، والإخلاء الفعلي، بفواصل زمنية واسعة بين كل مرحلة، والقبول بالتحرك في اتجاه إجراءات بناء الثقة رغم وجود خلاف حول توقيتها وعلاقتها بموضوعات ضبط التسلح، والإقرار بضرورة تشكيل نظام إقليمي للرصد والتحقق في إطار NWFZ المحتملة.

٤ - العامل الدولي: فقد اتسع نطاق التأييد الدولي لإقامة NWFZ أو WMPFZ في الأمم المتحدة، وتم التأكيد على ذلك خلال مؤتمرات مراجعة NPT عامي ١٩٩٥ و ٢٠٠٠، وتم إطلاق عدة مبادرات دولية (كمبادرة بوش ١٩٩١) لفتح الطريق نحو إقامتها. كما صدرت دراسات مختلفة في الأمم المتحدة، ترافقت مع اتصالات رسمية - لتحديد المواقف بشأنها، والتوصل إلى صيغ تفصيلية لكيفية إقامتها.

لكن رغم ذلك - كما تمت الإشارة - لم تتحرك عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط خطوة واحدة تتجاوز بها «مرحلة ما قبل المفاوضات» القائمة، ولو بإجراء محادثات رسمية غير ملزمة في هذا الاتجاه. ويرتبط ذلك يقينا بعامل ذاتي يضاف إلى العوامل الموضوعية (الهيكلية) التي أعاقت الاقتراب من البدء في

تطبيق مشروع إقامة المنطقة. وهو التصلب الشديد من جانب إسرائيل في التعامل مع متطلبات إقامة NWFZ في الشرق الأوسط. فقد حددت إسرائيل مجموعة من الشروط المسبقة المتصلة بمسألة مشاركة الأطراف الرئيسية (أو كل أطراف الإقليم) في مناقشات ACRS، والتوصل إلى تسوية «حقيقية» للصراع العربي الإسرائيلي، مغلقة الباب تماماً أمام إمكانية تحريك مسألة «التسلح النووي» بأي مستوى رسمي مباشر.

فالتفاوض حول إقامة المنطقة يبدأ - وفقاً لتوجهاتها - بعد اكتمال توافر الشروط المسبقة حسب تقديراتها الخاصة لذلك، وليس بعد توافر مدى معين منهما، فمن الممكن فقط بدء النظر في ضبط التسلح النووي عندما تستقر «التسوية السلمية» للصراع العربي - الإسرائيلي تماماً، مع توقف أية تهديدات إقليمية محتملة لأمنها من جانب أي طرف ترى أنه يمكن أن يمثل مصدر تهديد، وهو الوضع الذي أشار إليه روجر سميث في عرضه لوجهات نظر المتشككين في جدوى ضبط التسلح بقوله «أن ضبط التسلح يكون غير ممكن عندما يكون ضرورياً وغير ضروري عندما يكون ممكناً». فتبعاً لذلك، على أطراف المنطقة أن تنتظر إلى حين لا يكون لوجود أو عدم وجود السلاح النووي أهمية.

إن هذه الأوضاع في مجملها هي التي أدت بكثير من الكتابات إلى القول بأن احتمالات إقامة NWFZ في مثل هذا الإقليم «كانت معدومة تقريبا» خلال الفترة الماضية، وهي مقولة دقيقة إلى حد كبير، لكن يظل ثمة محدد (زمني) رئيسي يحيط بدلالات مثل هذه الاستنتاجات بالنسبة لمستقبل إقامة NWFZ في الشرق الأوسط. فخبرة عمليات إقامة NWFZs السابقة تشير إلى أنها عملية طويلة المدى تمر بمراحل مختلفة، يتم التقدم عبرها خطوة خطوة في معظم الأحوال، وما يعنيه عدم توافر شروط القابلية لتطبيق مشروع NWFZ في الشرق الأوسط أنه غير قابل للتطبيق في مرحلة زمنية معينة، ولمدى زمني معين يرتبط باستمرارية تأثير العوامل المعوقة لإقامتها. فعدم التطبيق في المرحلة الحالية، لا يعني أنه لا يمكن أن يحدث ذلك في المستقبل، رغم أنه لا يعني أيضا أنه يمكن يقينا أن يحدث.

وفي الواقع، فإن هناك على الأرجح مستقبلين - وليس مستقبلاً واحداً - لمسار عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، يرتبط أي منهما على الأرجح بمدى استمرارية أو تغير ما يبدو أنه «العامل المركزي» الأكثر تأثيراً في مسار تلك العملية، وهو «الوضع النووي» في الإقليم. فعلى الرغم من صعوبة تحديد الأوزان النسبية للعوامل المؤثرة على إقامة NWFZ في حالة واحدة، لا تزال تمثل مشروعاً مقارنة ببعضها البعض، إلا أن الواضح هو أن وجود سلاح نووي لدى إسرائيل، في ظل تصورات قائمة

هناك تصورات مؤثرة في إسرائيل حول أهمية وجود ودور السلاح النووي في ظل «حالة السلام». فلن تكون هذه التسوية - خاصة في ظل عدم وجود مفهوم إسرائيلي محدد لها - حاسمة تماما



لديها بأهمية استمرار وجوده، وعدم وجود أسلحة موازنة له في المنطقة يمثل العامل المركزي بين العوامل الحاسمة الثلاثة المؤثرة على إقامة NWFZ في الشرق الأوسط.

إن الأسلوب التي تتعامل به إسرائيل مع متطلبات إقامة المنطقة يشير إلى أن ثمة مشكلة حقيقية ترتبط بالعامل الأول، فعلى الرغم من أنه لا يمكن تصور إمكانية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط بدون مشاركة الدول الرئيسة بالإقليم في عملية الإقامة، إلا أن مشاركة الدول التي لم تنضم إلى ACRS في أعمال اللجنة لم تكن لتضمن بدء التفاوض مباشرة حول إقامة تلك المنطقة، إذ أن القضية تتعلق برؤية إسرائيل لنمط العلاقات التي ستقوم بينها وبين تلك الدول، وليس مجرد انضمامها إلى ACRS، وهو الأمر الذي لن يتضح إلا بعد فترة طويلة من التفاعلات فيما بينها، والتي ستخضعها إسرائيل أيضا - مثلما يشير مفهومها للسلام مع دول الطوق - للاختبار المزمن، خاصة وأن ثمة شكاً عميقاً في بعض الكتابات الإسرائيلية، في إمكانية تخلي تلك الدول عن «أسلحتها غير التقليدية»، حتى إذا قدمت إسرائيل تنازلات نووية، فلن تكون مثل هذه المشاركة حاسمة تماماً.

من جانب آخر، فإن تحليل التأثيرات المتصورة للصراعات الإقليمية قد أوضح - مثلما هو الحال بشأن العامل السابق - أنه إذا كان من غير الممكن تصور إقامة تلك المنطقة بدون إتمام التسوية السلمية للصراع العربي - الإسرائيلي، فإن تحقيق هذه التسوية لا يضمن على الإطلاق البدء في عملية التفاوض الخاصة بإقامتها خلال أي مدى زمني يمكن تحديده بعدها، بل أن هناك تصورات مؤثرة في إسرائيل حول أهمية وجود ودور السلاح النووي في ظل «حالة السلام». فلن تكون هذه التسوية - خاصة في ظل عدم وجود مفهوم إسرائيلي محدد لها - حاسمة تماماً.

وبالتالي فإن بقاء الأوضاع النووية في الإقليم على ما هي عليه، أو تغيرها هو الذي سيمارس - على الأرجح - تأثيراً مباشرا على عملية الإقامة. فمن المتصور أنه إذا تطورت الأوضاع النووية في الشرق الأوسط لتصبح أكثر توازناً في المستقبل، فإن المسار المتصور لعملية إقامة NWFZ في الإقليم سوف يشهد تحولاً في اتجاه جعل احتمالات الإقامة أكثر يقينية، وربما تبلور جدول زمني محدد لها، لكن ربما يكون من المهم التمييز - بشكل أولي - بين مستويين للأوضاع النووية المحتملة في الإقليم، وهما:

أ - أن تشهد المنطقة تطورات واسعة النطاق في «القدرات النووية» لبعض الدول، بمستوى يتيح لها «خيارات نووية عسكرية» محتملة. وفي هذه الحالة سوف تتبلور في الإقليم - أمام إسرائيل بالذات - خيارات محددة وضاغطة، فإما أن يتم الاتجاه بوضوح نحو إقامة NWFZ يتم في إطارها إزالة أسلحتها النووية خلال مدى زمني معين، وإما أن تقبل احتمال أن تظهر أسلحة نووية أخرى في الإقليم. وثمة وعي متصاعد داخل الدول العربية بهذه المسألة، ففي تقرير أعده المجلس المصري للسلام ونزع السلاح، تمت الإشارة إلى «أننا لا نريد أسلحة نووية، لأننا لن نحتاجها كي نفرض على إسرائيل القبول بمشروع إخلاء الشرق الأوسط من هذه الأسلحة، ويكفي أن تشرع أربع أو خمس بلدان عربية في بناء عشرة مفاعلات من أجل الاستخدام السلمي للطاقة النووية وفق البند الرابع من NPT ، فهذا وحده كفيل بأن يجبر إسرائيل على الدخول في محادثات جادة مع العرب بشأن هذه المسألة».

كما أن ثمة إدراكاً في إسرائيل أيضا لذلك، ففي ظل تحليل حكومة اسحق رابين، خلال النصف الأول من التسعينات لدروس الحالة العراقية، تبلور اتجاه بأنه «يجب على إسرائيل أن تساهم في استراتيجية نشطة لمنع التسلح النووي من خلال تنسيق سياسي واستخباراتي قوي مع الدول الصديقة، كما يجب عليها، وهذا هو الأهم، أن تسعى لعقد اتفاقيات سلام مع جميع جيرانها من أجل التقليل من محفزات التسلح النووي، ومن الدعم الذي يناله في العالم العربي، وخاصة لدى إيران. وبدون شك فإنه إذا شهدت المنطقة تطورات ذات أهمية في القدرات النووية لدولها، سوف تتجه إسرائيل للتفكير في عقد «اتفاقيات لضبط التسلح» من أجل وقف إمكانية اتجاه تلك التطورات نحو «العسكرة».

ب - أن تشهد المنطقة تطورات درامية أو مفاجئة يظهر فيها سلاح نووي لدى إحدى دولها، بحيث تتجاوز الموازين الجديدة «توازنات الأسلحة - القدرات» إلى حالة «توازن تسليحي نووي» تقليدية. ومن الصعب في هذه الحالة تصور ما يمكن أن يحدث بالنسبة لمسار عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط. فالاحتمال الأول أن تبدأ على الفور «مفاوضات» لإخلاء الشرق الأوسط من الأسلحة النووية بفعل المخاطر التي يمكن أن تترتب على وجود تلك الأسلحة في ظل عدم الاستقرار المزمن والتقلبات الحادة المفاجئة في الإقليم. ويتصور أن «مرحلة المفاوضات» وكذلك كافة المراحل التالية حتى اكتمال الإقامة، وبدء التطبيق الفعلي لن تستغرق وقتاً طويلاً.

أما الاحتمال الثاني، فهو أن تتبدد تماما إمكانية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، وينهار مشروعها في ظل انتقال الإقليم إلى «حالة الانتشار النووي»، خاصة إذا كانت الدولة النووية الجديدة واقعة خارج دائرة الصراع العربي - الإسرائيلي، فهل كان العراق - لو كان قد امتلك أسلحة نووية في بداية

التسعينيات. سيزيل تلك الأسلحة مقابل إزالة إسرائيل لأسلحتها المناظرة، أم إنه كان سيفضل حالة «توازن قوى ثنائي» إقليمية ؟ ونفس السؤال مطروح بالنسبة لإيران. فهناك عدم يقين بشأن ما يمكن أن يكون عليه مستقبل عملية إقامة NWFZ بالمنطقة، في حالة انتشار الأسلحة النووية فيها.

مجمل القول: أنه في إطار الأوضاع الحالية في الإقليم (بافتراض أن إيران لاتمتلك قدرات نووية عسكرية)، خاصة على المستوى النووي، ليست هناك إمكانية لإقامة NWFZ في المدى القصير / المباشر بالشرق الأوسط، وإذا استمرت تلك الأوضاع على ماهي عليه مستقبلاً، ستكون عملية إقامتها طويلة المدى، معقدة، ولا يوجد ما يضمن وصولها إلى النهاية المفترضة لها. أما إذا شهدت تلك الأوضاع - وتحديداً المستوى النووي منها - تحولاً ذا أهمية، فإن عملية الإقامة (في ظل معظم الاحتمالات) سوف تتجه نحو أهدافها النهائية بسرعة تتفاوت تبعاً لمعدلات ونوعية التحولات التي يشهدها الإقليم.

وهكذا، فإن حالة الشرق الأوسط تواجه إشكاليات أكثر تعقيداً مما شهدته الحالات السابقة، فمشكلة مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط «تحديداً» - وربما تشترك معه في ذلك مشروعات جنوب آسيا وشبه الجزيرة الكورية - لا ترتبط فقط بالعناصر المستجدة على المفهوم، أو الشروط المحددة المتصلة بتطبيقه، وإنما بما يبدو من ضرورة ترافقه مع مع عملية معقدة لإعادة ترتيب الأوضاع الأمنية في البيئة الاستراتيجية الإقليمية المحيطة به. فما تم رصده يشير إلى ملمحين أساسيين لعملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، هما:

١ - أنها ستكون عملية ممتدة، متعددة المراحل، طويلة المدى، يتم التعامل في إطارها مع NWFZ كهدف نهائي وليس كهدف مباشر، وهو ملمح تقليدي لمعظم عمليات إقامة NWFZ السابقة، إلا أن ما يثار بشأن حالة الشرق الأوسط يتسم بطابع شديد الخصوصية، فعلى الرغم من أنه كان قد مر ٢٥ سنة على بداية المشروع عام ١٩٩١، كان هناك شعور داخل ACRS بأنه لا تزال «هناك ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ سنة أسفل الطريق»، وأنه سيتم قطع هذه المسافة بخطوات شطرنجية للأمام، مع تحذيرات تحليلية - تستند على وجهة نظر إسرائيل في الأساس - من أن جميع الأطراف سترتكب خطأ إذا وصلت المساعي السياسية والفكرية للتوصل إلى ترتيبات نووية نهائية (كهدف أول)، فمن شأن هذا الخطأ أن يخلق المآزق والطرق المسدودة والاتجاهات المضادة التي تضر بروح عملية بناء جسور الثقة، أو أن أية محاولات لدفع تلك العملية بالضغط لإقامة NWFZ / WMPFZ في ظل غياب الشروط الضرورية لها سوف يكون نوعا من «هزيمة الذات»، وهو ما يشير إلى أنه إذا تم الاستناد على تلك التصورات في التعامل مع المشكلة النووية في الشرق الأوسط، ستكون عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، أشبه «بالسير وراء سراب». لكن ربما لن يكون هناك مفر من ذلك إذا استمرت اتجاهات تأثير محددات إقامة NWFZ - التي تمت الإشارة إليها - على ما هي عليه.

لقد دفع هذا الوضع (المحتمل) مختلف الكتابات الصادرة عن الأمم المتحدة أو مراكز أبحاث غربية أو إسرائيلية، وبعض الكتابات العربية كذلك، إلى اقتراح سيل من «الخطوات الانتقالية» التي تهدف إلى بناء الثقة المتبادلة بين أطراف المنطقة، لتمهيد الطريق نحو إنشاء NWFZ في الشرق الأوسط، أو «البدائل الانتقالية» التي تهدف إلى التعامل مع بعض أبعاد المشكلة النووية في الإقليم دون «إزالة الأسلحة الموجودة» ويمكن أن يشكل بعضها عناصر تدخل ضمن الاتفاق النهائي لإقامة NWFZ المتصورة على المدى الطويل، أهمها - بدون ترتيب أو أولويات - انضمام إسرائيل إلى NPT والإعلان من جانب واحد عن كافة الأنشطة النووية، وتشكيل نظام غير رسمي (عن طريق الدعوة) للتفتيش النووي، ووضع ضوابط للتعامل مع الوقود النووي، وتعميق الشفافية / التعاون النووي، وتقييد حق الانسحاب من NPT ، وعدم تخزين مواد نووية انشطارية، وحظر إجراء تجارب نووية، والالتزام بعدم شن هجمات ضد المنشآت النووية.

وقد وصلت تلك التوجهات إلى اقتراح خطوات انتقالية متطورة كإعلان / اتفاق إقليمي لعدم البدء باستخدام الأسلحة النووية (أولا)، أو إقامة نظام لوقف إنتاج المواد الإنشطارية النووية (على غرار مبادرة بوش - ١٩٩١)، بالتوازي مع إجراء محادثات غير رسمية حول الانتشار النووي والردع في الشرق الأوسط، وإمكانية تطبيق بعض الخطوات والتدابير المشار إليها فعليا. ومتطلبات وشروط إقامة NWFZ في المنطقة. بل وجرت محاولات فعلية لتطبيق بعض إجراءات بناء الثقة على المستوى النووي، لكن ظل منطق الخطوات / البدائل الانتقالية محل نقد من الجانب العربي، فتبعا لما قيل أحيانا «لا يمكن للمنطقة أن تنتظر خمسين سنة لتطوير نظام سليم للأمن في ظل حالة عدم الاستقرار والتقلبات القائمة فيها، ولابد من التكرار بأن الشرق الأوسط ليس أوروبا، وعليه من الضروري التوقف عن الكلام حول CBMS ... فأولاً لابد من معالجة ضبط التسلح في المنطقة نظر للحاجة الماسة له لتعزيز السلام والأمن، فلا تزال تفاعلات التعامل مع طول مدى عملية إقامة NWFZ في الشرق الأوسط مستمرة.

لا يمكن للمنطقة أن تنتظر خمسين سنة لتطوير نظام سليم للأمن في ظل حالة عدم الاستقرار والتقلبات القائمة فيها، ولابد من التكرار بأن الشرق الأوسط ليس أوروبا

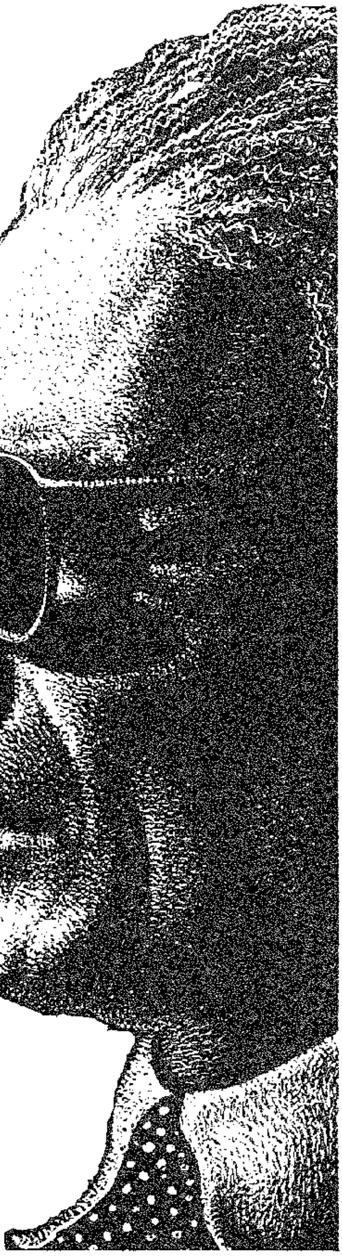


٢ - أنها سوف تتم - على الأرجح - في إطار نظام أو ترتيبات أمن إقليمية أكثر شمولية يرتبط بالتعامل مع كافة / معظم مشكلات الأمن الإقليمية في إطار مفاهيم للأمن الشامل أو الجماعي، أو على الأقل كجزء من نظام أو ترتيبات ضبط تسلح إقليمية عامة تتعامل مع كافة / معظم مجالات التسلح غير التقليدية والتقليدية في المنطقة. فالمدخل الوظيفي المستند على مفهوم الأمن المشترك، والذي يعزل «المشكلة النووية» عن بقية القضايا المطروحة على جدول أعمال الأمن / ضبط التسلح الإقليمي، قد لا يتبع في الشرق الأوسط بنفس الأسلوب الذي شهدته معظم الحالات السابقة تقريبا، وإنما في إطار «حزمة ترتيبات» أوسع نطاقا، فعملية الربط ستكون ضرورية إذا كان من المقدر أن تتحقق تحديدات هامة للتسلح في الشرق الأوسط، بل أن البعض يرى أن من المحتمل أن تكون عملية إنشاء WMDFZ تحديدا، أحد مخرجات ، إقامة النظام الأمني في الشرق الأوسط، أكثر منها كواحدة من عناصر أو مهام إقامته، أي أنها قد لا تنشأ كجزء من الترتيبات الإقليمية الواسعة، وإنما بعد إقامه واستقرار تلك الترتيبات، فهي ليست من الخطوات الأولى في تلك العملية، وهو ما يحدث فعليا في الشرق الأوسط.

لكن رغم كل التعقيدات التي تواجه مشروع إقامة NWFZ في الشرق الأوسط، مثل كثير من المشروعات المماثلة المطروحة في أقاليم أخرى من العالم، على مستوى تشكيل المفهوم تبعا لظروف الإقليم، أو إمكانية تطبيقه وفق محدداته الذاتية، إضافة إلى ما تمليه أوضاع البيئة الإستراتيجية المحيطة به، فإن ما تم رصده وتحليله في هذا التقرير يشير إلى أنه لا يزال ينظر إليه على أنه مشروع واقعي، ليس «غير قابل للتطبيق»، وسوف يظل كذلك على الأرجح، طالما ظلت هناك مشكلة نووية لا يوجد مدخل دولي ملائم للتعامل معها أو كاف للإحاطة بها، في الشرق الأوسط، وطالما ظلت الأطراف العربية تعتبره خيارا متاحا - ربما لأنه الممكن - للتعامل مع هذه المشكلة، في ظل صعوبة إتباع خيارات أخرى.

فلم يؤد ما جرى حتى نهاية عام ٢٠٠٤ في إطار محاولات تطبيقه، إلى جعل NWFZ مفهوما غير مناسب، أو مشروع فاشل. ولا تزال العملية متوقفة تقريبا في انتظار فرصة أخرى لبدء تحريكها على طريقها الطويل، الذي لن تكون هناك ملامح واضحة لنهايته، طالما ظلت اتجاهات تأثير محددات إقامة NWFZ في المنطقة - خاصة العامل النووي - على ما هي عليه، وإن كان الأمر يتطلب - في النهاية - قيام مصر تحديدا بإعادة دراسة هذا الموضوع برمته، في اتجاه طرح تصور تفصيلي متكامل وواقعي، للكيفية التي يمكن بها إقامة NWFZ /WMDFZ في الشرق الأوسط. ■

طه حسين.. آراء أدبية



■ ■ الدكتور محمد الدسوقى أستاذ من أساتذة الأدب العربى واللغة العربية. وهو أستاذ معروف فى الأوساط الأدبية والجامعية بالأخلاق الطيبة والاستقامة العلمية والإخلاص للثقافة والعكوف على العلم بعيداً عن الزحام والضوء والثرثرة. وكان الدكتور الدسوقى قبل أن يتفرغ لعمله كأستاذ جامعى أحد العاملين البارزين فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفى سنة ١٩٦٤ اختاره الدكتور طه حسين بعد أن أصبح رئيساً للمجمع اللغوى سكرتيراً له، وظل الدكتور الدسوقى ملازماً لطه حسين حتى سنة ١٩٧٢، أى قبل وفاة طه حسين فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعام أو أقل من عام، حيث انتقل الدكتور الدسوقى إلى العمل فى الجامعة، واضطره وضعه الجديد إلى إنهاء فترة عمله مع طه حسين والتى استمرت حوالى ثمانى سنوات. وأنا لا أعرف شيئاً عن الدكتور الدسوقى الآن، وأرجو أن يكون فى خير حال، فهو رجل جاد وعالم فاضل وشخصية تستحق التقدير والاحترام.

فى خلال السنوات الثمانى التى كان فيها الدكتور محمد الدسوقى قريباً من طه حسين، يقرأ له ويصاحبه فى لقاءاته واجتماعاته المختلفة، استمع الدسوقى من طه حسين إلى آراء عديدة فى الأدب والثقافة والحياة، واستمع منه أيضاً إلى كثير من وجهات نظره الصريحة فى أدباء عصره، وكانت هذه الآراء «شفهية» أى أن طه حسين لم يشر إليها فى كتاباته المعروفة من قريب أو بعيد. ورأى الدكتور الدسوقى أن ينشر ما سمعه من آراء طه حسين فى كتاب صغير عنوانه «طه حسين يتحدث عن أدباء عصره». وقد صدرت لهذا الكتاب طبعتان عن «الدار العربية للكتاب فى ليبيا وتونس».

ويحدثنا الدكتور الدسوقى عن منهجه فى تسجيل آراء طه حسين فيقول: «إن هذا الكتاب الذى أقدمه عن علاقة العميد الرائد ببعض أعلام عصره، ليس فيه إلا رواية النصوص والأخبار كما سمعتها، وإن كنت قد أضفت إلى ما سمعت بعض النصوص التى أشار إليها العميد أو أكملت بعض ما تحدث عنه. وتلك الروايات والأخبار التى اشتمل عليها هذا الكتاب يتم نشر معظمها لأول مرة، ولذا تصبح لها قيمتها العلمية المهمة». ثم يقول الدكتور الدسوقى: «والذى أود الإشارة إليه أنى كنت أحرص أبلغ الحرص على ألا يعرف العميد أنى أدون شيئاً مما يقول، وكنت أسمع حديثه وأسجله فور سماعه تسجيلاً كاملاً إن استطعت، أو أدون أفكاره الأساسية ثم أعيد كتابة حديثه فى نفس اليوم بعد انتهاء اللقاء، ويعلم الله أنى ما تقولت على العميد الجليل، أو حذفت أى شىء مما قاله، وأنى كنت أهدف من وراء حرصى على التدوين لكل ما أسمع وأرى خدمة الفكر والتاريخ. على أننى قد أمسكت عن نشر بعض ما أفضى به العميد لأنه لا جدوى منه فى دراسة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام فضلاً عما فى إذاعته من اهتزاز للصورة المشرقة لهم».

هذا هو تبرير الدكتور محمد الدسوقى لما قام به من تسجيل آراء طه حسين الشفوية ونشرها على الناس فى كتابه «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره».

والحقيقة أن الكتاب - فى حد ذاته - هو كتاب ممتع، وهو يعطينا لوناً من ألوان الأدب غير مألوف فى ثقافتنا العربية، أعنى به أدب الصراحة والوضوح والمكاشفة والابتعاد الكامل عن المجاملة. وقد كان من الطبيعى أن تتوفر هذه العناصر جميعاً فى هذا الكتاب الصغير المثير، فقد كان طه حسين يتحدث دون أى تحفظ مع سكرتيره الذى يثق فيه وكأنه يتحدث مع نفسه. وفى مثل هذه الحالة لم يكن طه حسين مضطراً لأن يضع حساباً للاعتبارات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التى لابد أن تدفعه إلى التحفظ والحذر، كما أن طه حسين لم يكن يتصور مطلقاً أن ما يقوله فى هذه الجلسات الشخصية الخاصة سوف يتم نشره فى كتاب.

على أن هناك نقطة يمكن أن نتوقف أمامها وقفة النقد والمراجعة هى ما اعترف به الدكتور الدسوقى من أنه كان يسجل آراء طه حسين دون علمه ودون استئذانه، وذلك ولا شك يعود إلى أن الدكتور الدسوقى كان يريد لآراء طه حسين أن تكون عادية تماماً من أى تحفظ أو تردد فى إعلان تلك الآراء والتصريح بها، فذلك هو ما يضمن لهذه الآراء أن تكون أكثر إثارة، وأن تكون آراء

غيـــر مســـــئولــة!

رجـــــــاء النقـــــــاش

جديدة لم يسمعها أحد أو يقرأها لطه حسين من قبل.

وهنا نتساءل: هل هذا الموقف هو أمر مقبول من ناحية الأخلاق العلمية الصحيحة؟ وهل يحق لأحد، مهما كانت نيته حسنة وطيبة، أن ينسب للآخرين آراء قالوا بها عفو الخاطر فى جلسات خاصة، دون أن يراجعوا أنفسهم فى مدى دقة هذه الآراء وصوابها واتفاقها مع الحقيقة والواقع؟ وهل يحق لأحد أن يعلن على الناس آراء للآخرين، دون أن يكون أصحاب هذه الآراء على علم بأنها سوف يتم إعلانها والكشف عنها للجميع؟

إن الثقافة العالمية تقدم إلينا نماذج رائعة لهؤلاء الذين أتيح لهم أن يكونوا تلاميذ لبعض الكبار، فنقلوا عنهم الكثير، ولكنهم وضعوا لهذا النقل ضوابط دقيقة، منها أن يكون ما يتم نقله مرتبطاً بحكمة الكبار وآرائهم الصائبة والعميقة فى الحياة، وقد حرص هؤلاء التلاميذ الأوفياء على تسجيل فلسفة أساتذتهم وما كانوا يرددونه من أفكار عالية سامية، بعد أن خشى التلاميذ على هذه الثروة أن تضيع وتتبدد، لأنها كلها كانت آراء شفهية غير مكتوبة.

ولاشك أن أبرز نموذج عرفه تاريخ الفكر الإنسانى فى هذا المجال هو نموذج أفلاطون «٣٤٧-٤٢٨ قبل الميلاد»، فقد نقل «أفلاطون» عن أستاذه «سقراط» كثيراً من آرائه وقام بتسجيلها فى كتابه الخالد «محاورات أفلاطون». فقد كان سقراط لا يكتب آراءه وإنما كان يتحدث بها إلى تلاميذه ويتحاور معهم فيها، وكان أفلاطون هو أنبغ تلاميذ سقراط، فاستوعب محاورات أستاذه وسجلها بدقة وأمانة وأسلوب أدبى فنى جميل فبقيت «محاورات أفلاطون» المنقولة عن «سقراط» عملاً من أروع أعمال العقل الإنسانى على مر العصور والأجيال.

هناك تجربة أخرى معروفة فى الأدب العالمى هى تجربة الأديب الألمانى «إكرمان» واسمه الكامل «يوهان بيتر إكرمان» «١٧٩٢ - ١٨٥٤» و«إكرمان» هو تلميذ لأديب ألمانيا العظيم جوته «١٧٤٩ - ١٨٣٢»، فقد عاش «إكرمان» إلى جانب أستاذه «جوته» سنوات عديدة حرص فيها على تسجيل أفكاره الشفهية وآرائه المختلفة فى الأدب والحياة، والتى كان يقولها فى مجالسه الخاصة أو يفضى بها إلى تلميذه الأمين «إكرمان»، وجاء كتاب «إكرمان» جامعاً لهذه الأحاديث، وكان عنوانه «أحاديث جوته»، وأصبح هذا الكتاب من الكتب الباقية التى يقرأها الناس فى ألمانيا وفى الغرب كله جيلاً بعد جيل، لأن فيها من الحكمة والفلسفة الصافية عن الحياة والإنسان والثقافة ما يكشف عن جوانب مضيئة وغير معروفة فى شخصية «جوته» العظيم. ويقول مؤرخو الأدب إن كتاب «إكرمان» هو أحد المراجع اللازمة لفهم تفكير جوته، وقد وصفه الفيلسوف نيتشه «١٨٤٤ - ١٩٠٠» بأنه «أعظم كتاب فى اللغة الألمانية».

والذى لا شك فيه أن سقراط كان يعرف أن تلميذه أفلاطون يقوم بتسجيل آرائه وأفكاره تسجيلاً دقيقاً. كما أن «جوته» كان يعلم أن «إكرمان» يقوم بتسجيل آرائه وأفكاره وكان راضياً عن هذا التسجيل ومشجعاً له.

فى مقابل هذا كله نجد الدكتور الدسوقى يعترف اعترافاً صريحاً فى مقدمة كتابه بأنه لم يستأذن طه حسين فى تسجيل آرائه، ولم يكن طه حسين يدرى أن مثل هذه الآراء سوف يتم نشرها على الناس فى يوم من الأيام. وكان من الممكن أن نتجاوز عن هذه الملاحظة لو أن ما جاء فى كتاب الدكتور الدسوقى كان آراء لطه حسين فى الأدب والفكر والحياة، فلا شك أن مثل هذه الآراء كانت سوف تحمل إلينا الكثير من خبرة طه حسين الطويلة مع تجارب الحياة والثقافة، خاصة أن طه حسين فى تلك الفترة التى ارتبط فيها مع الدكتور الدسوقى واتخذه سكرتيراً له كان قد تقدم فى العمر وبلغ قمة النضج. فقد ارتبط الدكتور الدسوقى مع طه حسين ابتداء من سنة ١٩٦٤ وحتى سنة ١٩٧٢. وكان طه حسين فى بداية هذه الفترة قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، وكان فى الثالثة والثمانين فى نهاية هذه المرحلة، أى سنة ١٩٧٢، إذ أن طه حسين هو من مواليد ١٨٨٩.

وبدلا من ذلك كله فقد اختار الدكتور الدسوقى أن يعرض لنا بعض آراء طه حسين الخاصة والشخصية فى عدد من أعلام عصره، ممن اتصل بهم فى الجامعة أو فى الصحافة أو فى العمل العام، وجاءت بعض هذه الآراء أشبه بالصدمة، وكانت فى أحيان كثيرة تبدو آراء تجريحية عدوانية غير مسئولة، كما أنها جاءت خالية من أى دليل يثبتها ويؤكد صحتها، وهى آراء تحمل اتهامات خطيرة جداً لعدد من الشخصيات المهمة فى عصر طه حسين.

من أمثلة ذلك ما جاء على لسان طه حسين فى رواية الدكتور الدسوقى عن الدكتور محمد حسين هيكل حيث يقول:

«الدكتور هيكل لم يكن يؤلف كتبه، وإنما كان يكتبها له آخرون ثم ينسبها لنفسه. ومع هذا تشتمل على أخطاء علمية ضخمة» «صفحة ٨٢ من كتاب الدكتور الدسوقى».

وهكذا بكل بساطة يلغى طه حسين كاتباً من أكبر الكتاب العرب فى العصر الحديث وهو الدكتور محمد حسين هيكل، والدكتور هيكل «١٨٨٨ - ١٩٥٦» كان يكتب ويؤلف ويشارك فى الحياة السياسية منذ حصوله على الدكتوراة من السوربون سنة ١٩١١ وحتى وفاته سنة ١٩٥٦ عن ثمانية وستين عاما. وللدكتور هيكل أعمال تاريخية وفكرية وأدبية بالغة الأهمية، فروايته المعروفة «زينب» التى ظهرت سنة ١٩١٤ ينظر إليها كثير من النقاد ومؤرخى الأدب على أنها أول رواية عربية تكتمل فيها العناصر الفنية للرواية بمعناها الصحيح، وبهذا المعنى فإن الدكتور «هيكل» يكون هو مؤسس فن الرواية الحديثة فى الأدب العربى المعاصر. ومن ناحية أخرى فإن كتابات الدكتور هيكل الإسلامية عن «حياة محمد» و«أبى بكر الصديق» و«الفاروق عمر بن الخطاب» و«فى منزل الوحى» تحتل جميعا مكانة رفيعة فى ثقافتنا الحديثة وتجعل من مؤلفها الدكتور هيكل واحداً من أكبر المؤرخين الإسلاميين فى عصرنا الحاضر وفى كل العصور منذ ظهور الإسلام إلى الآن.

لقد بدأ الدكتور هيكل الكتابة فى أوائل القرن العشرين ولم يتوقف عن الكتابة حتى وفاته، ومعنى ذلك أنه ظل يكتب حوالى نصف قرن كتابة مؤثرة وناجحة ولها انتشار واسع بين جماهير المثقفين والمتعلمين العرب، ولم يحدث مطلقا أثناء الحياة الفكرية الطويلة والخصبة للدكتور هيكل أن أثار أحد من الكتاب أو النقاد من قريب أو بعيد هذه التهمة العجيبة، وهى أن كتابات الدكتور هيكل ليس له فيها غير وضع اسمه عليها، فهى كتابات كتبها غيره ممن استعلهم الدكتور هيكل ووضع اسمه على أعمالهم من باب الاستغلال والتزوير.

والاتهام الذى جاء على لسان طه حسين ليس عليه دليل من أى نوع، فليس فى الاتهام تحديد لأسماء الذين كانوا يكتبون للدكتور هيكل، أو استشهاد باسم واحد من هذه الأسماء. وفى المقابل فإننا نجد أمامنا دليلاً عقلياً منطقياً يقف إلى جانب الدكتور هيكل ويدافع عنه، وهو أن هناك «وحدة» فى المنهج والأسلوب فى كتابات الدكتور هيكل، مما يؤكد أنها كلها صادرة عن شخصية فكرية واحدة، والمفروض أن تكون هذه الشخصية هى شخصية الدكتور هيكل نفسه. ولكن الكلام المنسوب إلى طه حسين يشير إلى أن هناك أشخاصا متعددين وراء كتابات هيكل، ولا

هل يحق لأحد، مهما كانت نيته حسنة وطيبة، أن ينسب للآخرين آراء قالوا بها عفو الخاطر فى جلسات خاصة، دون أن يراجعوا أنفسهم فى مدى دقة هذه الآراء وصوابها واتفاقها مع الحقيقة والواقع؟

يستطيع أي منهج علمي دقيق أن يتقبل وجود عدة أشخاص وراء كتابات الدكتور هيكل. لأن الذي كتب هذه المؤلفات هو شخص واحد، له أسلوب خاص به، وله منهج محدد متميز في التفكير، ولو افترضنا صحة اتهام طه حسين فمن الضروري أن يكون وراء كتابات الدكتور هيكل شخص واحد كتب كل هذه الكتابات الخصبة الرائعة، وضحى بنفسه وجهده، وسمح للدكتور هيكل بوضع اسمه على هذه الكتابات. فمن هو هذا الشخص الذي كتب مؤلفات الدكتور هيكل؟ ولماذا رضى أن يقدم كل هذه الأعمال الفكرية والأدبية البارزة إلى الدكتور هيكل ويختفي تماماً وراء هذا الاسم، ويسمح لاسمه الشخصي وموهبته العالية أن يسقطا نهائياً من تاريخ الفكر والثقافة؟. وهل من الممكن أن يكون هناك مفكر وأديب لديه كل هذا العمق وهذه الخصوبة يرضى لنفسه أن يبيع ثقافته وموهبته لشخص آخر بهذه الطريقة المكشوفة وغير المنطقية؟ وما هو المقابل الذي يمكن أن يحصل عليه شخص يقوم بهذه التضحية؟ هل يكون ذلك في مقابل المال؟ إن المعروف أن الدكتور هيكل قد كسب الكثير من كتبه ومؤلفاته، ولعله كان أول صاحب قلم في الثقافة العربية المعاصرة يجني ثروة كبيرة بمقاييس عصره من مؤلفاته، وخاصة كتابه «حياة محمد» الذي لا يزال يعاد نشره إلى الآن وقد تجاوزت طبعاته العشرين، وهو أمر نادر بالنسبة لأي كتاب عربي مهما كانت أهميته وقيمته. ولو كان هناك شخص يكتب للدكتور هيكل، فلا شك أنه كان يملك من العقل والوعي ما يجعله على معرفة بالعائد المادي الكبير الذي حصل عليه الدكتور هيكل من مؤلفاته، حتى يقال إن الدكتور هيكل بنى لنفسه بيتاً كبيراً أنيقاً في حي الدقي من الأموال التي عادت عليه من كتاب «حياة محمد» فقط. وليس من المعقول أن يعرف الشخص الذي يقال إنه كان يؤلف كتب الدكتور هيكل ذلك كله، ويرضى به ويسكت عنه ويبيع مثل هذا الإنتاج الفكري الناجح لشخص آخر مقابل أموال كان من الممكن أن يحصل على أضعافها من هذا الإنتاج نفسه.

إن رأي طه حسين في الدكتور هيكل والذي أورده الدكتور الدسوقي على لسانه في كتابه «طه حسين» يتحدث عن أعلام عصره، هو رأي غير مسئول، ولا يمكن لأي مقياس علمي مستقيم ونزيه أن يتقبله أو أن يسلم به.

رأي آخر جاء على لسان طه حسين هو رأيه في الدكتور زكي مبارك حيث يقول عن سبب خروج زكي مبارك من عمله كأستاذ في جامعة القاهرة في ثلاثينيات القرن الماضي ما يلي:

«إن خروج زكي مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصي، فقد كان هذا السلوك يتنافى مع كرامة أستاذ الجامعة، وقد ذكر لي فؤاد سراج الدين أنه ـ أي سراج الدين ـ كان ينجح في الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق، حيث كان النظام في ذلك الحين يفرض على طلبة الحقوق أن يدرسوا في كلية الآداب بعض المناهج في اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق.. ذكر لي فؤاد سراج الدين أنه كان لا يذاكر علوم الآداب، وكان يعطي لأستاذه في هذه العلوم زكي مبارك زجاجة كولونيا فينجح في الامتحان». «صفحة ٤٩ من كتاب الدكتور الدسوقي».

وهكذا بكل بساطة، وعلى لسان طه حسين، أصبح واحد من أكبر الأدباء والمفكرين العرب في القرن العشرين وهو زكي مبارك «١٨٩١ ـ ١٩٥٢» متهماً ببيع «ذمته العلمية» بزجاجة كولونيا! وهذا أيضاً كلام غير مسئول، فالثابت أن الذي أخرج زكي مبارك من الجامعة سنة ١٩٣٤ هو طه حسين الذي كان رئيساً لقسم اللغة العربية، وكان زكي مبارك مدرساً في هذا القسم. وعندما حان موعد تجديد عقد زكي مبارك رفض طه حسين أن يوافق على هذا التجديد، وكانت موافقة رئيس القسم شرطاً لذلك، وقد أطلق طه حسين عبارة أصبحت مشهورة عنه يبرر فيها رفضه لتجديد عقد زكي مبارك. وفي هذه العبارة يقول «إن أحداً لم يستشرني في تعيين زكي مبارك وأنا لا أقبل أن أستشار في تجديد عقده». وهذا الكلام الذي جاء على لسان طه حسين هو هروب لفظي من المسئولية، أما نتيجته العملية فكانت إخراج زكي مبارك من عمله كمدرس في الجامعة. وقد كان موقف طه حسين من زكي مبارك موضع نقد شديد من بعض كبار أدباء مصر في تلك الفترة «سنة ١٩٣٤» وكتب الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني مقالاً يهاجم فيه موقف طه حسين. وكان مقال المازني عنوانه «طه حسين بين البغي والعقوق»، وفيه يقول، وأنا أنقل هذا النص من كتاب «عبقري من سنتريس ـ زكي مبارك الملاكم الأدبي» للأستاذ محمد رضوان: «إن الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون إشباع البطون وإجاعتها وأنه صار يضرب اللقمة التي ترتفع بها اليد إلى الفم ويجعلها تطير فتسقط على الأرض لتفوز بها الكلاب ويحرم منها الإنسان». أما زكي مبارك نفسه فقد علق على موقف طه حسين من التجديد له وحرمانه من عمله في الجامعة بعبارة مشهورة جداً كان أدباء الجيل الماضي يحفظونها ويرددونها لطرافتها وعنفها معاً، فقد قال زكي مبارك «لو جاع أولادي» بسبب إخراجي من عملي في الجامعة «لشويت لهم طه حسين وأطعمتهم لحمه»!

إن زكي مبارك هو أديب كبير وصاحب إنتاج ثقافي وأدبي غزير ومعروف بقيمته العالية، فهو صاحب «التصوف الإسلامي» و«النثر الفني في القرن الرابع الهجري» و«عبقرية الشريف الرضي» و«ليلى المريضة في العراق» و«المدائح النبوية» و«مدامع العشاق» وغيرها من روائع الأدب والفكر والتاريخ، مما يرفع مقام زكي مبارك ليكون واحداً من أكبر زعماء الأدب العربي في القرن العشرين. وزكي مبارك له مواقف معروفة، ومعارك مكشوفة، وكل شيء في تاريخه يؤكد تعرضه للمتاعب ضخمة بسبب صراحته وأمانته العلمية الصارمة، ولو كان زكي مبارك ممن يبيعون ذمتهم العلمية بالهدايا والرشاوى، أو ممن يعرضون أقلامهم في مزادات البيع والشراء، لاتجه إلى ما هو أنفع وأنجح في ميدان الانتهازية وسوق الانتهازيين، فقد كان زكي مبارك يعيش في عصر تتقاتل فيه الأحزاب السياسية الكبرى لشراء الأقلام وتزيين صدرها بأسماء كبار الكتاب، وكان قلم زكي مبارك قلماً ذهبياً، وكانت كلماته ساحرة، وكان أي حزب يتمناه ليكون قوة استثنائية في الدفاع عن هذا الحزب ومهاجمة خصومه، ولم يكن أي حزب يتردد في شراء قلم زكي مبارك بأعلى سعر، ولكن زكي مبارك رفض ذلك كله وعاش في ضائقة اقتصادية حتى نهاية حياته سنة ١٩٥٢. فقد كان شديد الحرص على حريته واستقلال كلمته وتوجيه جهوده إلى البحث العلمي والأدبي، وزكي مبارك هو ولا شك واحد من أكبر الأدباء والمفكرين أصحاب الكرامة والعفة والأمانة بين كل أدباء العرب في كل العصور، والكلام الذي جاء على لسان طه حسين عن زكي مبارك هو كلام غير مسئول مثله في ذلك مثل الكلام الذي سبقه عن الدكتور هيكل.

والذين يدرسون أدب زكي مبارك وحياته سوف يجدون أنه كان في غاية الصدق عندما قال عن نفسه يوماً: «لو كان زكي مبارك قد أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه ـ بلا أسف ـ سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي».

ونتوقف أخيراً عند الكلام المنسوب إلى طه حسين عن الدكتور محمد مندور «١٩٠٧ ـ ١٩٦٥» حيث جاء على لسان طه

هكذا بكل بساطة، وعلى لسان طه حسين، أصبح واحد من أكبر الأدباء والمفكرين العرب في القرن العشرين وهو زكي مبارك ١٨٩١ ـ ١٩٥٢ «متهماً ببيع «ذمته العلمية» بزجاجة كولونيا»!



حسين قوله: إن الدكتور مندور ليس ذا بال فى الثقافة وليس له دور فكرى مهم فى حياتنا الثقافية فى هذا القرن، أى فى القرن العشرين. وكتاب مندور عن «النقد المنهجى عند العرب» كتاب «عايف». وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراة تقدم بها مندور إلى جامعة القاهرة. وكنت أنا أى طه حسين . «قد أوفدته فى بعثة إلى باريس وبقى هناك تسع سنوات ولم يتمكن طوال هذه المدة إلى من الحصول على درجة الليسانس فى اليونانى بسبب لهوه وعبثه وعدم إخلاصه للعمل العلمى وبعد عودته من باريس قدم ذلك الكتاب كرسالة حصل بها على الدكتوراة!» «ص٨٣ من كتاب الدكتور الدسوقى».

هذا هو الكلام المنسوب إلى طه حسين عن محمد مندور وهو كلام غير مسئول أيضاً، فإن محمد مندور هو أحد رواد النقد فى الأدب العربى المعاصر، كما أنه أحد رواد النقد فى الأدب العربى المعاصر، كما أنه أحد المفكرين السياسيين الكبار الذين تصدوا للدفاع عن الحرية والعدالة، ودخل السجن بسبب جرأته وشجاعته وصراحته فى الحرب على الطغيان السياسى والظلم الاجتماعى. وجهود مندور فى النقد الأدبى والفكر السياسى هو جهود كبيرة وبالغة القيمة والأهمية وهو على الإجمالى شخصية أدبية وسياسية لها وزنها ودورها وأهميتها الكبيرة ولا يمكن الحديث عنها بمثل هذه الخفة، ومن العجيب حقاً أن يصدر مثل هذا الكلام عن أديب ومفكر فى حجم طه حسين وعلمه وأستاذيته. وما جاء على لسان طه حسين عن كتاب مندور «النقد المنهجى عند العرب» هو كلام بعيد عن الحقيقة تماماً، فهذا الكتاب ليس فيه «هيافة» كما قيل عنه بل هو مرجع أساسى لكل الباحثين فى تاريخ النقد العربى ومدارسه المختلفة منذ صدور الكتاب فى أربعينيات القرن الماضى إلى اليوم.

وأخيراً.. هل نعتبر طه حسين «مسئولاً» عن هذه الآراء «غير المسئولة» أو أن المسئولية فيها تقع على غيره؟

أعتقد أن مسئولية طه حسين عن هذه الآراء محدودة جداً، ويمكن لأى باحث أن يشك فى صحة هذه الآراء وفى نسبتها إلى طه حسين، وخاصة أنه لا يوجد لها أى أصول أولية فى كتب طه حسين. وإذا أعفينا طه حسين من مسئوليته عن هذه الآراء فإن المسئول عنها يكون هو الذى نقلها على لسان طه حسين، ودون إذنه أو معرفته بذلك أو تصريح منه بإعلانها على الناس. والذى نقل هذه الآراء هو الدكتور محمد الدسوقى فى كتابه «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره»، وقد كتبت من قبل نقداً لهذا الكتاب. وأعود اليوم إلى هذا النقد حتى لا يتعرض الباحثون فى أدبنا المعاصر لأى خطأ إذا اعتبروا هذا الكتاب مرجعاً علمياً يمكن الاعتماد عليه والأخذ بما جاء فيه. وأنا لا أتهم الدكتور الدسوقى بالكذب على طه حسين، ففى حدود معرفتى المحدودة به أثق كل الثقة بأنه رجل فوق الكذب وفوق الافتراء والتلفيق، ولكن الدكتور الدسوقى فى تقديرى قد تعرض لخطأ لابد من الإشارة إليه، وهو أنه اعتبر الآراء التى سمعها من طه حسين آراء يصح نقلها إلى الناس، رغم أن هذه الآراء كانت آراء يلقيها طه حسين فى جلسات خاصة جداً، وهى جلسات راحة واسترخاء لا يراجع فيها نفسه ولا يدقق فيما يقوله، كما أن هذه الآراء قد وردت على لسان طه حسين فى شيخوخته، وبعد أن تجاوز الخامسة والسبعين، ومن المحتمل جداً أن ذاكرته فى هذا العمر كانت قد ضعفت، وربما ردد طه حسين بعض هذه الآراء بتأثير مشاكل قديمة وقعت بينه وبين بعض رجال عصره، وهذه الظروف التى صدرت فيها هذه الآراء لطه حسين تجعل من هذه الآراء مطعوناً فى صحتها ودقتها وانضباطها العلمى. وأظن أنه كان على الأستاذ الفاضل محمد الدسوقى أن ينتبه إلى هذه الأمور جميعاً وأن يضعها فى اعتباره، ولعله لو فعل ذلك لما أصدر هذا الكتاب بهذه الصورة، وقد كان من الأفضل أن ينقل آراء طه حسين فى الحياة وبعض خبراته فى تجاربه الإنسانية والثقافية الواسعة، وليس من المعقول أبداً أن يكون الدكتور محمد الدسوقى قد عمل مع طه حسين وقريباً منه كل هذا القرب التخصصى الذى كان يسمح له بالدخول إلى طه حسين فى غرفة، ثم يقول لنا الدكتور الدسوقى فى كتابه إنه لم يسمع من طه حسين طيلة ثمانى سنوات متصلة، من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٢، إلا سب الناس والتشهير بهم والتشكيك فيهم وتصغير شأنهم بإلقاء مجموعة من الاتهامات الخطيرة عليهم، وهى جميعاً اتهامات لا يساندها أى دليل أو برهان. ◘

كتـاب الزاويـة

يحيى حقى

كناسة الدكان

مطلوب منى أن أكتب هنا سيرتى الذاتية:

التحدث عن النفس!

يا له من لذة ساحرة. تواضعها زائف.

يا له من ملل فظيع، يستحب معه الانتحار.

أغلب أحاديثنا ـ بعد كلمتين ليس غير ـ تتحول من الموضوع ـ أيًا كان ـ إلى الذات. الشكوى أو الافتخار. ولكنى أحس أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكتمة: استجداء تبرير الوجود.

وأنت معذور حين تقرأ هذه السيرة بعد قليل إذا حكمت ـ ولا أقول ظننت ـ أننى لكى أكتبها قد تزينت وجلست أمام مرآة أتغزل، (كم أود أن يكون بين الاختبارات النفسية دراسة معاوبة الشخص لصورته فى المرآة: العجب. عدم التصديق. الافتتان. النفور) ولكن ثق ـ وهذا عشمى فيك إن كنت لا تعرفنى ـ أن شيئًا من هذا لم يحدث.

هكذا بدأ يحيى حقى كتابه الرائع «كناسة الدكان.. سيرة ذاتية» وهو يضم أطرافًا من السيرة الذاتية للكاتب الراحل حيث نعيش معه فى عوالم ربما لم تعد الآن سوى تاريخ. فقد تغير كل شىء سواء المكان أو الإنسان.. لكى يبقى ما خطه قلم يحيى حقى معبرًا عن تلك الرحلة الطويلة بأفضل ما يكون التعبير ليقدم لنا فى النهاية أدبًا تتلقفه الأجيال فى شغف جيلاً بعد جيل. وبمناسبة ذكرى ميلاده المائة التى مرت فى ٧ يناير الماضى تحتفى «وجهات نظر» بالأديب الكبير من خلال تقديم مقتطفات من سيرته الذاتية «كناسة الدكان» والتى أصدرتها دار الهلال فى يناير ١٩٩٢.

"تسونامي" .. أولها لا آخرها

هل سيغدو الجنس البشري موضوعا للصنع حسب الأصول باللجوء الواسع النطاق إلى البيوتكنولوجيات الثقيلة من أجل تصنيع أنواع بشرية أو ما بعد بشرية من البوكيمون؟ وهل نحن متجهون نحو غزو يقوم به بشر معدلون جينيا؟

قرن جديد ..

يؤكد المؤرخ جان ديليمو Jean Delumeau أنه «في تاريخ الجماعات تتغير المخاوف، ولكن يبقى الخوف». وإلى القرن العشرين، كانت المصائب الكبرى التي تصيب البشر تنشأ بصورة رئيسية عن الطبيعة، والبرد، والتقلبات الجوية، والفيضانات، والتدميرات، والحرائق، والمجاعات، والآفات كالطاعون، والكوليرا، والدرن، والزهري. وقديما عاش الإنسان في بيئة مهددة على الدوام، وكانت المصائب تتربص به بصورة يومية.

وتميز النصف الأول من القرن العشرين برعب الحربين العظميين، حربي ١٩١٤ - ١٩١٨ و١٩٣٩ - ١٩٤٥ . الموت على أوسع نطاق، الهجرات الجماعية، التدميرات الشاملة، الملاحقات، معسكرات الترحيل والإبادة. وبعد الحرب العالمية الثانية والتدمير الذري، في ١٩٤٥، لهيروشيما ونجازاكي، عاش العالم تحت وسواس الكارثة النووية. هذا الخوف الذي هدأ قليلا قليلا عند نهاية الحرب الباردة وبعد توقيع معاهدات دولية لحظر الانتشار النووي.

الرعب النووي

غير أن وجود هذه المعاهدات لم يؤدِّ إلى اختفاء المخاطر بصورة كلية. فقد أعاد انفجار مفاعل تشيرنوبيل، في ٢٦ أبريل ١٩٨٦، الرعب النووي بكل قوته. وفي وقت أحدث، أول أكتوبر ١٩٩٩، وقع حادث معمل توكايمورا Tokaïmura، اليابان. ومذهولا بما حدث، اكتشف الرأي العام الدولي عندئذ أنه حتى في بلد كاليابان، معروف بتقنيته العالية، كان يجري خرق المبادئ الأولية للأمن بصورة منتظمة، مما يعرِّض للخطر صحة وحياة مئات الآلاف من الناس.

وحدث أيضا، في ١٣ أكتوبر ١٩٩٩، أن اتخذ مجلس الشيوخ الأمريكي قراره الذي لا يُصدق برفض التصديق على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية Titen، ضد رأي الرئيس ويليام كلينتون. ويظل هذا الرفض، القائم على حجج سياسية بصورة بائسة، خطورة استثنائية. كارثة حقيقية على أمن الكوكب. لأنه يمكن تفسيره على أنه تفويض ممنوح بالاستئناف العام للتجارب الذرية. إنه يتعدى على مبدأ عدم الانتشار النووي، ويجرد من الشرعية من الآن فصاعدا كل ضغط من واشنطن لصالح وقف التجارب الذرية.

واشنطن، التي ألغت، في نهاية ٢٠٠١، رغم عدم موافقة موسكو، معاهدة ١٩٧٢ للحد من نشر الصواريخ المضادة للصواريخ ABM، بغرض الحماية ضد الأخطار التي تنطوي عليها المنجزات في الشأن الباليستي لعدد من الدول (منها باكستان، وإيران، وكوريا الشمالية). ويعد هذا الرفض من جانب مجلس الشيوخ الأمريكي، كان بوسع روسيا والصين، اللتين كانتا لم تقوما بعد بالتصديق على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، أن تجدا ذريعة لإجراء تجارب جديدة بهدف تصغير حجم معداتهما. كما فعلت فرنسا من قبل في ١٩٩٥.

ومن جهته، ادعى رئيس الوزراء الفرنسي ليونيل جوسپان أنه آخذا «من الآن فصاعدا في الاعتبار الأسلحة الباليستية وأسلحة الدمار الشامل التي جهزت نفسها بها قوى بعينها»، مستعد للتصدي لـ«تحديث» و«تطوير» الترسانة النووية لفرنسا بهدف «تحدِّي نشوء تهديد ضد مصالحها الحيوية. أيًا كان مصدره، حتى إنْ كان بعيدا، أو طبيعته، أو شكله». ولا شك في أن السيد جوسپان كان يفكر، بين بلدان أخرى، في پاكستان، القوة النووية الجديدة، التي جرت الإطاحة، في ١٢ أكتوبر ١٩٩٩، بسلطاتها المدنية، المنتخبة ديمقراطيا، من جانب الجيش والجنرال پرڤيز مشرف.

تهديدات للهوية

في أوروپا الغربية، تميز النصف الثاني من القرن العشرين بالتهدئة التدريجية للنزاعات المسلحة وبتحقيق رخاء شبه عام. فقد تحسنت شروط المعيشة بصورة ملحوظة. وارتفع العمر المتوقع عند الولادة إلى مستوى لم يتم بلوغه في الماضي.

وسوف يتساءل مؤرخو العقليات ذات يوم عن السر وراء مخاوف أعوام العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وسوف يكتشفون، باستثناء الإرهاب الذي يلاحق المجتمعات الغربية منذ ١١ سپتمبر، أن هذه المخاوف الجديدة لم تعد كما كانت منذ عهد قريب ذات طابع سياسي أو عسكري (نزاعات مسلحة، ملاحقات، حروب). لقد صارت بالأحرى ذات طابع اقتصادي واجتماعي (كوارث في البورصات، تضخم فائق hyperinflation، إفلاسات شركات، تسريحات جماعية من العمل، صور جديدة من الفقر)، وحتى ذات طبيعة صناعية (حوادث مرعبة كما في ميناماتا Minamata، أو سيفيزو Seveso، أو بوپال Bhopal، أو تولوز Toulouse)، وإيكولوجية (اختلال الطبيعة، ثورات البيئة، النوعية الصحية للغذاء، التلوثات من كل الأنواع). وهي تخص الجماعة بقدر ما تخص الفرد (الصحة، الغذاء) والهوية (الإنجاب الصناعي، الهندسة الوراثية).

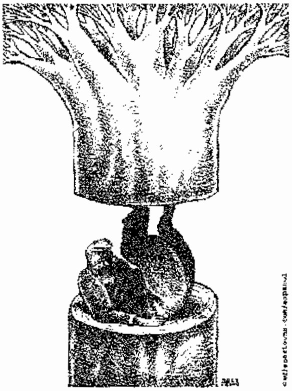
وهذا الجانب الأخير على وجه التحديد يشغل الأذهان بصورة متزايدة. ذلك أن قدرات التدخل في التراث الجيني لا تكف عن التعاظم. كما أن إنتاج الحيوانات المعدلة جينيا، والاستنساخ، وتحديد تسلسلات الجينوم البشري، والعلاج الجيني، ومنح براءات الكائن الحي، والفحص الجيني للأمراض الوراثية، واستخدام التجارب الجينية، تثير جميعا مخاوف خفية.

ونتذكر أنه، منذ الستينيات والسبعينيات، أكد باحثون، في الولايات

إينياسيو رامونيه

فصل من كتاب:
Guerres des XXIe siècle
(حروب القرن الواحد والعشرين)
par Ignacio Ramonet
Galilée, Paris, 2002
يصدر قريباً باللغة العربية

ترجمة: خليل كلفت



مخـــــاوف جـــــديـــــدة!

المتحدة، مثل الدكتور خوسيه ديلجادو José Delgado، وهو أحد الأنصار الأكثر حماسا للسيطرة على العقل بهدف الوصول إلى «مجتمع متحضر سيكولوچيا»: أن المسألة الفلسفية الأساسية لم تعد: «ما هو الإنسان؟»، بل: «ما نوع الإنسان الذى ينبغى أن نقوم بتصنيعه؟».

وقد توقع البروفيسور مارفن مينسكى Marvin Minsky، أحد آباء الكمپيوتر، أنه: «فى عام ٢٠٣٥، ربما سيكون المعادل الإلكترونى للمخ، بفضل تكنولوجيا النانو nanotechnologie، أصغر من طرف إصبعك. وهذا يعنى أنه سيتوفر لك بداخل جمجمتك، كل الحيز الذى تريده لتزرع فيه أنظمة وذاكرات إضافية. وعندئذ، سيكون بإمكانك، شيئا فشيئا، أن تتعلم أكثر كل سنة، وأن تضيف أنواعا جديدة من الإدراكات، وطرقا جديدة للتفكير، وأنماطا جديدة للتصور والتخيل».

كما أكد الباحث الأمريكى فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، من جانبه، أنه «من الآن وحتى الجيلين القبلين، سوف تمنحنا البيوتكنولوچيات الأدوات التى سوف تسمح لنا بإنجاز ما لم ينجح المتخصصون فى الهندسة الاجتماعية فى عمله. ففى هذه المرحلة، سنكون قد تخلصنا نهائيا من التاريخ البشرى، لأننا سنكون قد نسينا الكائنات البشرية بما هى كذلك. وعندئذ سيبدأ تاريخ جديد: فيما وراء ما هو بشرى».

العـلـم والخـيـال

منذ استنساخ «النعجة دوللى» فى فبراير ١٩٩٧، نعلم أن استنساخ الإنسان صار فى متناول المختبر. وقد تجاوز العلم قصص الخيال العلمى إلى حد أنه قام بما هو أكثر من «طريقة بوكانوسكى» procédé Bokanosky كما تخيله ألدوس هكسلى Aldous Huxley فى روايته عالم جديد رائع Brave New World، «أفضل العوالم Le Meilleur des Mondes: حسب الترجمة الفرنسية. المترجم». فالنعجة دوللى لم تنتج عن أى تخصيب: لقد تم تخليق جنينها عن طريق دمج بسيط لنواة خلية بالغة adulte بالبويضة المستخرجة من نعجة حبلى. ومنذ ذلك الحين، تم استنساخ فئران فى هاواى، وخراف فى نيوزيلندا واليابان، وماعز فى أمريكا الشمالية، إلخ. ومنذ ١٩٩٨، قدرت المجلة العلمية البريطانية ذى لانسيت The Lancet أنه، رغم التحذيرات الأخلاقية والعالمية، صار تخليق الكائنات البشرية عن طريق الاستنساخ «أمرا لا مناص منه»، وطالبت المجتمع الطبى بـ «إقراره من الآن».

وإنما بهذا الروح أعلنت وسائل الإعلام ميلاد عصر جديد فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٠، تاريخ فك شفرة قرابة ٣ مليارات من الأزواج القاعدية المتسلسلة على طول الـ ٢٣ من الكروموزومات يتألف منها تراثنا الوراثى. وسوف يسمح هذا بتحديد تسلسلات séquençage الچينات المرتبطة ببعض الأمراض. وكإمكانية كامنة فإن المكاسب التى سيجنيها البشر هائلة، حيث يفتح فرز (تحديد، تمييز، فصل) چين مسئول عن مرض وراثى الطريق أمام اكتشاف علاج ممكن وأمام الشفاء منه.

غير أننا ما نزال بعيدين عن الإمساك بالمعيار الدقيق للنتائج المنطقية لهذا الاكتشاف، الذى يمكن أن ينتهى إلى انحرافات خطرة. والحقيقة أن علم الوراثة la génétique يتيح للإنسان من الآن، كما كان الحال دائما، بـ «استحواذ وحشى للعالم»، الطبعة الجديدة من العبودية esclavagisme أو استغلال الموارد الطبيعية، كما أوضحت المشاريع الاستعمارية الكولونيالية». ذلك أن منح براءات تخليق الچينات إنما ينتهى إلى خصخصة التراث المشترك للبشرية. كما أن بيع المعلومات لصناعة الدواء، التى ستحتفظ بهذه المعلومات لبعض أصحاب الامتيازات، يهدد بتحويل هذا الإنجاز العلمى الكبير إلى مصدر جديد للتفرقة.

نحو إيوچينية جديدة؟

وفضلا عن هذا، تجسد الهندسة الوراثية إيوچينية Eugènisme[1] من طراز جديد فاتحة الباب على نوع من ما بعد البشرية transhumainité. ألا نرى فى هذا انبعاث شبح «الطفل الكامل» enfant parfait، الذى يتم اصطفاؤه على أساس تفوق شفرته الچينية.

والحقيقة أن مجتمعاتنا لاتكاد تجرؤ على الاعتراف بهذا. إذ يستولى عليها رعب لا يوصف: هل سيغدو الجنس البشرى موضوعا للصنع «حسب الأصول؟» باللجوء الواسع النطاق إلى البيوتكنولوچيات الثقيلة؟ من أجل تصنيع أنواع بشرية أو ما بعد بشرية transhumains من البوكيمون Bokémon[2]؟ وهل نحن متجهون نحو غزو يقوم به بشر معدلون چينيا (humains génétiquement modifiés HGM)...؟

والمواطنون ليسوا فقط قلقين إزاء التلاعبات الچينية الجارية. فالتحذيرات الإيكولوچية التى جرى إطلاقها أثناء مؤتمر ريو فى ١٩٩٢ قد نبهتهم أيضا إلى الأخطار المرتبطة بالنهب الراهن للكوكب.

وعلى أمل تهدئة هذه المخاوف، ومن أجل بحث التدابير التى يجب اتخاذها فى مواجهة دفء (احترار) الأرض الذى يرجع إلى زيادة غازات الدفيئة، اجتمع ممثلو مائة وخمسين بلدا فى كيوتو، اليابان فى ديسمبر ١٩٩٧.

وقد عقد هذا المؤتمر الرئيسى فى اللحظة التى كانت آسيا تهتز فيها، كما تتذكر، نتيجة سلسلة من الكوارث المالية والإيكولوچية.

فبعد تقديمها منذ وقت طويل من جانب «الهيئات الاقتصادية الكبرى» - البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، ومنظمة التجارة العالمية - وكذلك من جانب المتملقين لما فوق الليبرالية ultraliberalisme، باعتبارها المثل المعاكس لـ «إخفاق العالم الثالث» والنموذج الذى تنبغى محاكاته، شهدت «النمور» القديمة (هونج كونج، سنغافورة، تايوان، كوريا الجنوبية) والجديدة (ماليزيا، إندونيسيا، تايلندا، الفيليپين)، فى خريف ١٩٩٧، سلسلة من الاضطرابات البالغة الخطورة فى بورصات الأوراق المالية.

وبعد انهيار بورصة هونج كونج، غرقت الأسواق المالية فى القارات الخمس - بدءا بـ وول ستريت - فى اضطرابات، وأطلقت شبح

انهيار مالى فى النظام النقدى العالمى أخذ يحوم فوق العالم...

على أن نموذج النمو القائم على أيد عاملة رخيصة، وعملة مخفضة القيمة، وصادرات مفرطة، وأسعار فائدة مرتفعة لجذب المستثمرين، المضاربين الدوليين، وكل هذا محاط بنظام استبدادى، بدا بعد الكارثة الآسيوية فى ١٩٩٧، أقل نموذجية، بل حتى بالغ الخطورة.

كما أن بعض البلدان الأكثر تأثرا بهذه الأعاصير فى البورصات، إندونيسيا وماليزيا، أصيبت فضلا عن هذا بكوارث إيكولوجية على نطاق بالغ الضخامة. فبعد أن أفلتت من كل سيطرة، دمرت الآف الحرائق الضخمة غابات جزر سومطرة، وبورنيو، وجاوة، وسولاويزى، مساحة تزيد على ٨٠٠ ألف هكتار.... كما أن سحبا فى ضخامة نصف قارة من الأدخنة السامة غطت بالسناج وأغرقت فى شبه ظلام مدنا مثل كوالالومبور، متسببة فى سلسلة من الحوادث (تحطم طائرة إيرباص: ٢٣٤ قتيلاً، تصادم بحرى: ٢٩ قتيلا).

ومن الجلى أن الكارثتين، كارثة البورصة والكارثة البيئية، مترابطتان. لأنه إذا كانت هذه الحرائق تعزى جزئيا إلى الجفاف الناتج عن ظاهرة مناخية دورية، تدعى النينيو El Nino، فإن السبب الرئيسى للكارثة يكمن فى سياسة الإزالة الواسعة النطاق للغابات. هذه السياسة المتبعة، منذ عقود، على أساس نموذج مضاربة انتحارى، ومطبوع بطابع الإنتاجوية الفائقة hyperproductiviste، ومتمحور على الصادرات دون غيرها.

وباسم خلط مثير بين النمو والتنمية، تواصل دول الشمال والجنوب على هذا النحو تدمير نسق systématique البيئات الطبيعية. وتتوالى التخريبات من كل نوع: الواقعة على التربة، وعلى المياه، وعلى الغلاف الجوى، الحضرنة المتسارعة، وإزالة الغابات المدارية، وتلويث طبقات المياه الجوفية، والبحار، والأنهار، واحترار المناخ، وافقار طبقة الأوزون، والسحب الحمضية: إن كل هذه التلوثات تهدد مستقبل البشرية بالأخطار.

وتختفى ستة ملايين هكتار من الأراضى القابلة للزراعة كل عام نتيجة التصحر. وفى كل مكان، يتسبب التحات، وفرط الاستغلال، فى القضم بإيقاع متسارع لمساحة الأراضى المزروعة. كذلك فإن التوازنات الإيكولوجية هشة نتيجة للتلوث الصناعى فى بلدان الشمال ونتيجة لفقر بلدان الجنوب (إزالة الغابات، اختفاء إراحة الأراضى).

والحقيقة أن أنواعا من المنطق logiques اقتصادية وسياسية عبثية تجعل ملايين الكائنات البشرية يموتون أيضا من الجوع.

فى عام ٢٠١٠، سيكون الكساء الغابى للكرة الأرضية قد تقلص بنسبة أكثر من ٤٠٪ بالمقارنة مع ١٩٩٠. وفى عام ٢٠٤٠، يمكن أن يؤدى تراكم غازات الدفيئة إلى ارتفاع قدره ١ إلى ٢ سنتيجراد فى متوسط درجة حرارة الكوكب وارتفاع قدره ٠.٢ إلى ١.٥ متر فى منسوب مياه المحيطات. وهذا ليس أكيدا. غير أننا إذا انتظرنا الحصول على حقائق علمية يقينية، سيكون الوقت قد فات على العمل. والحقيقة أن ارتفاع منسوب مياه المحيطات قد أحدث بالفعل أضرارا غير قابلة للإصلاح.

ويختفى مابين ١٠ و ١٧ مليون هكتار كل عام. وتدمر إزالة الغابات تراثا بيولوجيا فريدا: تؤوى الغابات المدارية الرطبة ٧٠٪ من الأنواع الحيوانية. وكل عام، ينقرض حوالى ٦ آلاف من بينها على الكوكب. ووفقا لـ UICN، فإن ٢٠٪ من كل الأنواع الموجودة حاليا ستكون قد اختفت خلال عشرة أعوام.

الطاعون الجديد

كتب انطونان أرتو :Antonin Artaud «الطاعون هو انكشاف قاع للقسوة الكامنة تتمحور عن طريقه على فرد أو على شعب كل الإمكانات المنحرفة للروح». والحقيقة أن جائحة l'épizootie «الوباء الحيوانى» الحمى القلاعية، التى فتكت فى ربيع ٢٠٠١ بالأرياف البريطانية، كشفت حقا، مثل الطاعون، عن «قاع للقسوة الكامنة» وعن العديد من «انحرافات الروح». ذلك أن كل وباء، كما يؤكد كل المؤرخين، ليس فقط سببا، بل هو أيضا نتيجة منطقية للحظة تاريخية محددة.

ليس من المصادفة إذن أنه فى إنجلترا التى استخدمت، منذ أكثر من عشرين عاما، معمل ما فوق الليبرالية، تضاعفت الأضواء القروسطية للمحارق الجماعية التى تم فيها، مجانا، إحراق مئات الآلاف من الحيوانات وارتفعت صرخة الأسى والرعب. ولتعاسة المواطنين البريطانيين، جرى تتويج هذا الواقع الكابوسى فى شتاء ٢٠٠٠ - ٢٠٠١ بكل الآفات: «البقرة المجنونة»، فيضانات، مناطق محاصرة تحت الثلوج بلا كهرباء، كوارث السكك الحديدية، إلخ.. وما من لعنة إلهية، ما من «مؤامرة قدرية»، تفسر مثل هذه الكارثة.

والحقيقة أن القرارات التى شجعت على وقوع هذه المآسى تم اتخاذها بوعى كامل استنادا إلى معتقدات محددة، مستمدة من النصوص المقدسة لليبرالية الجديدة. وعلى هذا النحو يرجع الانتشار الخاطف السرعة لجائحة الحمى القلاعية إلى رغبة فى الربحية دفعت المضاربين إلى خفض التكلفة، وبالتالى الأمن، لزيادة هامش أرباحهم. وباسم تحرير الاقتصاد، فى الثمانينيات، أدارت حكومات مارجاريت ثاتشر ظهرها لمبدأ الحيطة وذهبت إلى حد إلغاء الشبكة القومية للبيطريين. وفضلا عن هذا، ومنذ ١٩٩١، ومن أجل توفير مليار يورو وتشجيع الصادرات، جرى اتخاذ قرار آخر مشئوم: حظر تطعيم الحيوانات.

وقد خلق هذان التدبيران، المميزان لزراعة إنتاجوية، شروط جائحة الوباء الحيوانى. كما قيد هذان التدبيران الكفاح ضد انتشاره، حيث ظل من المحظور اللجوء إلى منجزات الطب الباستيرى، بطرق عتيقة، مستوحاة من وصفة أبوقراط: «Cito, Longe, Tarde» («فى الحال، من بعيد، وقتا طويلا»)، ومطبقة منذ العصور القديمة على كل الأوبئة. ومن المفارقات أن هذين التدبيرين، المتخذين باسم «زراعة بلا حدود»، قد أقاما، بالفعل، حمائية صارمة. ذلك أننا نسينا بديهية: الفيروسات أيضا لا تعرف الحدود. وفى زمن العولمة، «تنتشر الفيروسات بسيولة لا تقارن إلا بسيولة حركة رؤوس الأموال».

كذلك فإن السعى المستميت إلى القدرة التنافسية، والركض المنفلت نحو الأضخم والأرخص ماثلان فى منشأ مرض «البقرة المجنونة». «كشفت كل الأبحاث عن وجود صلة بين بعض التعديلات فى عملية تصنيع أنواع الدقيق الحيوانية الإنجليزية وعودة الـ بريون[2] إلى الظهور. وفى ١٩٨١، قفز الصناع البريطانيون على مرحلة فى عملية التصنيع: خفضوا درجة الحرارة (لتوفير الطاقة) وألغوا المواد المذيبة (لتوفير المواد الأولية). وقد منع هذان التدبيران استئصال الـ بريون. وبالتالى فإن هذا الأخير يمكن أن يزدهر».

وقاد منطق مماثل الحكومات البريطانية، منذ ١٩٧٩، إلى مضاعفة الخصخصات. وعلى هذا النحو بيعت السكك الحديدية للقطاع الخاص منذ ١٩٩٤. ومنذ ذلك الحين، تتابعت الحوادث، التى كانت حصيلتها ٥٦ قتيلا وأكثر من ٧٣٠ جريحاً... وتتهم وسائل الإعلام المضاربين الجدد بالتضحية بالأمن لتضخيم أرباحهم بهدف إرضاء حاملى أسهمهم.

فهل غيَّر من الأمور وصولُ السيد بلير والعماليين إلى السلطة، فى ١٩٩٧؟ ليس بصورة جوهرية. إذ يبقى «طريقه الثالث» الاشتراكى-الديمقراطى مفهوما على أنه مجرد بديل لليبرالية الجديدة للسيدة ثاتشر. وفى ظل ولايته، صار نصيب النفقات العامة من الناتج المحلى الإجمالى هو الأدنى منذ أربعين عاما. وتقدم إنجلترا أعنف التناقضات الاجتماعية الصارخة فى أوروبا. وتتواصل الخصخصة الحذرة للتعليم العام. وقد فرض السيد بلير رسوم قيد مرتفعة فى الجامعة، أدخلت تمييزا اصطفائيا وفقا للمال.

وعلى صعيد الرعاية الطبية، يضع بحث لمنظمة الصحة العالمية المملكة المتحدة فى ذيل الاتحاد الأوروبى. وقد تزايدت مختلف أشكال اللامساواة بين

فى عام ٢٠٣٥، ربما سيكون المعادل الإلكترونى للمـــخ، بفضـــل تكنولوجيـــا النـــانو nanotechnologie أصغر من طرف إصبعك. وهذا يعنى أنه سيتوفر لك بداخل جمجمتـــك، كـــل الحيز الـــذى تـــريـــده لتـــزرع فيـــه أنظمـــة وذاكـــرات إضافيـــة

الأكثر غنى والأكثر فقرا. ويعيش أكثر من ٥ ملايين من البريطانيين فى حالة من الفقر المطلق. كذلك فإن حوالى نصف النساء يعملن بأجر نصف الوقت. ويعيش ربع الأطفال تحت خط الفقر. وتضم بريطانيا العظمى العدد الأكبر من الأطفال الفقراء فى كل البلدان الصناعية....

كذلك فإن هذه المخاوف الجديدة، وعلى وجه التحديد تجاه مرض «البقرة المجنونة» أو الكائنات الحية المعدلة جينياً OGM، تنشأ أيضا من خدعة، من تحرر من الأوهام أحدثته التطورات التقنية. إن جدوى التقدم العلمى لم تعد تبدو بديهية. كما أن هذا التقدم يمتصه بصورة أساسية المجال الاقتصادى، وتستخدمه المشروعات الشرهة للربح.

وفى أغلب الأحيان انتهى الخلط بين المصلحة العامة والمصالح الصناعية لصالح الأخيرة. كذلك فإن موجة الليبرالية الجديدة، وعبادة السوق، وعودة أوضاع من القلاقل الشديدة إلى الظهور، وعودة أشكال من اللامساواة الاجتماعية البالغة، عززت، على مدى العشرين سنة الأخيرة، الإحساس بأن التقدم التقنى قد خان وعده بتحسين قسمة الجميع.

وكان بوسع الجميع أن يتأكدوا من أن المؤسسات (البرلمان، الحكومة، الخبراء) التى كان عليها أن تضمن الأمن كانت، مرارا وتكرارا وخاصة فى قضية «البقرة المجنونة» دليلا على فقدانه. وأقامت هذه المؤسسات الدليل على غفلتها وتقصيرها. وفضلا عن هذا فقد اعتاد «أصحاب القرار» تولى شئون المصير الجماعى دون الرجوع أولا إلى المعنيين، المواطنين. إن الميثاق الديمقراطى قد تغير.

والنتائج المنطقية: دخول ارتياب عنيد فى الأذهان، رفض متنام لتفويض هؤلاء «المسئولين» سلطة تولى شئون المصير الجماعى بالسماح لهم بممارسة تقوم على تجديدات علمية محفوفة بالمخاطر، وغير مختبرة بصورة كافية. ويلاحق سوء ظن جديد من أطلقوا عفاريت النزعة العلموية الجديدة néoscientisme.

وفيما يتعلق بعدد من «الآفات الصامتة»، تكشفت حقائق مذهلة لتثبت، بصورة بعدية a posteriori، عدم الأهلية المأساوى للسلطات والخبراء. ليس فقط قضية الدم الملوث، بل أيضا قضية الأميانت (الحرير الصخرى) l'amiante، التى صارت من الآن، فى فرنسا، سبب حوالى ١٠ آلاف من الوفيات (العمالية) فى السنة. أو قضية مختلف أنواع عدوى المستشفيات nosocomiales، أى التى تصيب أثناء الإقامة بالمستشفى، إذ يعود منشأ حوالى ١٠ آلاف أيضا من الوفيات فى السنة إلى هذه الأنواع من العدوى. أو قضية تلوث الهواء، التى ترجع بنسبة ٦٠٪ إلى وسائل النقل فى الطرق، التى نعلم أنها تسبب فى هذا الرقم المذهل بوجه خاص وهو ١٧ ألفاً من الوفيات قبل الأوان كل سنة فى فرنسا. أو أيضا قضية الديوكسين dioxine، الناتج المسبب للسرطان المنبعث من آلات تحويل القمامات البيتية إلى رماد، والذى يسبب ما بين ١٨٠٠ و ٥٢٠٠ من الوفيات كل سنة.

ويكفى أن نقرأ تقرير البحث المعلن فى المملكة المتحدة فى ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٠، بشأن الوباء الحيوانى الذى يحمل اسم المرض الدماغى الإسفنجى البقرى encéphalopathie spongiforme bovine (ESB)، لنفهم الارتياب الحالى فى المجتمعات الأوروبية تجاه اللحم البقرى.

لقد تم اتخاذ تدابير شاذة، اتخذها «خبراء»، رغم قوانين الطبيعة والمبادئ الأكثر أولية للحيطة. وتبعتها بعد ذلك أكاذيب وتسترات لأنه كان من الجلى أن المرض قد انتشر وأخذ يمتد إلى الكائنات البشرية. والحقيقة أن التأجيلات، والتضليلات، والإخفاقات، وكذلك الموقف اللامسئول للسلطات، كان لا مناص من أن تقود الرأى العام البريطانى بصورة لا يمكن تفاديها إلى الإحساس بأنه جرى خداعه. وحيث إن سلوك الحكومات فى باقى أوروبا لم يكن مختلفا، فلماذا لم يبدِ المواطنون، فى أماكن أخرى، تحديا مماثلا؟ خاصة عندما تأكدوا، كما حدث فى فرنسا، أنه، فيما يتعلق بالكائنات الحية المعدلة جينياً OGM، جرى السماح بتسويق أصناف من الذرة المعدلة جينيا.

وما من توهم بالأمن المطلق أو المخاطرة صفر لدى المواطنين، القلقين بصورة مشروعة تجاه الأولوية التى تمنحها السلطات العامة فى كثير من الأحيان لمجموعات اقتصادية ولمصالح أنانية كوربوراتية أكثر من المنفعة المشتركة والمصلحة العامة. ويغدو تعريف المخاطرة المقبولة قضية الجميع، وليس فقط قضية «الخبراء».

الجغرافيا ـ السياسية للجوع

لنأخذ، على سبيل المثال، حق الغذاء. فالطعام لا ينقصنا. ولم تكن المواد الغذائية بمثل هذه الوفرة فى يوم من الأيام، كما أن الكميات المتاحة يمكن أن تسمح لكل فرد من ٦ مليارات نسمة على ظهر الكوكب باستخدام ٢٧٠٠ سعر حرارى على الأقل فى اليوم. غير أنه لا يكفى إنتاج الأغذية. بل ينبغى أيضا أن يكون من الممكن شراؤها واستهلاكها من جانب الجماعات البشرية التى تحتاج إليها. وهذا أبعد عن أن يكون الحال. وكل سنة، يموت من الجوع ٣٠ مليون شخص. ويعانى ٨٠٠ مليون شخص نقص الغذاء المزمن.

وهنا أيضا ما من شىء حتمى. فأنواع العجز الناتجة عن المناخ تكون متوقعة سلفا فى كثير من الأحيان. ولأن منظمات إنسانية مثل العمل ضد الجوع Action contre la faim لديها إمكانات التدخل فإنها تستطيع أن توقف مجاعة ناشئة فى غضون بضعة أسابيع. ومع هذا فإن الجوع يواصل إبادة جماعات سكانية بأسرها.

لماذا؟ لأن الجوع صار سلاحا سياسيا. ومن الآن فصاعدا، فإنه ما من مجاعة تقع بالمصادفة. لقد تم وضع إستراتيجية حقيقية للجوع، ويديرها بفظاظة لا توصف مديرون أو منظمات حرمتها نهاية الحرب الباردة من ريع مالى. وكما تكتب سيلفى برونيل Silvie Brunel، لم تعد الشعوب المعادية، الشعوب التى ينبغى غزوها، هى التى يجرى تجويعها، بل سكان نفس بلدان أولئك الذين يريدون أن يستأثروا لحسابهم بهذه العطايا السماوية mannes الجديدة للصراع والتى تتمثل فى بروجكتورات وسائل الإعلام ونتائجها المنطقية، احتدام التعاطف الدولى، هذا المصدر الذى لا ينضب للمال، والغذاء، والمنابر العامة لعرض مطالبها.

وفى الصومال، أو السودان، أو ليبيريا، أو كوريا الشمالية، أو بورما، أو أفغانستان، مسئولون حكوميون أو قادة حربيون يأخذون أبرياء كرهائن، ويجوعونهم لتحقيق غايات سياسية، وأحيانا بأقصى قسوة، كما فى سيراليون، حيث يتسن رجال الجبهة المتحدة للمتمردين Rebel United Front (RUF)، بقيادة العريف (الأونباشى)، السابق فوداى سانكو Foday Sankoh، على مدى سنوات، حملة مرعبة من الإرهاب، حيث يبترون بصورة منهجية، بالبلطة، أيدى الفلاحين لتحيم من الزراعة. وأخيرا، صار دور المناخ فى الصراعات الكبرى هامشيا، من الآن فصاعدا صار الإنسان هو الذى يقوم بتجويع الإنسان.

ويؤكد الدكتور أمارتيا سين Amartya Sen الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى ١٩٩٨، والمعروف بأعماله التى يُثبت فيها كيف أن السياسيين فى بعض الحكومات يمكن أن يحدثوا مجاعات، حتى عندما تتوافر الأغذية، أنه: «تتمثل حقيقة من أبرز حقائق التاريخ المفزع للمجاعة فى أنه لم تكن هناك مطلقا مجاعة خطيرة فى أى بلد يتمتع بشكل ديموقراطى للحكم ويملك صحافة حرة نسبيا».

ومناوئا للأطروحات الليبرالية الجديدة، يقدر السيد سين أنه ينبغى منح الدولة، وليس السوق، مسئولية أكبر فى تنمية رفاهية المجتمع. دولة تكون فى وقت واحد حساسة تجاه حاجات كل مواطنيها ومنشغلة، على المستوى الكوكبى، بتنمية البشرية جمعاء.

جغرافيا الإيدز

منذ مائة عام أبدى العلماء والأطباء تفاؤلا كبيرا تجاه المستقبل الصحى المشرق الذى تعد به منجزات علم الصحة العامة والثورة الباستيرية.

ولا جدال فى أن العالم قد

فى عام ٢٠١٠، سيكون الكساء الغابى للكرة الأرضية قد تقلص بنسبة أكثر من ٤٠٪ بالمقارنة مع ١٩٩٠. وفى عام ٢٠٤٠، يمكن أن يؤدى تراكم غازات الدفيئة إلى ارتفاع قدره ١ إلى ٢ سنتيجراد فى متوسط درجة حرارة الكوكب وارتفاع قدره ٠,٢ إلى ١,٥ متر فى منسوب مياه المحيطات

تقدم فى البحث عن صحة أفضل للجميع، غير أن هذه المنجزات يضعفها وجود العار الأشد إثارة للغضب: مختلف أشكال اللامساواة الخطيرة للغاية فى الوصول إلى الرعاية الصحية. وتؤكد السيدة جرو هارلم برونتلاند Gro Harlem Brundtland، المديرة العامة لمنظمة الصحة العالمية OMS أن: «أكثر من مليار شخص سيصلون إلى القرن الحادى والعشرين دون أن يكونوا قد استفادوا من الثورة الصحية: ستظل حياتهم قصيرة جدا ومثقلة بالمرض».

وعلاوة على هذا فإن الفجوة لا تكف عن الاتساع بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة فيما يتعلق بالوصول إلى الأدوية الموجودة حاليا وإلى البحث عن علاجات لأمراض غير موجودة أو قليلة الوجود فى البلدان المتقدمة.

وبين التهديدات الرئيسية التى سوف تصيب صحة الكائنات البشرية خلال القرن الحادى والعشرين تبرز أمراض القلب والأوردة الدموية التى ترتبط، إلى حد كبير بالأمراض الأيضية métaboliques. فرط تركيز الكوليسترول فى الدم hypercholestérolémie، السمنة، السكر diabète. الآخذة فى الانتشار بسبب انتشار نمط الحياة الغربية، أى طعام أكثر مما ينبغى وأدسم مما ينبغى، مع غياب للتمارين الرياضية.

غير أن الأمراض المعدية ستكون لها أهمية متزايدة وستقتل، كل عام، عشرات الملايين من الأشخاص، خاصة فى الجنوب. وعلى كل حال، مادام العالم صار قرية واحدة، فلا مناص من أن يحدث تأثير مرتد (أو: ارتدادى) un effet boomerang مع عودة الأمراض الوبائية للبلدان الفقيرة إلى البلدان المتقدمة فى الشمال.

ويحتل الإيدز (متلازمة نقص المناعة المكتسبة) فى الوقت الحالى مكانه بين عشرة أسباب رئيسية للوفيات فى العالم. ونظرا للمعدلات المتزايدة للعدوى بفيروس نقص المناعة البشرية HIV، فإنه يمكن أن ينتهى فى وقت قريب إلى أن يأخذ مكانه بين الخمسة أسباب الأولى للوفاة على مستوى الكوكب.

ويعيش حوالى ٣٦ مليون شخص فى العالم فى الوقت الحالى حاملين فيروس الإيدز، فيروس نقص المناعة البشرية، منهم أكثر من ٢٤ مليونا فى أفريقيا. وسيموت أغلبهم خلال الأعوام العشرة المقبلة، ليضافوا إلى ١٤ مليونا من الأفارقة ماتوا من قبل بسبب هذا المرض. وحتى نهاية عام ٢٠٠١، كان قد مات حوالى ١٨ مليون شخص (من البالغين والأطفال) بسبب الإيدز منذ ظهور هذا المرض، أكثر من ٢,٥ مليون شخص منهم فى عام ٢٠٠١.

وتحدث نسبة حوالى ٩٥٪ من حالات عدو الإيدز الجديدة لدى سكان العالم الثالث حيث لا يملكون أى وسيلة لوقف نمو المرض. وهذا ما يجعلنا نتوقع أن يرتفع عدد الوفيات خلال الأعوام القادمة. وبالنسبة لعام ٢٠٠١ وحده، يُقدَّر عدد المصابين الجدد بالعدوى بـ ٥,٦ مليون شخص، منهم ٥٧٠ ألفاً من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ١٥ عاما. وبينهم ٩٠٪ من الأفارقة؛ وهذا ما يعادل حوالى ١٥ ألف حالة تلوث بالعدوى كل يوم...

وفى مواجهة حقائق أكيدة كهذه، يبدو التضامن الدولى شحيحا، بل حتى معدوما. ففى الممارسة، لم يتم وضع أى شىء موضع التنفيذ من الناحية الفعلية فى سبيل تنظيم مكافحة مشتركة. مكافحة يسرع فيها ما يتوفر لدى البلدان الصناعية من مال وخبرة فيما يتعلق بالتشخيص والعلاج إلى نجدة المرضى الأكثر حرمانا على ظهر الكوكب. إن حُلم عولمة للنضال ضد الإيدز لا يبشر بأن يغدو واقعا. فمَنْ ذا الذى سيقوم، فى البلدان المتقدمة، بتعبئة نفسه من أجل وقف انتشار طاعون يضرب، بنسبة ٩٥٪، السكان الفقراء فى بلدان الجنوب؟

والواقع أن المبالغ المرصودة فى العالم للعمل ضد الإيدز بين ١٩٩٠ و ١٩٩٧ لم تزد إلا من ١٦٥ إلى ٢٧٣ مليون يورو على حين تضاعف عدد الأشخاص المصابين أكثر من ٣ مرات فى الفترة نفسها، مرتفعا من ٩,٨ مليون إلى ٣٠,٣ مليون. ووفقا للبرنامج المشترك للأمم المتحدة بشأن الفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز VIH-sida، فإن المبالغ التى أفرجت عنها هيئات مساعدة التنمية فى بلدان الشمال، انخفضت، بالقيمة المطلقة، لكل شخص مصاب، بين ١٩٨٨ و ١٩٩٧، بنسبة أكثر من ٥٠٪!

وتقع تكلفة الوقاية ضد انتشار الإيدز، فى بلدان الجنوب، بين ١,٣ و ٣,٥ يورو للشخص فى السنة. فى حين أن تكلفة العلاج الأساسى تصل إلى أكثر من ٧ يورو للشخص فى السنة. كما أن من المؤكد أن تكلفة العلاج الحقيقى لمريض مصاب بالإيدز أكثر ارتفاعا بصورة فلكية.

ويتراوح المبلغ الكلى الضرورى للوقاية من الإيدز فى أفريقيا، وفقا للبنك الدولى، بين مليار و ٢,٣ مليار يورو. ومع هذا فإن أفريقيا لا تتلقى، فى الوقت الراهن، سوى ١٦٠ مليون يورو من المساعدة الرسمية لمكافحة الإيدز.

وعلى حين يبدأ انحسار الإيدز فى البلدان الغنية، تستمر موجة المد الوبائى مع هذا فى إغراق البلدان النامية. وتستمر معدلات العدوى والوفاة فى الزيادة بسرعة فى أغلب بلدان أوروبا الشرقية، وآسيا، وأفريقيا الوسطى والجنوبية، وكذلك فى عدد من بلدان أمريكا اللاتينية (پيرو، وڤينزويلا، وكولومبيا، والأرجنتين، وتشيلى).

وفى مواجهة مثل هذه الأشكال من اللامساواة، لا تفعل بلدان الشمال ولا مؤسسات الأدوية شيئا ذا بال. ويعلن مسئول فى جمعية لمكافحة الإيدز أن: «صناعة الأدوية عليها دَيْن نحو مرضى الإيدز، وعليها أن تسدده. فخلال خمسة عشر عاما، جنت المعامل أرباحا هائلة على حساب حيواتنا؛ واليوم، على حين يتبدل الوباء فى بلدان الشمال ويتفجر فى بلدان الجنوب، ترفض المعامل تغيير إستراتيچياتها. وهى تعرقل توزيع الجزيئات الجديدة التى يحتاج إليها المرضى الذين أخفقت معهم كل العلاجات والذين يوشكون على الموت».

ويحث كوفى أنان، الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة، مجلس الأمن، على وجه التحديد لأنه مسئول عن صون السلم، على أن يجعل من النضال الدولى ضد الإيدز «أولوية مباشرة». وفى نظر پيتر پايو Peter Piot، مدير البرنامج المشترك للأمم المتحدة للإيدز Onusida فإن: «الصراع المسلح وفيروس نقص المناعة البشرية شيئان مترابطان مثل توأمين شيطانيين». ووفقا لچيمس وولفنسون James Wolfensohn، رئيس البنك الدولى، فإننا: «مع الإيدز، نجد أنفسنا فى مواجهة حرب تضعف أكثر من الحرب ذاتها. والحقيقة أن كل حرب تحتاج بالضرورة إلى خزينة حرب، غير أن الخزينة التى يشارك بها المجتمع الدولى فارغة».

وتحذر كل التصريحات من النتائج المنطقية للمنافسة الحرة الراهنة. والإيدز، هناك حيث يتفشى، يهز استقرار الاقتصادات، ويفاقم الفقر، ويدفع إلى الحرب؛ وبدورها، تقوم الحرب، بكل ابتزازاتها، وسرقاتها، وقلاقلها، بتسهيل تفشى الوباء. ●

موجة الليبرالية الجديدة، وعبادة السوق، وعودة أوضاع من القلاقل الشديدة إلى الظهور، وعودة أشكال من اللامساواة الاجتماعية البالغة، عززت، على مدى العشرين سنة الأخيرة، الإحساس بأن التقدم التقنى قد خان وعده بتحسين قسمة الجميع

هوامش:

(١) يوچينية eugénisme أو إيوچينيك eugénique: علم وتقنية وسائل تحسين نسل النوع البشرى سعيا وراء استحداث صفات إيجابية (الإيوچينيك الإيجابى) أو إزالة الأمراض الوراثية (الإيوچينيك السلبى)، وكلمة eugenics وهى الاسم الإنجليزى لهذا العلم من نحت مؤسسه العالم الإنجليزى فرانسيس جالتون Francis Galton ١٨٢٢-١٩١١. المترجم.

(٢) باعتباره فى وقت واحد لعبة ڤيديو، ولعبة تجميع كروت/خرائط حرب النجوم، استطاع الـ پوكيمون Pokémon وتنويعاته الكثيرة جدا من المنتجات الثانوية المأخوذة منه أن يغزو العالم قرب نهاية التسعينيات بسرعة البرق. وتدل لفظة Pokémon، التى تتكون من إدغام الكلمتين pocket، (جيب) و monster، (عفريت) monstre de poche، أى: «عفريت الجيب»، على أنواع من الجينات المعدلة جينياً.

(٣) البريون prion: جزىء پروتينى مُعْدٍ وهو المسبب لمرض ارتجاف الضأن. المترجم.


الآن
ومن كافة فروع البنك الأهلي المصري
بطاقة الأهلي
حاسب لكل بيت
يمكنك الحصول على بطاقة حاسب لكل بيت
والشراء مباشرة من الشركات المشاركة
في المبادرة.
قسط صغير
لمستقبل كبير
أقل سعر عائد مدين
تنوع فترات التقسيط من ٦ إلى ٤٠ شهر
مراكز صيانة منتشرة في القرى والمحافظات
الاتصال بخدمة الأهلي فون ٥٧٦٠٧٧٧ للاستعلام
عن بطاقة الأهلي حاسب لكل بيت
للاستعلام عن المبادرة ١٩٢٤٦
مبادرة حاسب لكل بيت برعاية وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات
وبالتعاون مع الشركة المصرية للاتصالات
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
البنك الأهلي المصري
الأقرب اليك
NATIONAL BANK OF EGYPT
Electronic
VALID FROM

الخـــلايــا الجــــذعيــــة

لا تخلو المجلات والصحف اليومية والإذاعات وبرامج التلفزيون في جميع أنحاء العالم، وعلى وجه الخصوص في الدول المتقدمة، من أخبار وتعقيبات وتهليل واستعداء وفرح وغضب وتحليل وتحريم للتكنولوجيا الحيوية أو البيوتكنولوجيا «biotechnology»، وتمثل هذه التكنولوجيا آخر ما في جعبتنا، حتى الآن، من محاولات التصالح مع بيئتنا والاندماج في نسيج عالم الحياة الذي يضمنا مع كل أشكال الكائنات من الفيروسات وحتى الرئيسيات وعلى قمتها يقف الإنسان متسيداً، مخرباً وبانياً وهادماً، قوياً وضعيفاً، عارفاً وجاهلاً. وتشمل التكنولوجيا الحيوية فيما تشمل فروعاً عديدة لعل من أهمها الهندسة الوراثية والاستنساخ وتكنولوجيا الخلية، غير أنه بزغ حديثاً ومنذ بضع سنوات فقط فرع قوى واعد هو «الخلايا الجذعية stem cells» أو علم وتكنولوجيا الخلايا «الماستر master cells». وقد ساد الحديث عن الخلايا الجذعية بالذات وسائل الإعلام بأنواعها المقروءة والمسموعة والمرئية في السنوات الأربع الأخيرة، وهو حديث ملح وشائك لكنه مطلوب وضروري. فالجدل والتعارض حولها (الخلايا الجذعية) شديدان بين المثقفين والمفكرين والعلماء والمبدعين ورجال السياسة ورجال الدين والسلطة التنفيذية والتشريعية وعامة الناس وخاصتهم، ليس في المجتمعات الرائدة في هذا المجال فحسب بل حتى في البلاد النامية. كما أن الحملة الانتخابية الرئاسية الأخيرة في الولايات المتحدة لم تخل من التعرض لقضايا علمية من بينها، بل من أبرزها التناقض في وجهات النظر تجاه «الخلايا الجذعية»، أحد أهم مجالات التكنولوجيا الحيوية، بين المرشحين الرئيسيين. فالعلماء متحمسون كعادتهم يشغلهم كل جديد، والشركات المتخصصة تراهن على الإنجازات وتعبىء الرأى العام وتتخاطف العلماء والمتخصصين. أما رجال الدين فهم عادة ما يعارضون من منطلق عدم التدخل في الإرادة الإلهية أو القدر. وقد وجد الفلاسفة والسياسيون مادة خصبة في هذا الجدل وذلك التعارض. وبلغ الأمر بأهمية وخطورة الخلايا الجذعية أن رئيس القوة العظمى والقطب الأوحد، الولايات المتحدة، قد أدلى بدلوه في هذا الشأن. وكذلك فعل بابا روما يوحنا باولو الثاني الذي طلب من الرئيس بوش في أول لقاء بينهما أن يتدخل بما له من سلطات لمنع «الشيطان» من أن يقوم بدور الرب، وأن يحجب كل دعم عن الأبحاث المتعلقة بموضوعات الاستنساخ والخلايا الجذعية. وقد انقسمت الدول حسب تشريعاتها تجاه الخلايا الجذعية بين تحريم شامل وتحريم جزئي أو حرية تامة، حتى أن علماء أستراليا، وهي من الدول المتقدمة في هذا المجال، قد هددوا بنقل نشاطهم وأبحاثهم إلى دولة أخرى إذا صدر تشريع يحد من حريتهم أو يحرم عليهم العمل في مجال الخلايا الجذعية.

وهنا يحين وقت التساؤل عن «الخلايا الجذعية»: ما هي الخلايا الجذعية؟ وأين يمكن الحصول عليها؟ وكيف يمكن توجيهها لتنتج خلايا معينة بالتحديد؟ وما هو المرجو منها؟ وما آخر ما توصلت إليه الأبحاث العلمية في هذا المجال؟ وما موقف الدول والجماعات والاتجاهات المختلفة من أبحاث هذه الخلايا؟ ونستبق القول والأحداث ونبدأ بإجابة فورية قصيرة ومؤقتة عن أحد هذه التساؤلات فنقول إن المرجو والمأمول من الخلايا الجذعية كثير... بل كثير جداً. ويكفى أنها، الخلايا الجذعية، قادرة على الانقسام لتعطى أنسجة من أي نوع ومن كل نوع، وهي بذلك تمثل بديلاً مستقبلياً لكل عمليات زرع الأعضاء، وتعد بعلاج ناجع لأمراض مستعصية كالسرطان ومرض «باركنسون» (الشلل الرعاش)، ومرض «ألزهايمر» (الخرف الذي يصيب كبار السن) ومرض نقص المناعة المكتسبة «الإيدز».

والخلايا الجذعية هي تلك الخلايا التي لم تتخصص بعد في إنتاج وبناء نسيج معين من الأنسجة الحيوية التي تتكون منها الأعضاء. وكان معروفاً أن هذه الخلايا لا توجد إلا في الأجنة، لكن حديثاً جداً اتضح أن هناك خلايا جذعية في نخاع العظام عند البالغين الذين اكتمل نموهم، كما اتضح أن أنسجة الجسم المختلفة تحتوى على خلايا جذعية بنسب متفاوتة. وتكتسب الخلايا الجذعية أهمية خاصة نظراً لمقدرتها على الانقسام، كما ذكرنا آنفاً، لتكون أى نوع من أنواع الأنسجة المتخصصة المختلفة والتي يبلغ عددها في الإنسان ١٣٠ نوعاً.

ويأمل الأطباء والباحثون أن نتمكن يوماً من إعادة تكوين الكبد باستخدام خلايا من نخاع عظام المريض نفسه. وهي الطريقة التي تعد بأن تكون صالحة للمرضى الذين تلفت أكبادهم بفعل الأضرار الجانبية للأدوية أو نتيجة استئصال جراحي للأورام حيث لا يتبقى جزء كاف من الكبد للقيام بوظائفه. كذلك يمكن إصلاح الأعطاب الجينية التي تصيب الكبد باستخدام خلايا جذعية مطعمة بنسخة من الجين الصائب. لكن أكثر ما يثير العلماء هو إمكانية إعادة تكوين الأنسجة الكبدية بواسطة خلايا جذعية من المريض نفسه، وبذلك نتمكن من التغلب على المشاكل الناجمة عن زراعة الأعضاء ورفض الجسم لها. ومما يؤكد الدور الذي تقوم به الخلايا الجذعية الموجودة في نخاع العظام التجارب التي أجريت على كبد امرأة كانت قد تلقت خلايا من نخاع عظام رجل. فقد أثبت التحليل الجيني وجود خلايا ذكورية في كبد المرأة، مصدرها الوحيد هو نخاع العظام الذي زُرع لها. وقد اكتُشفت كذلك خلايا كبد ذكورية في أكباد نساء مزروعة لرجال. والواضح من هذه التجارب أن خلايا نخاع العظام تصل إلى الأكباد. وقد أكدت التجارب على الحيوانات نجاح تحول الخلايا الجذعية المأخوذة من نخاع العظام إلى خلايا كبدية، والمأمول إثبات ذلك بالنسبة للإنسان.

المصـــــــادر

تُستخلص الخلايا الجذعية أساساً من الأجنة البشرية الحديثة والتي يمكن الحصول عليها أثناء علاج الخصوبة أو الإجهاض المسموح به لظروف صحية. ومن المعروف أنه أثناء علاج العقم وزيادة الخصوبة تتوفر أعداد من الأجنة الزائدة يتم الاحتفاظ بها مجمدة، ويزودنا الجنين الواحد بآلاف من الخلايا الجذعية. وقد تمكن العلماء الأمريكيون من معالجة خلايا مستخلصة من نخاع العظام لتنقسم وتعطى نسيجاً كلوياً. ويعزز هذا الاكتشاف من فرص إعادة تكوين الأكباد التالفة، كما أنه يفتح الباب ويمهد الطريق إلى وسائل علاج جينية جديدة وفعالة. ومن المعروف أن الخلايا الجذعية في نخاع العظام هي المسئولة عن تكوين خلايا الدم، لكن في نهاية الأمر يمكن أن تنقسم هذه الخلايا إلى أنواع مختلفة من الأنسجة. وتُعد التقنيات المستخدمة لعزل هذه الخلايا من أهم الاكتشافات العلمية في السنوات الأخيرة.

وهكذا تفتح الخلايا الجذعية

«صناع السياسة في البيت الأبيض لا يضيعون وقتهم في مناقشة الجوانب الأخلاقية للقضايا العلمية الراهنة، هم يخضعونها فقط لحساباتهم السياسية، الأمر الذي لا بد أن يثير غضب الأغلبية الصامتة».

رون ريجان (ابن الرئيس الأمريكي الراحل رونالد ريجان)

فتح الله الشيخ

بين السياسة والعلم



المأخوذة من البالغين آفاقا عريضة فى الطب، فهى قادرة على تكوين طيف واسع من أنواع الخلايا لاستخدامها فى بناء الأعضاء التالفة أو المستأصلة. وتكمن روعة الموضوع فى إمكانية الحصول على هذه الخلايا بسهولة نسبية من المريض نفسه. وسيمكننا ذلك من تجنب المشاكل الأخلاقية المرتبطة باستخدام الخلايا الجذعية الجنينية، حيث تُبدى حكومات وجمعيات وشخصيات كثيرة مقاومة عنيدة ضد استخدام الأجنة للحصول على الخلايا الجذعية، على الرغم مما تعدنا به من فائدة هائلة وثورة غير مسبوقة فى طب زراعة الأعضاء. والأمر يتعلق الآن بإمكان فهمنا لآلية ومفاتيح تحول الخلايا الجذعية البالغة إلى أنسجة معينة لندخل هذا العالم الواعد من العلاج وتجديد الأعضاء والأنسجة حسب الطلب.

وفى سياق البحث الدءوب عن مصادر لاجنينية للخلايا الجذعية، وفى ظل سياسة معارضة ومتشددة، تمكن العلماء فى أمريكا من استزراع خلايا المخ المأخوذة من أجساد الموتى (!!!). وهم يعتبرون جثث الموتى مصادر مستقبلية للخلايا الجذعية. الخلايا الماستر. وقد قام فريق من معهد «سولك Salk» بمدينة لاجولا فى كاليفورنيا بقيادة «فريد جيج Fred Gage» بتطوير تقنية خاصة لاستخلاص خلايا جذعية من جثث توفى أصحابها أو من عينات أو أجزاء مستأصلة جراحيا. تضمنت التقنية المقترحة معالجة الأنسجة المأخوذة من شخصين أحدهما طفل والآخر رجل بالغ فى سلسلة من المحاليل. وقد أعطت هذه المعالجة خلايا مخ لم يكتمل نموها بعد. ثم توالت التجارب بنجاح على عينات أخرى مأخوذة من أناس فى أعمار مختلفة، وحتى من جثث مضى على وفاة أصحابها يومان. وقد حذَّر العلماء من أن هذه التجارب ستثير عددا من القضايا الأخلاقية وأن عليهم التعامل معها بعناية وحرص بالغين. وهى قضايا أخرى غير تلك التى تثيرها الخلايا الجذعية الجنينية.

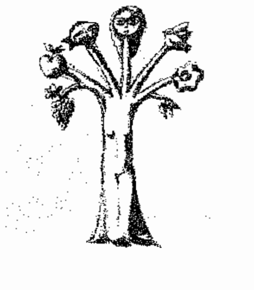
ويقول «بيتر أندروز Peter Andrews»، الأستاذ من جامعة شيفيلد بالمملكة المتحدة ورئيس فريق بحثى يعمل فى مجال الخلايا الجذعية: «يبدو أن هنالك خلايا جذعية حقيقية فى المخ تستطيع ـ تحت ظروف معينة ـ أن تعيد تجديد نفسها، فإذا توفر مصدر لمثل هذه الخلايا فإنها قد تتمكن من علاج بعض الأمراض مثل مرض باركينسون». وتؤكد الجمعية الملكية البريطانية أنه سيأتى يوم يتبرع فيه الناس بخلاياهم الجذعية كما يفعلون اليوم

بأعضائهم. لكن الجدل والنقاش ما زالا محتدمين حول أخلاقيات الموضوع. وقد وضعت اليابان قواعد صارمة ومقيدة لبحوث الخلايا الجذعية يمكن إيجازها في الآتي: لا تستخدم في التجارب إلا الخلايا الجذعية الجنينية المأخوذة من «الأجنة المستبعدة discarded embryos» من أبحاث الإخصاب. ويحرم استخدام الخلايا الجذعية المأخوذة من أجنة مستنسخة. أما الولايات المتحدة فقد حجبت أي تمويل فيدرالي عن أبحاث الخلايا الجذعية المستخلصة من أجنة مخلقة خصيصا لهذا الغرض. وقد جاء التقييد الأمريكي بعد أن سمحت إحدى عيادات الإخصاب بتخليق أجنة بشرية بغرض الحصول على خلايا جذعية للأبحاث العلمية، الأمر الذي أثار حفيظة عدد كبير من العلماء والسياسيين ورجال الدين.

قد يكون التخليق العذري (Parthenogenesis) تكون الجنين بانقسام خلية البويضة من دون أن تتلقح) لأجنة الرئيسيات وما يمكن أن يتبع ذلك من إنتاج للخلايا الجذعية أقل إثارة للقلق والجدل والاعتراضات الأخلاقية نوعا ما. وقد أعلن فريق من العلماء مؤخرا أنهم تمكنوا من تخليق أجنة للرئيسيات (من أمثال القردة) بطريقة عذرية، أي بدون إخصاب. وما يهمنا هنا أنهم تمكنوا من إثارة الخلايا الجذعية المأخوذة من هذه الأجنة لتنتج أنواعا مختلفة من الخلايا بما فيها خلايا المخ والقلب والعضلات. ولعل أهم ما جاء في الإعلان هو جعل الخلايا العصبية تنتج مادة «دوبامين» في داخل المخ لأول مرة. ويبشر هذا الإنجاز بإمكانيات هائلة في علاج أمراض الجهاز العصبي المركزي مثل مرض باركينسون ومرض هانتنجتون (وأعراضه التقلصات العضلية اللاإرادية التي لا هدف لها). وقد تضمنت طريقة الحصول على الأجنة بالتكاثر العذري إثارة بويضة أنثى قرد لتنمو دون مساعدة من حيوان منوي. وقد استخدم الباحثون مواد كيميائية معينة لحث البويضة (إثارتها بإشارات خاصة) حتى لا تلفظ نصف كروموزوماتها (كما يحدث في التكاثر الجنسي العادي) وتبدأ في الانقسام في نفس الوقت. وتقدم الدراسات من هذا النوع بدائل للأجنة البشرية الحقيقية وتجنبنا كل المشاكل المرتبطة بذلك. غير أن هناك شكوكا كثيرة ما زالت تحيط بسلامة وكفاءة هذه الطريقة. كما أن هناك تحفظات جادة بشأن الاندفاع في سباق نشر المعلومات الجديدة حول الخلايا الجذعية. وقد أضعف هذا السياق من حلقات الانضباط التي توضع عادة في طريق نشر المعلومات العلمية والاكتشافات الجديدة، حتى أنه في بعض الأحيان يتم إعلان نتائج علمية في غاية الخطورة لأول مرة في أجهزة الإعلام وليس في المجلات العلمية المتخصصة (النعجة دوللي المستنسخة). ولعل في ذلك ما يجذب اهتمام المولين وأصحاب الأسهم الذين يدعمون البحوث في مجالات التكنولوجيا الحيوية، لكن الأمر يتخطى خطوات المراجعة والتحكيم التي صارت جزءًا لا يتجزأ عن نشر وتوثيق الاكتشافات العلمية. وفي هذا السياق طلع علينا الباحثون في إحدى الشركات الكبرى العاملة في مجال تكنولوجيا الخلية بنجاحهم في تنمية كلية بقرة في المعمل من مستنسخات خلايا جذعية بقرية، غير أن البحث لم يظهر في أية مجلة علمية محكمة بعد.

وقد اكتسبت أبحاث الخلايا الجذعية قوة دفع جديدة بالإعلان عن إمكانية استخلاصها من الدهون والشحوم داخل أجسام المصابين بالسمنة والزائدة عن حاجة الإنسان. ويرحب الجميع بالتخلص منها (عملية شفط الدهون). ولا شك أن إنماء أنسجة من خلايا جذعية مأخوذة من المريض نفسه لتحل محل الأنسجة التالفة أو المستأصلة سيجنبنا ويجنب المريض مشاكل كثيرة مثل الجانب الأخلاقي في الموضوع ورفض الأنسجة الغريبة عن الجسم.

الخلايا الجذعية هي تلك
الخلايا التي لم تتخصص بعد في إنتاج
وبناء نسيج معين من الأنسجة الحيوية
التي تتكون منها الأعضـاء



ويقول «آدم كاتس Adam Katz»، جراح التجميل من جامعة بيتسبرج، أن العقبة الوحيدة في المستقبل ستكون إتاحة الخلايا الجذعية. وأن الدهون أكثر انتشارا وأسهل في التعامل معها عن نخاع العظام كمصدر لهذه الخلايا. ويمكن الحصول على لتر كامل من الدهون في المرة الواحدة وهو عبارة عن خليط كريه المنظر من الأنسجة والعصارات التي كان الجراحون يلقون بها في منافذ الصرف الصحي للتخلص منها. أما الآن فإن فريق الدكتور «كاتس» يقوم بمعالجة هذا الخليط المزعج في محاليل مغذية لتنمية الخلايا، ثم يقوم بعد ذلك باختبارات معينة للتعرف على العلامات المميزة للخلايا المختلفة. وقد تعرف الفريق بالفعل على خلايا عظام وعضلات وغضاريف. وتحتوي الحفنة الواحدة من الأنسجة الدهنية على بضع خلايا جذعية لم تتخصص بعد. وتنتج هذه الخلايا العضلات والدم والغضاريف في الأجنة، وتقوم بنفس العمل في البالغين. وليس في الأمر مفاجأة كما تقول «هيلين بلاو Helen Blau» المتخصصة في الخلايا الجذعية في البالغين من جامعة ستانفورد، لأن أنواع الخلايا متقاربة جدا. ويعتبر العلماء والمتخصصون أن أصعب ما في الموضوع هو دفع الخلايا البالغة لتنتج ما نرغب فيه، أي نوعا محددا من الأنسجة. لكن الجدل والنقاش محتدمان حول الدهون كمصدر للخلايا الجذعية، فيتساءل «ستيفان أوراهيلي Stephen O' Rahilly». اخصائي السمنة المفرطة في جامعة كمبريدج، عمَّا إذا كان فريق الدكتور «كاتس» قد اكتشف جديدا بالفعل؟ فقد قامت فرق كثيرة (!) في السابق باستخلاص خلايا جذعية بطرق مختلفة.

المحـــــــاولات

ويحاول العلماء البريطانيون التدخل في حالات السكتة الدماغية (stroke) بالحقن بالخلايا الجذعية حيث يأمل الباحثون أن يساعد ذلك في استعادة المخ لوظائفه وشخصيته. وفي حالة نجاح مثل هذه المعالجات. والأمل كبير. فإن الخطوة القادمة ستكون محاولة علاج أمراض باركينسون والزهايمر. وتتضمن المحاولات الجارية الآن عددا محدودا من المرضى المتطوعين، والذين يأملون في الحصول على الدواء الجديد مع مطلع عام ٢٠٠٦م كما وعدهم الدكتور «سيندين» Syndin، قائد فريق البحث التابع لإحدى الشركات البريطانية المتخصصة. ويستخدم الفريق خلايا جذعية عصبية (الخلايا الماستر) مستخلصة من أجنة مجهضة، ويطلق الفريق على هذه الأجنة «المصدر الضائع للخلايا والأنسجة» حيث يكفي القليل منها لمعالجة أعداد كبيرة من المرضى دون المساس بالأخلاقيات او الدين. وقد تمكن فريق الدكتور «سيندين» من إدخال «مفتاح جيني» في الخلايا الجذعية بحيث يجعلها تنقسم باستمرار عندما تزرع في درجة حرارة أقل من درجة حرارة الجسم، لكن عند دخول هذه الخلايا إلى الجسم يتوقف «المفتاح الجيني» عن العمل وتصبح الخلايا المزروعة قابلة للفناء مثل كل الخلايا العادية (تتوقف عن الانقسام). وقد اتضح أنه عندما يتم حقن هذه الخلايا في المخ فإنها تهاجر إلى المناطق التالفة وتبدأ في إعادة إصلاحها (بنائها) كما اتضح أن المخ الذي تعرض للتلف في الإنسان البالغ ما زال قادرا على استخدام الخلايا الجذعية، وكل ما علينا هو أن نستزرع الخلايا العصبية الجذعية ثم نحقنها في المخ بعد تحولها إلى النسيج الملائم حيث يستخدمها المخ في إعادة تكوين ما تلف منه.

ويقترب العلماء كثيرا من الوقوف على علاج شاف لمرض باركينسون بواسطة الخلايا الجذعية الجنينية. فقد قام كل من الدكتور «أول إيساكسون Ole Isacson» من كلية الطب بجامعة هارفارد والدكتور «رونالد ماكاي Ronald McKay» من المعهد القومي الأمريكي

للصحة باستخدام هذه الخلايا بنجاح في معالجة الفئران والأرانب تحت ظروف تحاكي ظروف المرض عند الإنسان. لكن العلماء يواجهون اعتراضات سياسية وأخلاقية تؤخر تطبيق مثل هذه الطرق العلاجية في محاولات سريريه بشرية. فالدعم المادي لمثل تلك الأبحاث محدود جدا في الولايات المتحدة وبلاد كثيرة أخرى. وحتى يحين الحين وتتوفر الإمكانات والدعم لهذه الأبحاث سيكون من الصعب تطوير بعض التقنيات الهامة. وقد قام «إيساكسون» و«ماكاي» باستخدام تقنية مختلفة بعض الشيء، لكنها حققت نتائج جيدة. وتتلخص هذه التقنية في جعل الخلايا الجذعية تفرز مادة «دوبامين» Dopamine، عندما تزرع في دماغ الأرانب والفئران. و«دوبامين» هي المادة الكيميائية المفقودة (الغائبة) في مخ مرضى «باركينسون» الأمر الذي يؤدي إلى الأعراض التقليدية للارتجاف والتصلب.

ولا يدوم علاج مرض باركينسون بالأدوية طويلا، فهو علاج قصير المدى، وفي نفس الوقت يواجه الباحثون صعوبات كبيرة في الحصول على مصادر مناسبة وكافية للخلايا الجذعية المنتجة لمادة «دوبامين» من أنسجة الأجنة لزرعها في المخ. ولذلك اتجهت بحوث الخلايا الجذعية الآن لاكتشاف مصادر لهذه الخلايا تكون كافية ومناسبة ويمكن إنتاجها في المعمل حتى يستطيع جراحو الأعصاب زراعتها. وسيكون ذلك بمثابة ثورة كبرى كما يقول الدكتور «إيساكسون». لكن العلماء يحتاجون إلى دعم من السياسيين، ونظرا للاعتراضات المختلفة فإن العلماء لن يتمكنوا من الحصول على الخلايا الجذعية إلا من المختبرات الخاصة المصرح لها بذلك في الولايات المتحدة وهي قليلة العدد وتنتج خلايا جذعية مشكوكا في صلاحيتها للإنسان. لكن الأمور تتجه إلى الأحسن في كل من المملكة المتحدة وفرنسا وهولندا حيث تتخذ الحكومات هناك مواقف أكثر إيجابية ويسرا من الولايات المتحدة فيما يتعلق بالخلايا الجذعية.

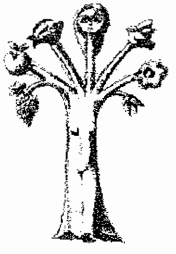
الشكوك.. المنهج العلمي

أثيرت في الآونة الأخيرة موضوعات كثيرة حول جدوى استخدام الخلايا الجذعية المأخوذة من البالغين، وذلك بعد أن قامت عدة مجلات علمية بإلقاء ظلال من الشك حول مقدرة تلك الخلايا على إعادة تخليق الأنسجة. وكانت التقارير التي نشرت عن إمكانية استخدام الخلايا الجذعية من البالغين في إصلاح التلف في أي نسيج قد بعثت الآمال في إيجاد علاج لكل الأمراض. غير أن سلسلة متلاحقة من الدراسات الحديثة قد جعلت الموضوع محل شك وجدل. فيقول عالم بيولوجيا الخلية «إيرفنج وايزمان» Irving Weissman، من جامعة ستانفورد بكاليفورنيا أن علينا إعادة جميع التجارب التي أجريت على الخلايا الجذعية قبل أن نسمح للأخصائيين العلاجيين بملاحقتنا بغرض الحصول على أدوية وعلاجات بواسطتها. ويؤكد «وايزمان» أنه يعجب لقيام البعض من غير المتخصصين بتجربة تقنيات الخلايا الجذعية في الوقت الذي لم يقف فيه علماء الخلايا على «أرض صلبة» بعد. وتخضع النتائج التي حصل عليها باحثون من خارج مجال الخلايا الجذعية لفحص وتمحيص دقيق الآن. ويلوم الدكتور طارق أنور، من علماء الخلايا الجذعية في معهد بحوث السرطان بلندن، المجلات العلمية لوقوعها في مصيدة التسرع في نشر الأبحاث الخاصة بهذا الموضوع بغرض إحراز قصب السبق فقط.

ويتفق العلماء في أن بعض الخلايا متعددة الإمكانيات ولها المقدرة على تخليق أنواع مختلفة من الأنسجة، ولكنهم يختلفون حول ما إذا كانت هذه الخلايا موجودة بشكل طبيعي في جسم الإنسان البالغ أم أنها لا بد أن تخضع لمعالجات معملية لامتلاك تلك المقدرة، وهو أمر هام وخطير. فقد قام فريق علمي بقيادة «ديان كراوس» Diane Krause، من جامعة ييل بنشر بحث هام في مجلة «الخلية»، عن نجاح الفريق في تخليق أنسجة الكبد والرئة والجلد من خلية واحدة مأخوذة من نخاع العظام، وهي من الخلايا المعروفة بأنها تعطي خلايا الدم فقط. لكن «وايزمان» وفريقه ناقضوا هذه النتائج بعد أن أجروا عدة تجارب على الفئران مستخدمين بروتين «مفلور» fluorescent، وهو جزيء بروتين يصدر إشعاعات كهرومغناطيسية (ضوئية) يمكن بواسطتها تتبع خط سيره.

ويعتقد «ستيوارت أوركين» Stuart Orkin، من جامعة هارفارد أنه من الصعب مقارنة تجربة بأخرى، لكن يبدو أن إمكانية الانقسام التفاضلي (أو التحول التفاضلي) للخلايا الجذعية أمر مبالغ فيه كثيرا. ومما يزيد من الشكوك تأكيد «أوركين» أن الخلايا التي لها مثل هذه المقدرة نادرة جدا عند البالغين مما يجعل استخلاصها أمرا في غاية الصعوبة. وقد اتضح بالفعل أن الخلايا الجذعية المأخوذة من البالغين لا بد أن تخضع لمعالجات معملية معقدة وطويلة قبل أن تزرع لتنقسم بشكل تفاضلي كما جاء في أبحاث «كاترين فيرفيلي» Catherine Verfaillie، من جامعة مينيسوتا في مينيابوليس. وتحمل الخلايا المعالجة في المعامل مخاطرة الإصابة بالسرطان أو أمراض أخرى. لذلك فإن «أوركين» يدعو إلى الرجوع إلى الالتزام بالطرق العلمية الدقيقة الموثقة والبعد عن الطرق الاستعراضية التي لا تصلح إلا لإحداث دوي أو «فرقعة» في أجهزة الإعلام.

إذا كان اكتشاف واستخدام المضادات الحيوية في العلاج يقال له ثورة أو طفرة فإن اكتشاف الخلايا الجذعية الجنينية هو ألف ثورة أو طفرة



ولا يأتي كل هذا الجدل والنقاش من فراغ، فالأمر جد خطير ويتعلق بمستقبل البشرية. وإذا كان اكتشاف واستخدام المضادات الحيوية في العلاج يقال له ثورة أو طفرة فإن اكتشاف الخلايا الجذعية الجنينية أو البالغة وتطويعها والتحكم فيها لإنتاج خلايا وأنسجة جديدة هو ألف ثورة أو طفرة، يفوق في قيمته وعائده القيمة والعائد الذي جنته البشرية من المضادات الحيوية وزرع الأعضاء معا. فالاكتشافات والإنجازات تتوالى تباعا مبشرة أحيانا ومثيرة للجدل والبلبلة أحيانا أخرى. فقد أعلن عن علاج يستطيع إيقاف زحف الإصابة بالعمى الذي يسببه التقدم في العمر أو مرض السكر، وذلك باستخدام الخلايا الجذعية المأخوذة من نخاع العظام. فعندما حقنت هذه الخلايا في السائل الذي يملأ فراغ العين في أحد فئران التجارب، تحولت هذه الخلايا إلى جزء من الأوعية الدموية في الشبكية. ومن المعروف أن الخلل الذي يعطل تكوين الشعيرات الدموية هو السبب الرئيسي للعمى عند البالغين نتيجة التقدم في السن أو الإصابة بمرض السكر. وهناك اكثر من مليون شخص يفقدون البصر سنويا نتيجة تلف الأوعية الدموية. ويقول «لويس سميث» Lois Smith، خبير العمى عند الأطفال «المبتسرين» من جامعة هارفارد: «ومن المثير في هذه الخلايا أنها تذهب مباشرة إلى حيث الحاجة إليها لتتدخل في طور النمو العادي وتلحق بالجميع». ولا يقتصر الأمر على علاج العمى بل يتعداه إلى الحد الذي أطلق فيه «مارتن فريدلاندر» Martin Friedlander، أخصائي العيون، على العلاج بالخلايا الجذعية اسم «الرصاصة السحرية» التي تصلح كل عطب.

آلية العمل.. الإنسان والفأر

لكن، ما الذي يميز الخلايا الجذعية عن العادية؟ للإجابة على هذا السؤال قام فريقان علميان بنشر ما توصلا إليه في هذا الصدد في مجلة «ساينس» Science، في عدد أكتوبر ٢٠٠٣. وقد أعلن الفريقان اكتشافهما للجينات المميزة للخلايا الجذعية. وهو الأمر الذي سيساعد كثيرا في التعرف على أنواع جديدة من الخلايا الجذعية واستدراجها لتنمو وتتحول

إلى أنسجة تحل محل الأنسجة والأعضاء المعيبة أو المستأصلة. وسيمكن ذلك العلماء من المناورة ببعض هذه الجينات لدفع الخلايا الجذعية للقيام بعمل معين في مكان محدد، بعد أن نعرف الدور الذي تلعبه الجينات المميزة للخلايا الجذعية مع كل نوع من أنواع تلك الخلايا. ومن نتائج فحص الخلايا الجذعية الجنينية للفأر والخلايا الجذعية العصبية وتلك الموجودة في الدم اتضح أن هناك ما يقرب من مائتي (٢٠٠) جين أنشط من مرتين إلى ثلاث مرات على الأقل من مثيلاتها في خلايا المخ أو الدم البالغة. ويقول الباحثون المهتمون بالموضوع أنه أصبح من الممكن التعرف على الخلايا الجذعية للقلب أو العظام أو العضلات بفضل القائمة التي أصبحت متاحة الآن. ويقود «دوجلاس ميلتون Douglas Melton» من جامعة هارفارد فريقا من الباحثين «لاصطياد» الخلايا الجذعية في البنكرياس. وسيكون ذلك أعظم هدية من العلم والطب للبشرية. وقد قام فريقا البحث المذكوران هنا بنسخ الجينات النشطة في الخلية على «تشيب» ميكروية تحمل نسخا من كل الجينات الموجودة في الفأر تقريبا. وهكذا أمكن مقارنة (مطابقة) الجينات النشطة في الخلايا الجذعية مع «دنا DNA» على الميكرو تشيب، مما سمح للباحثين بتحديدها والتعرف عليها.

وبدراسة الجينات الأكثر نشاطا (المميزة للخلايا الجذعية) اتضح أن نصفها تقريبا مشغول في التواصل بين الخلايا والتجاوب مع الضغوط الخارجية، أما ما يفعله النصف الآخر من الجينات النشطة فليس معروفا بعد. وفي نفس الوقت يؤكد «إيهور ليميشكا Ihor Lemischka» عالم البيولوجيا الجزيئية بجامعة برينستون أن الخلايا الجذعية البالغة في الدم تحتوي على ٢٢٢ جينا نشطا مشتركا بين الفأر والإنسان. كما يؤكد هو وفريقه البحثي أن الخلايا الجذعية البالغة ليست مفهومة بشكل مقبول حتى الآن، وعلى ذلك فإن الادعاء بأنها تستطيع أن تتحول إلى أنواع عديدة من الأنسجة ما زال محل جدل. وما زال الباحثون مختلفين حول الفروق بين الخلايا الجذعية الجنينية والبالغة. وفي انتظار المزيد من المعلومات، فإنه لا توجد أسباب قوية تؤيد تفوق نوع من الخلايا الجذعية على نوع آخر. ويمكن استخدام قائمة الجينات النشطة للتأكد عموما من أن الخلايا بالفعل جذعية، كما أن القائمة قد تساعد في التعرف على مفتاح عمل الخلايا الجذعية البالغة والذي يجعلها تقوم بإصلاح التالف من الأنسجة.

تتشابه كثيرا مقدرة الحيوانات على إحلال خلايا الدم والأنسجة بخلايا وأنسجة جديدة مع الكيفية التي ينمو بها النبات من أطراف براعمه وجذوره. وقد تم التعرف على وحدة الجينات التي تجعل الخلايا الجذعية جاهزة للعمل وإعادة التجديد الذاتي في الكائنات الحية متعددة الخلايا في النباتات كما في الحيوانات. وقد اكتشف فريق طبي من جامعة ديوك بقيادة «دانيال كوكس Daniel Cox» المزيد من المعلومات حول آلية تأثير الجينات في الخلايا الجذعية وجعلها تنتج بويضات في مبايض أنثى ذبابة الفاكهة «دروسوفيلا». ومن المعروف أن الخلايا الجذعية عندما تتكاثر تعطي خلايا جذعية من نفس النوع وخلايا لنمو النسيج والعضو الذي يحتاج ذلك. وتبعا للسيناريو التقليدي فإن انقسام خلية جذعية يعطي خلية ابنة في شكل خلية جذعية جديدة بينما يعطي النصف الآخر نوعا أو أكثر من أنواع الخلايا الأخرى. ففي الإنسان مثلا تنتج جميع أنواع خلايا الدم من الخلايا الجذعية في نخاع العظام، وهي خلايا في بؤرة اهتمام الباحثين الإكلينيكيين العاملين في مجال زراعة الأعضاء والهندسة الوراثية لنخاع العظام من أجل علاج أمراض الدم.

والسؤال الأكبر الذي يحير علماء البيولوجيا لسنوات عديدة هو: ما الذي يحفظ الخلايا الجذعية غير متخصصة؟ فهي من هذا المنطلق متفردة بين الخلايا التي تتكون منها الكائنات متعددة الخلايا. وللإجابة على هذا السؤال قام كوكس وفريقه بدراسة طبيعة عمل الجين «piwi» في عملية تكوين خلايا الجيرملين (الحيوان المنوي أو البويضة) غير المتخصصة في مبيض ذبابة الفاكهة. والجين «piwi» أحد أفراد عائلة من الجينات مكتشفة حديثا وأعضاؤها موجودون في الإنسان والحيوان والنباتات. وأهم وظائف هذه الجينات الحفاظ على الخلايا الجذعية قادرة على تجديد نفسها ذاتيا. فعندما تنقسم خلية الجيرملين الجذعية «germline stem cell (GSC)» ينتج عنها عادة خلية جديدة من نفس النوع وخلية أخرى تصبح خلية بويضة. وفي غيبة الجين «piwi» فإن «GSC» تتكون عادة لكنها جميعا تصبح متخصصة. وقد تمكن فريق كوكس من التعرف على الإشارة التي يولدها «piwi» لتصل إلى «GSC» من خلال الخلايا الملاصقة لجدار المبيض. كما ثبت أن هذه الإشارة ضرورية للحفاظ على مقدرة التجدد الذاتي في «GSC». وقد اكتشف علماء آخرون جينا مشابها اسمه «Zwille» في نبات «أرابيدوبسيس Arabidopsis» والذي يبدو أنه ضروري للحفاظ على مقدرة التجدد الذاتي في خلايا «meristem» بنفس الطريقة. وقد اتضح أن للجين «piwi» وظيفة مزدوجة، فعندما ينشط هذا الجين في «GSC» نفسها فإنه يحثها على الانقسام أولا، ثم يخمد تدريجيا في الخلية الابنة التي قدر لها أن تعطي خلية البويضة، لكنه يظل نشطا في خلية «GSC» الجديدة. ويؤثر بروتين «piwi» الذي ينتجه الجين في أنوية كل من خلايا جدار المبيض وخلايا «GSC» بشكل مختلف. ففي خلايا جدار المبيض يقوم بتوليد إشارة للحفاظ على «GSC» بينما في داخل «GSC» نفسها فإنه يحثها على الانقسام. أما كيف يحدث ذلك بواسطة هذا الجين والجينات المشابهة في الحيوانات والنباتات فإن الأمر ما زال في حاجة إلى مزيد من الاكتشافات.

لا تسمح اللوائح الأمريكية إلا بالأبحاث التي تجري على الخلايا الجذعية المستخلصة من أجنة بشرية مجمدة لكونها زائدة عن الحاجة أثناء محاولات الإخصاب



نشر بعض العلماء من معهد «جونس» لطب الإنجاب مقالا في المجلة العلمية «الإخصاب والعقم Fertility & Sterility» أثار ضجة هائلة. جاء في المقال أن العلماء قد نجحوا في تخليق مجموعات من الخلايا الجذعية الجنينية من حيوانات منوية وبويضات من متطوعين ومتطوعات لهذا الغرض. وفي هذه الدراسة المدعمة من القطاع الخاص قامت المتطوعات بإعطاء ١٦٢ بويضة تم إخصاب ١١٠ منها بنجاح. وقد نمت ٥٠ منها حتى وصلت إلى مرحلة «بلاستوسيست blastocyst»، وأنتجت ثلاث منها خطوطا من الخلايا الجذعية الحية القابلة للنمو والانقسام. وقد حصل العلماء على تمويل خاص لأبحاثهم حيث تمنع اللوائح الفيدرالية مثل هذه الممارسات في الولايات المتحدة. ولا تسمح اللوائح إلا بالأبحاث التي تجري على الخلايا الجذعية المستخلصة من أجنة بشرية مجمدة لكونها زائدة عن الحاجة أثناء محاولات الإخصاب. وتحرم اللوائح كذلك المتاجرة في هذا الموضوع بالبيع أو الشراء.

هل يعيد التاريخ نفسه؟

ليست تلك هي المرة الأولى التي يتم فيها تخليق الأجنة خصيصا لغرض البحث العلمي، فترجع البداية إلى الأيام الأولى لمحاولات الإخصاب خارج الجسم، وهو تاريخ سابق بكثير على دخول مفهوم الخلايا الجذعية واقع البحث العلمي. وقد استغرق الأمر كثيرا من الجدل في مؤسسة الرئاسة الأمريكية وفي الكونجرس حول هذا الموضوع. وقد خضع الرئيس الأمريكي لضغوط العناصر الدينية فصدرت لائحة المعهد القومي للصحة NIH التي تسمح بإجراء البحوث على الخلايا الجذعية المستخلصة من الأجنة البشرية الفائضة من عمليات

الإخصاب خارج الجسم أو الإجهاض المسموح به فقط، وغير مسموح بتخليق الأجنة البشرية خصيصا لغرض إجراء التجارب عليها. وقد اعترض الأمريكيون على هذه اللائحة في اقتراع أجرته إحدى وكالات الأنباء (جاءت النتيجة ٢:١). وفي أول مقابلة بين البابا يوحنا باولو الثاني وجورج بوش الرئيس الحالي للولايات المتحدة في ٢٣ يوليو ٢٠٠١ طلب البابا من الرئيس عدم دعم الأبحاث التي تستخدم الأجنة البشرية ووصفها بأنها من الشيطان. (ها هي المؤسسة الدينية العظمى في الغرب تكاد تلعب نفس الدور القديم الذي دأبت عليه طويلا في مواجهة البحوث العلمية عموما وتلك المتعلقة بجسم الإنسان على وجه الخصوص مثل دوران الأرض حول الشمس والتشريح في العصور الوسطى وقبيل عصر النهضة).

ويعتقد كثير من العلماء والمفكرين أن الأمر يحتاج إلى إعادة النظر في اللوائح الفيدرالية المنظمة لأبحاث الخلايا الجذعية ليتسنى توفير الدعم والتمويل اللازم لها. وكما يقول عالم البيولوجيا: فيرنر هايم Werner Heim: «إن عمل البيولوجي هو الاكتشاف، وعمل التكنولوجيين هو تطوير تطبيق هذا الاكتشاف، أما علماء الإنسانيات والفلاسفة فدورهم أن يبينوا لنا ما إذا كان يجب تطبيق هذا العمل؟ وكيف يتم ذلك؟ وتحت أي ظروف وبأية شروط؟

ومما يثير خيال الناس ويدفع بجهود العلماء الإمكانات الهائلة للخلايا الجذعية والتي اتضحت بجلاء في غضون بضع سنوات فقط. ولنا أن نتخيل وجود مصدر دائم للخلايا المنتجة للإنسولين لنقضي على مرض السكر (!) أو إصلاح عضلات القلب بالخلايا الجديدة المتجددة لنتخلص من الأزمات القلبية الحادة (!) أو إمكانية الشفاء من إصابات العمود الفقري بتكوين خلايا عصبية جديدة (!). وقد نجح فريق علمي من جامعة روكفيلر في فصل خلايا جذعية من ذيل فأر مصاب بالشلل وتحويلها إلى نسيج عصبي حي في النخاع الشوكي، الأمر الذي أعاد للفأر المقدرة على الحركة. غير أن الطريق ما زال طويلا أمام الباحثين للوصول إلى علاج مأمون باستخدام الخلايا الجذعية. فقد تبين أنه من الصعب كبح جماح الخلايا الجذعية حتى لا تتفجر في كتلة سرطانية بعد زراعتها، لتصبح بمثابة «صندوق باندورا» (من الأساطير الإغريقية) أو منبعا للشرور والمصائب.

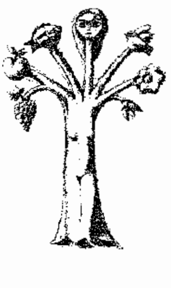
ولا تقدم تكنولوجيا الخلايا الجذعية حلا لمشكلة التطابق النسيجي (Histocompatability) الحرجة. فحتى الخلايا الجنينية التي نحصل عليها من الإخصاب خارج الجسم أو من مصادر الأجنة الأخرى هي خلايا من أشخاص آخرين، أي أنها معرضة لرفضها من الجسم المزروعة فيه. لذلك تتجه البحوث في مجال تكنولوجيا الخلايا الجذعية المتطورة لإنتاج خلايا جنينية مماثلة تماما للإنسان البالغ (ذاتية المصدر) بثلاث طرق:

١. النقل النووي للخلايا الجسدية وهي العملية التي يطلق عليها «الاستنساخ البشري العلاجي Human Therapeutic Cloning»، حيث تتحد خلية من جسد المريض مع بويضة منزوع منها دنا DNA. ونتيجة لذلك فإن دنا DNA الخلية الجسدية يعاد برمجته إلى حالة جنينية ليعطي خلايا جذعية بعد ذلك ذات إمكانيات شاملة ومماثلة تماما لخلايا المريض.

٢. التكاثر العذري Parthenogenesis، وفي هذه التقنية يتم تنشيط البويضة قبل نضجها مباشرة (cyte) عند المرأة دون أن ينزع منها دنا DNA لتبدأ في النمو بذاتها وتكون جنينا يمكن استخلاص الخلايا الجذعية الشاملة منه.

٣. النقل البلازمي (Plasmic transfer) وهو عكس النقل النووي ويتضمن إزالة (نزع) السيتوبلازم من بويضة لم تنضج بعد ثم نقله إلى داخل خلية جسدية في المريض فتتحول بذلك خلية المريض إلى خلية جذعية أولية.

انحياز بوش للتيار الديني ولم يسمح بأي دعم فيدرالي لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية المستنسخة



ما الذي تفعله السياسة بالعلم؟

أكد الرئيس جورج بوش الابن انحيازه الواضح للتيار الديني المتشدد في تناوله لقضية الخلايا الجذعية. أخطر قضية علمية تتعلق بالإنسان تم طرحها حتى الآن. فلم يسمح بأي دعم فيدرالي لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية المستنسخة (الدعم الفيدرالي للأبحاث العلمية في الولايات المتحدة يقدر بمليارات الدولارات) وسمح بدعم تلك البحوث التي قامت قبل التاسع من أغسطس سنة ٢٠٠٤ فقط (!). وهي ٢٢ خطا لخلايا جذعية جنينية تم تنشئتها على «منصات» من خلايا الفئران وفي وسط من سوائل حيوية مأخوذة من الأبقار. وبذلك فإن تلك الخلايا غير صالحة البتة للاستخدام أو التجريب على الإنسان نظرا لإمكانية نقل أمراض غريبة وخطيرة من الحيوانات إلى الإنسان (ولنتذكر قصة انتقال الإيدز من القردة للإنسان)، هذا عدا مقاومة جهاز المناعة البشري لها ولفظها في النهاية. لكل ذلك يطالب العلماء الامريكيون بدعم فيدرالي لبحوث الخلايا الجذعية التي تمت على «منصات» غير بيولوجية حتى يتجنبوا المحاذير التي ذكرناها هنا.

وفي المقابل اتخذت المملكة المتحدة قرارا تاريخيا يحسب لحكومة بلير «الليبرالية» حيث سمحت في أوائل أغسطس ٢٠٠٤ للعلماء باستنساخ أجنة بشرية للحصول على الخلايا الجذعية الجنينية منها، واعتمدت هيئة الخصوبة والأجنة البشرية (Human Fertilisation and Embryology Authority HFEA) طلبا تقدم به عدد من العلماء من مركز نيو كاسل للحياة، وذلك للحصول على خلايا جذعية جنينية باستخدام تقنية قياسية معروفة هي «استبدال نواة الخلية»، وهي تتضمن نزع نواة خلية بويضة بشرية وإحلال نواة أخرى محلها، مأخوذة من جسم إنسان. تعالج الخلية بعد ذلك لتنقسم وهي تسلك في ذلك مسلك جنين في مراحله الأولى تم تخصيبه بحيوان منوي. ويعد هذا التصريح الأول من نوعه في أوربا. لكن ليس في العالم فقد سبقه ما حدث من استنساخ بشري في كوريا الجنوبية. وقد صرحت سوزي ليزر Suzi Leather رئيسة هيئة HFEA بأن التصريح قد جاء بعد «دراسة متأنية لكل الاعتبارات العلمية والأخلاقية والقانونية، ونظرا لما يأمل الطب في تحقيقه مستقبلا... وإنه لمجال مهم في البحث العلمي والاستخدام المسئول للتكنولوجيا».

انهالت التعليقات والآراء مؤيدة ومعارضة لما حدث، وانبرى كل من له علاقة بالخلايا الجذعية في الكتابة والتحدث في أجهزة الإعلام، الأمر الذي يصعب حصره. لكن ما قاله وصرح به أساتذة التخصص يستحق الإشارة. ستيفان مينجر Stephen Minger، عالم الخلايا الجذعية من كلية الملك بلندن قال «إنه تقدم هائل للعلوم ليس في بريطانيا وحدها بل في كل المجتمعات العلمية المشتغلة بالخلايا الجذعية في جميع أنحاء العالم». أما جون هاريس John Harris من جامعة مانشستر فيؤكد أنه علينا تهنئة HFEA على هذه الخطوة الرائعة. فالاستنساخ العلاجي سيصبح في القريب العاجل أداة في غاية الخطورة ستستخدم لكشف واستغلال القدرات الكامنة في الخلايا الجذعية من أجل علاج بعض الأمراض التي تهدد الجنس البشري». ويقول روبين لوفيل. بادج Robin Lovell-Badge من المعهد الوطني للبحوث الطبية «سيسمح لنا ذلك بدراسة أمراض الوراثة دون اللجوء إلى استخدام الإنسان بدلا من خنازير غينيا، أو بالأحرى خنازير غينيا بدلا من الإنسان».

معركة الخلايا الجذعية في أمريكا

تمول السلطات الفيدرالية في الولايات المتحدة عددا محدودا من خطوط الخلايا

كتاب الزاوية

يحيى حقى

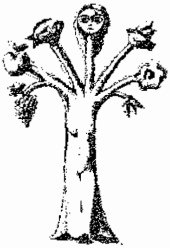
كناسة الدكان

كنت أنا الابن الثالث بين إخوتى.. ولدت فى ٧ يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب فى بيت ضئيل من أملاك وزارة الأوقاف. ورغم أننا غادرنا حى السيدة وأنا لا أزال طفلاً صغيرًا، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتى وتكوينى النفسى والفنى. فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست «ما شاء الله» بائعة الطعمية، والأسطى حسن حلاق الحى، وبائع الدقة.. ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام «الست».

كانت والدتى شديدة التدين، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية. وكانت تختار أسماء أبنائها من صفحات القرآن. فإذا اقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها. وكثيرًا ما كانت تقرأ علينا صفحات من البخارى والغزالى ومقامات الحريرى.

وكان أبى مفتونًا بالمتنبى يحفظ كثيرًا من شعره ويلقيه علينا فى جلساتنا المسائية.. وكان مغرمًا بالقراءة إلى أبعد حد حتى أنه كان يقرأ وهو يسير فى الطريق.. ومازلت أذكر كيف عاد لنا ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء. فقد صدم عمود الترام وهو سائر يقرأ فى صحيفة!

وهكذا نشأت فى بيئة تعشق القراءة.. والدتى وأبى.. وكذلك أخى الأكبر إبراهيم الذى يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر، جديدها وقديمها.. لقد كون لنفسه مكتبة عربية وإنجليزية كانت أول معين استقيت منه.



الجذعية الجنينية جميعها موجودة من قبل التاسع من أغسطس ٢٠٠١ وجميع هذه الخطوط قد تمت على منصات من خلايا الفئران واكتسبت منها، كما ثبت بالدليل القاطع، نوعا من السكريات (الكربوهيدراتات) الذى يلتصق بالخلايا من الخارج ويوجد فقط فى خلايا القوارض وبعض الثدييات الأخرى ولا يوجد على خلايا الإنسان. لذا فإن هذه الخلايا لن تصلح بأى حال من الأحوال للتعامل مع الإنسان حيث سيلفظها جهاز المناعة لغرابتها. وعندما تأكد العلماء الأمريكان من هذه الحقيقة (علماء الخلايا فى لا جولا وسان دييجو بكاليفورنيا) طالبوا السلطات الفيدرالية بتمويل أبحاث لتنشئة ونمو الخلايا الجذعية الجنينية على منصات غير بيولوجية. لكن السلطات هناك أصمت آذانها ولم تزد على أن رددت ــ على لسان رئيسها جورج بوش الابن، ما دأبت على ترديده قديما «لا دعم فيدرالى لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية إلا لتلك التى قامت قبل التاسع من أغسطس ٢٠٠١». وقد استغل كل من المرشحين الرئيسيين فى انتخابات الرئاسة الأمريكية قضية الخلايا الجذعية فى مناوراتهما الانتخابية: بوش والجمهوريون ينادون بتقييد وعدم دعم البحوث فى مجال الخلايا الجذعية الجنينية، وكيرى والديمقراطيون يقولون بعكس ذلك. وباستمرار بوش فى البيت الأبيض أربع سنوات أخرى استمرت القيود على الدعم الفيدرالى لبحوث الخلايا الجذعية الجنينية.

وتتعرض سياسة جورج بوش حاليا لهجوم متزايد من الديمقراطيين وقد انضم إليهم بعض الجمهوريين من رجال الكونجرس ومجلس الشيوخ. ويعتقد الكثيرون أن الأمر لا يتعلق من قريب أو بعيد بالأخلاقيات أو التدين، لكنها الحسابات السياسية. يقول رون ريجان، ابن الرئيس الأمريكى الجمهورى الأسبق فى حديث لمجلة نيو سايِنتست New Scientist يوليو ٢٠٠٤م «إن صناع السياسة فى البيت الأبيض لا يضيعون وقتهم فى مناقشة الجوانب الأخلاقية للقضايا العلمية الراهنة، وهم يخضعونها فقط لحساباتهم السياسية، الأمر الذى لا بد أن يثير غضب الأغلبية الصامتة». وتظهر سياسة الرئيس جورج بوش تضاربا أخلاقيا غريبا، فهو يحجب الدعم الفيدرالى عن بحوث الخلايا الجذعية الجنينية من ناحية لكنه من ناحية أخرى يتباهى بازدهار البحث العلمى فى القطاع الخاص (ومنها بحوث تتعلق بالخلايا الجذعية)، وهو يعلم تماما أن الدعم الفيدرالى هو وحده القادر على دفع هذه البحوث للأمام نظرا لإحجام القطاع الخاص عن المجازفة بأموال بحجم ما هو مطلوب فى بحوث الخلايا الجذعية. وهو لا يقدم الدعم إلا لبحوث تعتبر عقيمة لدرجة كبيرة ولا يرجى منها فائدة للإنسان.

ولسوء حظ الرئيس بوش فإن بعض مؤيديه السابقين قد بدأوا يتخلون عنه ويشككون فى جدوى عناد السياسة الأمريكية فى قضية الخلايا الجذعية الجنينية: فيقول السناتور الجمهورى عن ولاية «يوتا»، المورمانى المذهب وهو أحد المذاهب التى كانت تبيح تعدد الزوجات ثم تخلت عن ذلك، وهو يحرم الإجهاض، أورين هاتش Orrin Hatch «لقد أنفقت الساعات التى لا تعد ولا تحصى فى البحث وفى دراسة انعكاسات الموضوع على الناس، وأمضيت مثل هذه الساعات فى الصلاة، وتوصلت فى النهاية إلى أننى إذا كنت من «أنصار الحياة» فإن ذلك يعنى أن أساعد الأحياء.....وأنا واثق أنه من الممكن أن أكون معارضا للإجهاض وفى نفس الوقت مؤيدا لأبحاث الخلايا الجذعية الجنينية». وتوضح تصريحات السناتور هاتش أن مناصرة الحياة ليست أمرا جامدا لا يقبل التطور. وفى نفس الوقت يعلن عضو الكونجرس الجمهورى فيرنون إيثلرز Vernon Ethlers تأييده لدعم بحوث الخلايا الجذعية الجنينية «إذا ثبت أنها هى فقط القادرة على علاج الأمراض المستعصية وليست أية خلايا جذعية أخرى.... وأتوقع أن يتغير المناخ

أين من التاريخ من سحلوا مـــارى الســكندرية وهـى من أوائل مــــن قــــال بكـــروية الأرض ودورانهـــا حـــول الشـمس؟

المناوئ للخلايا الجذعية الجنينية مع الزمن».

النظافة من سنغافورة

تمكن فريق من العلماء من الجامعة الوطنية بسنغافورة بقيادة عريف بونجسو Ariff Bongso من تنشئة خلايا جذعية جنينية نظيفة لا تتضمن المجازفة بنقل الأمراض من الحيوانات إلى الإنسان، وهو انتصار مدوٍّ. فحتى يومنا هذا كانت خلايا الفئران هى المنصة أو الوسيط الذى تنشأ عليه الخلايا الجذعية فى وجود سوائل حيوية مستخلصة من الأبقار (بلازما الدم مثلا). وهى عملية ضرورية لانقسام الخلايا الجذعية الجنينية إلى مثيلاتها. تمكن فريق عريف بونجسو من استخدام خلايا من العضلات البشرية مأخوذة من أجنة مع سائل حيوى بشرى لتنشئة الخلايا الجذعية بعد فحص خلايا العضلات والسائل الحيوى فحصا دقيقا بحثا عن فيروسى HIV-1 & HIV-2 وفيروس B الكبدى. ويركز فريق عريف بونجسو الآن على إمكانية استخدام خلايا عضلات وسوائل حيوية بشرية من البالغين بدلا من الأجنة، متعاونين مع منظمة FDA (منظمة الغذاء والدواء) الأمريكية، الأمر الذى سيجنبهم مشاكل أخلاقية عديدة وجدالا مرهقا.

مازالت هناك عقبات كثيرة تواجه التطبيق المتوقع والمأمول للخلايا الجذعية سواء كانت جنينية أم بالغة، وهى عقبات بعضها خارج عن إرادتنا. لا سلطان لنا عليه حتى الآن مثل تكون الأورام السرطانية واكتشاف مفاتيح تنشيط الخلايا الجذعية. وبعضها من صنع أيدينا ونتاج أفكارنا واجتهاداتنا. ويتضمن النوع الأخير العقبات التى يطلق عليها «أخلاقية» والعقبات التشريعية. وأعتقد أن إصدار تشريعات مناسبة لدفع وتنشيط بحوث الخلايا الجذعية لن يقتصر على بريطانيا فقط بل سيتحقق بالتدريج أو على طفرات، فهناك اتصالات عديدة تجرى فى السر وفى العلن بين HFEA البريطانية وعلماء ومسئولين من كل من كندا واليابان وتايوان... والبقية تأتى. أما الولايات المتحدة فلا يوجد بها أى ترتيب لهذه الأمور فيما عدا القرار السياسى للرئيس بوش بحجب الدعم الفيدرالى عن بحوث الخلايا الجذعية الجنينية. فهل يشهد عام ٢٠٠٥ تقدما. ولو على المستوى التشريعى. فيما يتعلق بهذا الموضوع فلا نرى تعارضا بين معظم الدول حول تقنية «الاستنساخ من أجل الحصول على خلايا جذعية جنينية» الواعدة بأن تكون الدواء لكل ما استعصى من الأمراض حتى الآن؟

الخلاصة...من الماضى إلى المستقبل

يأمل العلماء ويتأمل ويفكر الفلاسفة، أما رجال السياسة والاقتصاد فيعكفون على حساباتهم، بينما يتخوف رجال الدين ويتشنج البعض منهم محرمين ما يأتى به «الشيطان». فى رأى الكنيسة الكاثوليكية. لكن التاريخ علمنا أنه لا شىء يقف فى طريقه أبدا. قد يتعثر أحيانا بل قد يتراجع خطوة للوراء ليندفع بعدها بقوة أشد للأمام، متغلبا على كل من يقف أمامه. فأين من التاريخ من سحلوا مارى السكندرية وهى من أوائل من قال بكروية الأرض ودورانها حول الشمس، عاشت وعملت فى مكتبة الإسكندرية القديمة، وأعدموا كوبرنيكوس ثم اعتذروا أخيرا لذكرى جاليليو وأحرقوا أول من حاول طباعة الإنجيل قبل عصر النهضة وحاربوا الآلة البخارية وعدوها وبالا على الإنسان؟!. أين من خوفونا من الكهرباء والكمبيوتر وتندروا على ماركونى «الذى اخترع لعبة يتناجى بها الأطفال». يقصدون الراديو؟! أين من حرموا التشريح ونقل الأعضاء؟! إنهم خارج التاريخ الذى أزاحهم من طريقه جانبا، ليبقى التقدم والتقدم أبدا نبراسا هاديا للبشرية. ◼

كتاب الزاوية

يحيى حقى

كناسة الدكان

نقلت من جدة إلى استامبول سنة ١٩٣٠. وهناك أتيح لى أن أرقب من قرب تلك التجربة الخطيرة التى قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرقية إسلامية إلى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة، وقد قرأت عن مصطفى كمال كثيراً والتقيت به أكثر من مرة وربما أتيح لى أن أكتب عنه يوماً.

وفى استامبول ارتديت القبعة لأول مرة. وتعلمت أن للقبعات علمًا وأصولاً، وأن ما يصلح للنهار أو الرحلات لا يصلح للمساء أو السهرة، وأن لكل زى القبعة التى تتناسب معه واضطررت - بحكم الوظيفة - إلى شراء ستة أنواع مختلفة من القبعات بالإضافة إلى الطربوش.

وبذهابى إلى تركيا، عدت إلى الأرض التى هاجر منها جدى وعثرت هناك على أقرباء لنا سكنت عندهم. كما تعلمت التركية على كبر وأتقنتها.. فلم تكن اللغة التركية تستخدم فى بيتنا إلا للسباب فى لحظات الغضب.. كل ما تعلمته منها فى مصر لا يزيد على كلمات مثل: أدب سيس، خرسيس، سكتر بره.

وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها فى تركيا نقلت إلى روما. فانتقلت من ديكتاتورية أتاتورك إلى فاشستية موسولينى، وكما تعلمت التركية تعلمت الإيطالية، وأقبلت على الأدب الإيطالى أغترف منه.

فى تلك السنوات بدأ اتصالى المباشر بالحضارة الأوروبية، وأخذت موقف التلميذ فى الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح.

ثلث سكان الكرة الأرضية..

عبر التجارة وليس الدين بدأت العلاقات بين الهند والصين ومن شأن فهم أفضل لتاريخ العلاقات بين أكبر دولتين من حيث السكان في العالم أن ينعكس إيجابياً على مجمل القضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة

أمارتيا سين

بوابة التاريخ الواسعة

[١]

للروابط الفكرية بين الصين والهند، والممتدة عبر أكثر من ألفي سنة، تأثيرات عميقة في تاريخ البلدين، لكنها لا تُستحضر اليوم إلا نادراً. ولا تحظى سوى بملاحظة عابرة من كُتّاب تنصب اهتماماتهم على تاريخ الأديان وخاصة الديانة البوذية التي بدأ انتشارها من الهند إلى الصين في القرن الأول وأصبحت قوة مسيطرة على نطاق واسع إلى أن حلت محلها «الكونفوشية» Confucianism و«الطاوية» Taoism بعد ما يقرب من ألف عام. هذا الربط «الديني» ليس إلا أحد عناصر قصة أكبر هي قصة العلاقات الهند - صينية خلال الألفية الميلادية الأولى. وهناك حاجة ملحة إلى فهم أوسع لهذه العلاقة. ليس لأن هذا الفهم الأوسع يسمح باستيعاب أفضل لتاريخ ثلث سكان الكرة الأرضية، وحسب. بل لأن أهمية العلاقات بين الصين والهند تنعكس بشكل جلي على مجمل القضايا السياسية والاجتماعية المعاصرة.

ولا شك أن الديانة كانت رافداً رئيسياً في التواصل بين البلدين، وإن البوذية شكلت بؤرة لحركة الناس والأفكار، لكن التأثير الأوسع تجاوز «الديانة» وامتد في جوانبه العلمانية، إلى العلوم والرياضيات والأدب واللغات والعمار والطب والموسيقى. ويتبين لنا من تفاصيل إفادات دونها عدد من الرحالة الصينيين إلى الهند، مثل Foxian في القرن الخامس وXuanzang و Yijing في القرن السابع(١) أن اهتمام الباحثين لم يكن مقصوراً على الديانة، بأي حال، سواء كنظرية أو ممارسات (كطقوس). الأمر نفسه نلمسه عند رصد إفادات الباحثين الهنود الذين زاروا الصين، وخاصة في القرنين السابع والثامن، والبعثات الهندية التي ضمت تخصصات متنوعة مثل علماء الفلك والرياضيات إلى جانب علماء الأديان. وفي القرن الثامن أصبح العالم الفلكي الهندي Gautama Siddahartha رئيساً لمجلس الفلك في الصين. يعاني هذا الزخم، والتنوع، في الروابط الفكرية المبكرة بين الصين والهند، من تعتيم ساد طويلاً ويتقوى بفعل نزعة معاصرة تصنف التعداد السكاني العالمي إلى «حضارات» متمايزة تُعرف - غالباً - بالديانة (مثال ذلك تقسيم صمويل هنتنجتون S. Huntington للعالم إلى تصنيفات مثل «حضارة غربية»، «حضارة إسلامية» و«حضارة هندوسية»). وتوجد - كنتيجة - رغبة عارمة لفهم البشر من خلال المعتقد الديني في المقام الأول، حتى وإن افتقد هذا المعتقد الكثير الهام لفهم هؤلاء البشر. لقد ألحقت محدودية هذه الرؤية الكثير من الضرر بطبيعة فهمنا للوجوه الأخرى لتاريخ المعتقدات في الكرة الأرضية. الكثير الآن عرضة لأن يرى تاريخ المسلمين كأنه تاريخ إسلامي خالص متجاهلاً بذلك الازدهار الذي حققته النخب الإسلامية في العلوم والرياضيات والأدب، وخاصة فيما بين القرن الثامن والقرن الثالث عشر الميلاديين. إحدى نتائج مثل هذا التأطير الضيق تتجسد في أن الناشط العربي الساخط يشجع على أن يستمد كبرياءه من الدين فقط وليس من تنوع وثراء التاريخ العربي. في الهند أيضاً هناك محاولات متتابعة لتصوير حضارة عريضة في الهند باعتبارها «حضارة هندوسية». وتفعيل هذا المصطلح المفضل عند Huntington وأتباع نظريته داخل أروقة السياسة الهندية.

هناك تناقض، غريب ولافت بين الأساليب التي يتشكل من خلالها الفهم المعاصر للأفكار والمعرفة الثقافية والعلمية الغربية وغير الغربية. عند ترجمة أعمال غير غربية يميل العديد من المعلقين إلى إسباغ الكثير من الأهمية على الدين متجاهلاً الاهتمامات «العلمانية» لهذه الأعمال. هناك قلة تفترض أن إنجازات إسحاق نيوتن - مثلاً - يجب أن تفهم، في المقام الأول، باعتبارها مسيحية (رغم أن له - بالفعل - معتقدات مسيحية)؛ ولا يمكن لمعظمنا أن يسلم - كلية - بأن إسهامات نيوتن في المعرفة العلمية يجب أن تفسر، بطريقة ما، في ضوء اهتمامه العميق بالتصوف (وربما تكمن أهمية التأمل الصوفي عند نيوتن في تشكيل الحافز وراء بعض أعماله). على النقيض، وعندما يتعلق الأمر بثقافات غير غربية تتجه «اختزالية الدين»(٢) إلى أن يصبح قوة فعالة. يفترض الباحثون - عادة - أن لا أحد من المبدعين على نطاق واسع في دراسة بوذا واتباع ممارسة مبادئ هذا المعتقد، يمكن له أن يفهم - بشكل صحيح - إلا في ضوء خاص من معتقداته وعاداته الدينية.

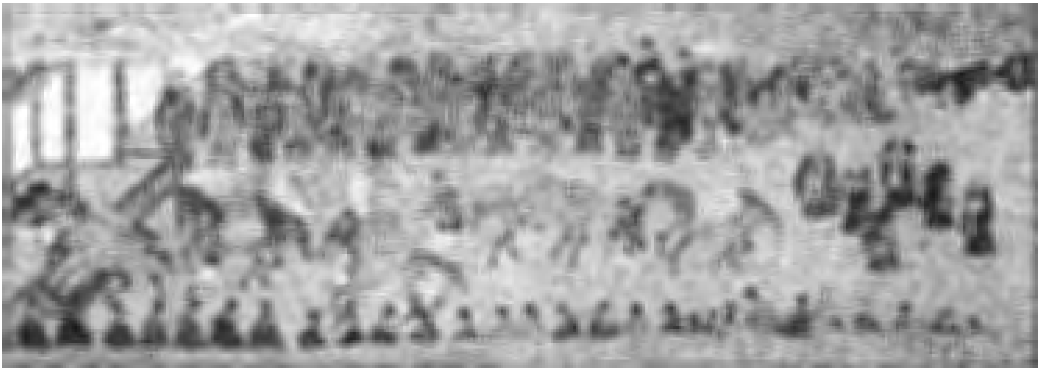
المتفق عليه أن العلاقات بين الصين والهند تكاد تكون بدأت - بالفعل - عبر التجارة وليس عبر البوذية. ونلمس، منذ حوالي الألفي سنة الماضية، تأثيراً واضحاً لكل جديد قادم من الصين على عادات الهند الاستهلاكية، وخاصة بين الأثرياء منها. هناك دراسة للباحث السنسكريتي الكبير «كوتيليا» Kautilya، في الاقتصاد والسياسة، كتبها للمرة الأولى في القرن الرابع قبل الميلاد وروجعت بعد عدة قرون لاحقة، وهي دراسة تعطي أهمية خاصة لـ«الحرير والملابس الحريرية من أرض الصين»، ضمن «سلع نفيسة» ولوازم عالية القيمة». وتوجد إشارات في الملحمة الهندية القديمة «ماهابهارتا» Mahabharta إلى أثواب الحرير الصيني أو حرير «شينامسوكا» Cinamsuka المقدم هدايا. وهناك إشارات مماثلة في مخطوطات القوانين القديمة.

لقد صورت العديد من الأعمال الأدبية في اللغة السنسكريتية القديمة في عصر مبكر من الألفية الأولى، طبيعة المنتجات الصينية المجلوبة. وفي مسرحية Sakuntala التي كتبها Kalidasa (الدراما الشعرية الأفضل في الأدب السنسكريتي القديم)، نرى ملك Dusyanta وقد التقى الفتاة الناسكة وهو في رحلة صيد فشغف بها وأخذ بسحر جمالها فراح، وقت رقت مشاعره يقارن حاله بحال راية من الحرير الصيني يتلاعب بها الهواء «يدفعني الجسد إلى الأمام، ويشدني العقل إلى الخلف، كحرير صيني فوق سارية تهزه الرياح» ويبدع Bana، في مسرحيته Harsacarta التي كتبها في القرن السابع، وهو يصور الفتاة الجميلة Rajyasri متألقة يوم عرسها ترتدي ثوباً من الحرير الصيني، كذلك تضمن الأدب السنسكريتي، في الفترة نفسها، إشارات كثيرة إلى منتجات صينية أخرى. شقت طريقها إلى أسواق الهند، من بينها الكافور والزُّنجفر والجلود عالية الجودة. جنباً إلى جنب مع فواكه شهية مثل ثمار الكمثرى والخوخ.

وفي الوقت الذي راحت فيه الصين

بترتيب مع:
The New York Review of Books
عدد ديسمبر ٢٠٠٤

ترجمة: جمال إسماعيل



بين الهند والصين

تُثري عالم المادة في الهند. خلال الألفي سنة الماضية، كانت الهند تصدر إليها البوذية منذ القرن الأول الميلادي، عندما وجه الإمبراطور Mingdi، من أسرة Han الحاكمة، دعوة لزيارة الصين إلى الراهبين الهنديين Dharmaraska وKasyapa Mantanga من وقتها، وإلى حلول القرن الحادي عشر، تدفق إلى الصين المزيد والمزيد من الباحثين والرهبان الهنود. وقام مئات المترجمين بترجمة آلاف الوثائق السنسكريتية، ومعظمها حول البوذية، إلى اللغة الصينية. واقترنت حركة الترجمة بسرعة مدهشة لكن تدفقها وصل إلى نقطة التباطؤ نهاية القرن الحادي عشر، ورغم ذلك شهدت الفترة ما بين ٩٨٢ و ١٠١١، بعد الميلاد، ترجمة أكثر من مائتي مجلد أخرى من السنسكريتية إلى اللغة الصينية.

يتصدر Faxian قائمة الباحثين الذين سجلوا إفادات ضافية عن زياراتهم إلى الهند. وهو أول دارس للبوذية نشأ في غرب الصين وأخذ على عاتقه تحقيق النصوص السنسكريتية بنية ترجمتها إلى اللغة الصينية.

وصل Faxian إلى الهند عام ٤٠١ بعد رحلة شاقة سلك خلالها الطريق الشمالية وعبر إقليم Khatau (الذي سادته البوذية بشكل ملحوظ). مكث Faxian في الهند عشر سنوات مرتحلاً يجمع الوثائق (التي سيقوم بترجمتها فيما بعد). وفي عودته إلى الصين، عن طريق البحر (من منطقة ليست بعيدة عما يعرف اليوم بـ «كلكتا») وتوجه إلى سريلانكا البوذية كي يلتقي والراهب الهندي Java. كانت سجلات Faxian عن «مملكة البوذية» إفادة فائقة الإضاءة عن الهند وسريلانكا، وقد كرس حياته لدراسة نصوص اللغة السنسكريتية وآدابها، إضافة إلى النصوص الدينية، وكانت له أيضا اهتمامات واضحة، سيأتي ذكرها، بالنظم السائدة في الهند على صعيد الرعاية الصحية العامة.

أما أشهر باحث صيني زار الهند وحرص أيضا على جمع النصوص السنسكريتية وترجم معظمها عند عودته إلى الصين فهو Xuanzang الذي أمضى في الهند ١٦ عاماً منها سنوات التحق فيها بمعهد Nalanda، أهم معاهد التعليم العالي آنذاك، بالقرب من Patna المدينة العاصمة، حيث عكف على دراسة الطب، الفلسفة، المنطق، الرياضيات، الفلك، وقواعد اللغة، بالإضافة إلى البوذية. وعند عودته إلى الصين احتفى به الإمبراطور واستقبله استقبالاً مبهجاً[1]. وعقب عودة Xuanzang بفترة قصيرة غادر الباحث Yijing الصين متوجهاً إلى الهند والتحق - هو أيضاً - بمعهد Nalanda جامعاً في أبحاثه ما بين البوذية ودراسات عن الطب ونظم الرعاية الصحية العامة.

من بين الأعمال البوذية التي ترجمها Yijing، بعض نصوص عن أتباع «البوقية» Tantrism[**] التي تشدد تقاليدها على ضرورة إعمال التأمل. وساد هذا النوع من البوذية الصين خلال القرنين السابع والثامن. وكان للعديد من دارسيه اهتمامات قوية بالرياضيات (ربما لارتباط ممارسة العقيدة بالأرقام الحسابية)، الأمر الذي انعكس على علوم الرياضيات بشكل عام. ويلاحظ Joseph Needham[2] أبرز من اعتنق هذا النوع من البوذية هو Yixing (٦٧٢-٧١٧)، وكان أكثر علماء عصره، في الصين نباهة، في علوم الفلك والرياضيات. كان Yixing يجيد اللغة السنسكريتية، ومن العارفين بالأدب الهندي، وعالم رياضيات، وكان أيضاً راهباً بوذياً لكن من الخطأ افتراض أن إنجازاته في علم الرياضيات كانت بطريقة ما، دينية المنحى. فهو عالم رياضيات تصادف أن يكون بوذي العقيدة، تعامل مع مشكلات تحليلية وحسابية متنوعة لم يكن للكثير منها علاقة محددة بالعقيدة. لقد عالج معضلات قديمة مثل «حساب العدد الإجمالي للمواقف المحتملة في لعبة الشطرنج» كما كان مهتماً بالحسابات التقويمية «الروزنامية»، حتى أنه وضع، بتكليف من الإمبراطور، تقويماً جديداً للصين.

من جانبهم، حرص علماء الفلك الهنود الذين عاشوا في الصين خلال القرن الثامن، على دراسة الحسابات الروزنامية مستفيدين من التطورات في علم المثلثات في الهند. كان ذلك أيضاً في الوقت الذي تأثرت فيه علوم الفلك والرياضيات، بما في ذلك علم المثلثات الهندي، بالتطور الحاصل في هذه العلوم في العالم العربي، عبر ترجمات إلى الهندية، من اللغة العربية، قام بها العديد من الباحثين ومن بينهم Aryabhata و Varahmihira وBrahmagupta وآخرون.

وتظهر السجلات الصينية أن العديد من الفلكيين وعلماء الرياضيات من الهند، احتلوا مواقع رفيعة المستوى في مجالس الفلك في العاصمة الصينية ولا يقتصر الأمر على أن واحداً منهم أصبح رئيساً لمجلس الفلك الصيني «Gautama Siddhartha»، لكنه أعد أيضاً الموجز الصيني الكبير للفلكي Kaiyvan Zhanjing، أحد علماء القرن الثامن الذي اقتبس أهم أبحاث الفلك الهندية وقام بنشرها في الصين، من بينها دراسة تسبر أغوار الكوكب السيار المتحكم في التقويم الهندي، للفلكي Jiuzhili. وتستند إلى نص قديم باللغة السنسكريتية حققه عالم الرياضيات Varahamihira حوالي عام ٥٥٠ الميلادي. وتعد هذه الدراسة دليلاً حسابياً للعد والتقدير لقياسات أخرى من بينها، على سبيل المثال، أمد الخسوف ومدى قطر دائرة القمر. وتستند التقنية المستخدمة إلى أسس وضعها Aryabhata أواخر القرن الخامس وقام تلاميذه - فيما بعد - بتطويرها. وكان من بينهم Varahamihira وBrahmagupta.

ويصف عالم الفلك الصيني Yang Jingfeng، نماذج الخلفية العلمية للمسئولين الصينيين عن الفلك فيقول: «أمام الذين يريدون معرفة مواقع النجوم التي يسير وفقها التقويم الهندي خبراء ثلاث عشائر لهذا التقويم: Kumara، Gautama، Kasyapa جميعهم تولوا إدارة مجلس الفلك في الصين. لكن الاستفادة القصوى تحصل الآن من طرق التقويم الخاصة بالمعلم Gautama وعمله الفني العظيم، الذي أنجزه للحكومة».

لم يذهب الفلكيون الهنود، أمثال كاسيابا وجوتاما وكومار، إلى الصين إلا في إطار الروابط التي أوجدتها البوذية. لكن من الصعب النظر إلى إنجازاتهم كإسهامات في البوذية في المقام الأول.

يحفل أدب الثقافات والحضارات بمناقشات كثيرة تدور حول «عزلة» الصين والادعاء بنزوعها إلى الشك والريبة في النظر إلى الأفكار القادمة من خارجها. هذا الادعاء هو السائد حالياً في محاولة لتفسير مقاومة الصين للسياسات الديمقراطية. لكن هذا التبسيط في التفسير لا يقدم شرحاً لأسباب إقدام الصين على احتضان آليات اقتصاد السوق في الداخل والخارج وإقدامها، منذ عام ١٩٧٩ إلى



قلعة سكان الكرة الأرضية..

اتخاذ إجراءات حاسمة فى الإصلاح الاقتصادى، بينما يقاوم قادتها - بحزم - الديمقراطية السياسية. والحقيقة أن الصين لم تكن معزولة ثقافياً. هنا تصبح لعلاقات الصين مع الهند أهمية محددة. إن الهند هى الدولة الوحيدة، فى العالم الخارجى، التى قصدها الباحثون من الصين القديمة سعياً وراء التعليم واكتساب المهارات؛ لدينا سجلات لأكثر من مائتين من الباحثين الصينيين المتميزين الذين أمضوا فترات مكثفة من الوقت فى الهند. خلال النصف الثانى من الألفية الأولى، سعى الصينيون - فى المقام الأول - إلى تحصيل المعرفة الخاصة بآداب اللغة السنسكريتية، والديانة البوذية، والكثير غيرهما. وانعكست التأثيرات الهندية فى استخدامهم لتعابير ومفاهيم رئيسية مستقاة من اللغة السنسكريتية. مثال ذلك ما نراه فى بعض مفردات وأسماء ومفاهيم التأمل، وفى مشاهد من مسرحيات أوبرالية صينية مستمدة من حكايات سنسكريتية، مثل «فتاة السماء تنثر الأزهار»[4]. كما بين الباحث الأمريكى John Kieschick تأثر طرز المعابد والجسور فى الصين بالمعمار الهندى[5].

هكذا سارت حركة المعرفة بين الصين والهند فى اتجاهين. لكن Needham حاول تقديم قائمة حساب بالأفكار التى بزغت فى الصين وانتقلت إلى الهند، وذهب إلى أن الأفكار الصينية التى شقت طريقها إلى الهند أكثر بكثير من تلك التى سلكت الاتجاه المعاكس، ويقول: «كانت الهند هى الأكثر استيعاباً للثقافتين». وهذا افتراض يزعم أن الفكرة تنسب إلى المكان الذى يوجد به أول تسجيل لاستخدامها، فى غياب الدليل المباشر لحركة فكرة بعينها فى أى اتجاه من الاتجاهين بين الصين والهند. لقد نال هذا الافتراض انتقادات قوية من مؤرخين للعلوم والرياضيات مثل Jean Claude Martzloff. ويبدو واضحاً أن سجلاً مبكراً للأفكار المستخدمة ربما يكون فقد فى الهند، وليس الصين. ويبقى الأمر المهم وهو أن ذلك الزخم من الأفكار، فى الرياضيات والعلوم والكثير من الموضوعات غير الدينية، قد تحرك فى الاتجاهين.

يحتل انتقال أفكار ومهارات العلوم والرياضيات مكانة المركز فى حركة التجارة العالمية المعاصرة سواء على صعيد تنمية تكنولوجيا المعلومات أو أساليب الصناعة الحديثة. والأمر الذى ربما يكون أقل وضوحاً هو كيف يمكن للأمم أن تتعلم من بعضها البعض فى توسيع الاتصالات الجماهيرية وفى تحسين رعاية الصحة العامة. والحاصل أن المحوريين كانت لهما أهمية فى العلاقات الفكرية بين الصين والهند فى الألفية الأولى، وهى أهمية لا تزال قائمة إلى اليوم.

بدأت البوذية، كديانة، بخاصيتين محددتين غير عاديتين: اللاإيقينية، والالتزام بالحوار الواسع للقضايا الجماهيرية. بعض أقدم الحوارات الجماهيرية كان هدفها المحدد - حسب ما جاء فى السجلات - تسوية نزاعات حول معتقدات دينية، بالإضافة إلى قضايا أخرى فى الهند. كانت المناقشات تجرى داخل مجلس البوذية ويدور السجال بين أنصار وجهات النظر حول نقاط الاختلاف. وأول مجلس موسع من هذا النوع عقد فى Rajagriha عقب وفاة Gautama Buddha منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة مضت. أما أضخم هذه المجالس فكان ثالثهم وعقد فى Patna المدينة العاصمة، تحت رعاية الإمبراطور Ashoka فى القرن الثالث قبل الميلاد. حاول Ashoka أيضاً وضع قواعد مبكرة حاكمة للنقاش الجماهيرى. وطالب فى مدونة بهذا الشأن بـ «ضرورة الانضباط فى الخطاب حتى لا تكون هناك إطالة فى إطراء أو مديح لفريق بعينه، أو استخفاف بفرق أخرى فى مناسبات غير ملائمة. كما يجب أن يكون الخطاب معتدلاً فى كل المناسبات. وأن تنال الفرق كامل الاحترام حتى وإن احتدم النقاش والانشغال». إن أصداء النقاش الجماهيرى هى صميم الديمقراطية. ونستطيع تتبع أصول هذه الديمقراطية فى قسم من تقاليد النقاش الجماهيرى الذى لاقى التشجيع بفعل تعاليم البوذية فى الهند والصين (وكذلك فى اليابان وكوريا وأماكن أخرى). واللافت أيضاً أن البوذية أخذت على عاتقها معظم محاولات الطباعة المبكرة فى الصين، كوريا، اليابان[6]. وأول كتاب طبع فى العالم (أو - بالأحرى - أول كتاب طبع ويحمل تاريخ طباعته) كان ترجمة صينية لأطروحة هندية عن الأدب السنسكريتى وصدر فى الصين عام ٨٦٨ الميلادى بعنوان «الحكمة الماسية» Diamond Sutra ويعد وثيقة دينية خالصة وكان الإهداء المكتوب عليه «بالنمط العريض» نص على توزيع الكتاب دون مقابل مادى فى إشارة واضحة إلى الالتزام بتعليم الجماهير. وقد لاحظ John Kieschlick أن أحد أسباب اكتساب الكتاب لهذه الأهمية فى تقاليد البوذية الصينية يكمن فى الإيمان بأن فضيلة الإنسان تتجلى فى نسخه أو طباعته لكتاب بوذى. وافترض Kieschlick أن أصول هذا الاعتقاد يمكن تتبعها إلى الهند. وهناك بعض خلفية لوجهة النظر هذه. كما أن هناك صلة أكيدة بين الاهتمام بضرورة الاتصال بجمهور عريض وفكر قيادات بوذية مثل الإمبراطور Ashoka الذى لجأ إلى الأقراص الحجرية الكبيرة، المنقوش عليها «مزايا السلوك الجيد وقواعد إدارة الحوار» ونشرها عبر الهند كى تطلع عليها الجماهير.

لقد حقق تطور الطباعة دفعة قوية فى تنمية الديمقراطية لكنه، فى مداه القصير، فتح أيضاً إمكانات جديدة فى الاتصال الجماهيرى، وكان لهذا التطور انعكاساته على الحياة الاجتماعية والسياسية فى الصين، وتأثيراته فى نشر تعاليم الكونفوشية الجديدة. ولاحظ Theodore de Barry أن «تعليم النساء حقق مستوى جديداً من الأهمية (فى عصر الإمبراطور Song) وأن امتدادات تعاليمه الكونفوشية الجديدة إلى «إقليم» Ming اقترنت بالانتشار الواسع للطباعة ومعرفة القراءة والكتابة والتعليم.

لا أحد يعرف إلا القليل عن العلاقات بين الهند والصين، فى مجال رعاية الصحة العامة، رغم تميز هذه العلاقات. ومنذ وصوله إلى الهند، عام ٤٠١ الميلادى، أبدى Faxian اهتماماً واضحاً بنظم الرعاية الصحية السائدة، كما أبدى تقريراً ملموساً للتسهيلات المدنية الخاصة بالرعاية الصحية فى مدينة Patna خلال القرن الخامس: «كل فقير وعاطل فى البلاد، وكل من يصاب بمرض، يذهب إلى مساكن مخصصة حيث تقدم إليه كل أنواع المساعدة ويفحصه الأطباء ويجد الغذاء والدواء، حسب متطلبات حالته. وعندما يشعر بالتحسن يغادر من تلقاء نفسه».

وسواء حمل هذا الوصف بعض المبالغة، أو لم يحمل، يظل اللافت هنا، وبشدة، هو رغبة Faxian فى الإلمام بطبيعة التدابير المتخذة فى مجال الرعاية الصحية العامة، فى البلد الذى زاره لعقد من الزمان.

بعد ذلك بقرنين ونصف القرن أصبح Yijing مهتماً بالصحة العامة، وكرس من أجلها ثلاثة فصول من كتابه عن الهند. كان أكثر إعجاباً بالممارسة فى الرعاية الصحية، وليس بالمعرفة الطبية ذاتها؛ لكنه أعطى الهند فضل اكتشاف بعض العلاجات الطبية، وفى الصدارة منها علاجات تسكين الألم وإراحة المريض (مثل استخدام الجبة «نوع من الزبدة» الزيت، العسل، أو شراب يزيل أعراض البرد «الرشح أو الزكام»)، وإن كان قد خلص إلى أن «لا يوجد فى الهند من تفوق على الصين فى فنون التداوى بالإبر والكى ومهارات جس النبض» أو «أدوية إطالة أمد العمر لم توجد إلا فى الصين». وعلى الجانب الآخر، كتب يقول: «كان هناك الكثير الواجب تعلمه من الهند عن الرعاية الصحية. هم يستخدمون - مثلاً - القماش الأبيض الجيد فى تصفية وترشيح المياه، وفى الصين يجب استخدام أجود أنواع الحرير. إننا نأكل الأسماك والخضروات دون طهى فى معظم الأحيان، ولا يوجد فى الهند من يقدم على ذلك».

عاد Yijing إلى بلاده فخوراً بأصوله الصينية متسائلاً ببلاغة: هل يوجد فى كل أقاليم الهند من لا يعجب بالصين؟ وبقيت له وجهة نظر فى تقييم ما يمكن للصين أن تتعلمه من الهند.

وتعد قضية الصحة العامة واحدة من القضايا التى تستطيع دولة ما أن تتعامل معها فى ضوء خبرة دولة أخرى. ويجب أن يكون واضحاً أن الهند اليوم أمامها الكثير الذى يمكن أن تستفيد به من الصين. لقد ظل متوسط الأعمار، ولعقود كثيرة، أعلى فى الصين عن متوسط الأعمار فى الهند. وتحمل محاولات الارتقاء بمتوسط الأعمار فى البلدين قصة أكثر تشويقاً؛ كان للصين الماوية، بعد الثورة، انطلاقة مبكرة فى نشر الرعاية الصحية، ولم يكن لها ما يناظرها - فى ذلك الوقت - فى الهند.

مع مجىء عام ١٩٧٩، وعندما أعلن، للمرة الأولى، عن إصلاحات Deng Xiaoping الاقتصادية، كان متوسط الأعمار الصينى يزيد عن الهندى، بأربعة عشر عاماً. ثم، وبعد إصلاحات عام ١٩٧٩، انطلق الاقتصاد الصينى محققاً معدلات نمو فاقت معدلات نمو اقتصاد الهند. ورغم هذا النمو الاقتصادى السريع، ارتفع معدل الزيادة فى متوسط الأعمار فى الهند؛ ومنذ عام ١٩٧٩، إلى حوالى ثلاثة أضعاف سرعة الزيادة فى الصين، والآن توجد فجوة، تحسب للصين، حيث يبلغ متوسط العمر حوالى



قطعة من التماثيل المكتشفة الأثرية.

٧١ عامًا، بعد أن كان ٤٠ عامًا في عام ١٩٧٩.

ولاية هندية واحدة، هي كيرالا Kerala البالغ تعداد سكانها ٣٠ مليون نسمة، وتعد بذلك أكبر من دول كثيرة، وحققت نجاحًا متميزًا كنموذج هندي لديمقراطية متعددة الأحزاب (تشمل المداولات العامة والمشاركة الشعبية)، وأدخلت، بمبادرات من الولاية، تحسينات في مجال الصحة العامة، شبيهة بتلك التي قامت بها الصين بعد الثورة(٧). وتكشف مزايا هذا النموذج عن نفسها ليس - فقط - في أن متوسط الأعمار في Kerala، وبعض ولايات الهند، يفوق متوسط الأعمار الصيني البالغ ٧١ عامًا، بل في العديد من المجالات الأخرى. إن نسبة النساء إلى الرجال في إجمالي عدد السكان تبلغ في الصين ٠,٩٤٪، وفي الهند - بشكل عام - ٠,٩٣٪ لكن هذه النسبة في كيرالا وحدها ترتفع إلى ١,٠٦٪ متساوية بذلك مع نسبة النساء إلى الرجال في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية. تعكس هذه النسبة مزايا معيشية للنساء، تضعهن في أوضاع سوية، ومساواة. كان انخفاض معدل الإخصاب في كيرالا أسرع من مثيله في الصين، رغم فرضها لسياسات تحديد النسل. ووقت بداية الإصلاحات الصينية عام ١٩٧٩ كان متوسط الأعمار في كيرالا أقل بفارق ضئيل من مثيله في الصين؛ لكنه حقق، ما بين ١٩٩٥ و٢٠٠٠ (الفترة التي لها إحصاءات هندية حاسمة)؛ ارتفاعًا ملحوظًا، يبلغ ٧٤ عامًا، عن مثيله في الصين التي تظهر إحصاءاتها الحاسمة أيضًا أن المتوسط وصل إلى ٧١ عامًا عام ٢٠٠٠. أضف إلى ذلك أن معدل الولادة انخفض في الصين، منذ إصلاحات عام ١٩٧٩ الاقتصادية، ببطء شديد. بينما تميز انخفاض المعدل في كيرالا بسرعة شديدة جعلته يقترب ويصبح ٣٠٪ تقريبًا، كمثيله الصيني، وهذا معدل لم يتغير كثيرًا في العقد الماضي.

عاملان، لكل منهما صلة بـ «الديمقراطية» ساعدا في شرح أسباب تثاقل التقدم الصيني في «تمديد» الحياة، بصرف النظر عن الانعكاسات الإيجابية للنمو الاقتصادي القوي. يتمثل العامل الأول في تقليص إصلاحات عام ١٩٧٩، الواضح، لجانبية التأمين الصحي العام، واشتراك معظم المواطنين في التأمين الصحي الخاص (ما لم يتم التأمين عن طريق صاحب العمل وهو ما يحدث في حالات قليلة العدد). هذا الانسحاب من خدمة عامة عالية القيمة ووجه بمقارنة سياسية لا تذكر، وهو ما لا يحدث - بلا شك - في أي ديمقراطية متعددة الأحزاب.

العامل الثاني، أن قيمة الديمقراطية، وكذلك قيمة الحرية السياسية، تكمنان في القدرة على إيجاد مساهمة مباشرة ومشاركة في السياسة العامة، بما في ذلك الرعاية الصحية، من خلال وضع السياسة الاجتماعية تحت الرقابة العامة(٨) سائلة السياسة المفلسة. من المعروف أن الهند تقدم تسهيلات طبية عالية الجودة إلى الأثرياء نسبيًا، وإلى الأجانب الذين يقصدونها بهدف العلاج. من المعروف أيضًا أن مستوى الخدمات الصحية العامة الأساسية فقير ويتعرض إلى انتقادات قوة في الصحافة الهندية. لكن الانتقادات الحادة، والتقارير المتعاقبة حول العيوب في الخدمات الصحية، تقدم فرص الإصلاح والتحسين وتمد مصدر قوة للهند تبدو انعكاساتها واضحة في الخفض الحاد للفجوة بينها وبين الصين على صعيد معدلات متوسط الأعمار، كما تبدو أيضًا فيما حققته كيرالا من نموذج يمزج ما بين المشاركة الديمقراطية والالتزامات الاجتماعية الأساسية. رابط آخر في العلاقة بين شكل الاتصال الجماهيري ومستوى الرعاية الصحية يمكن رؤيته في التأثيرات الرهيبة الناجمة عن التعتيم الذي أحيط به وباء SARS «الالتهاب الرئوي الحاد» الذي بدأ في الصين في نوفمبر ٢٠٠٢ وضربت حوله السرية والكتمان حتى ربيع العام التالي(٩).

الخلاصة أن لدى الهند الكثير لتتعلمه وتستفيد به من الصين على الصعيد الاقتصادي، ويمكن للصين أن تستفيد من الهند، بالكثير وخاصة في الاتصال الجماهيري، والديمقراطية، ولو على صعيد تنمية الرعاية الصحية.

ومن المفيد استدعاء أن تقاليد عدم توقير السلطة، والاستخفاف بها، التي جاءت مع البوذية من الهند والصين، تعرضت - دون غيرها - لانتقاد شديد من قبل الصينيين ضمن إدانات مبكرة للبوذية وقت أن سلم Fuyi، وهو زعيم كونفوشي متنفذ، شكواه إلى إمبراطور إقليم Tong وفيها جاء:

(لقد تسللت البوذية إلى الصين من آسيا الوسطى «في» شكل وحشي غريب وأصبحت أقل خطورة فيما بعد، لكن النصوص الهندية بدأت ترجمتها منذ عصر الـ Han «قبيلة حاكمة» وبدأ انتشارها ينعكس سلبًا على الإيمان بالأمراء وبدأ الورع الجماعي ينحسر. حلق الناس رؤوسهم ورفضوا الانحناء للأمراء وجدودهم الأعلى».

لم يكتف Fuyi باقتراح حظر التبشير بالبوذية، بل طالب بإيجاد طريقة جديدة لـ «التعامل مع عشرات الآلاف من الناشطين المهتاجين في الصين» يطالب بـ «تزويجهم» وينصح الإمبراطور بأن يأخذ أولادهم ويعمل على تربيتهم وتنشئتهم لكي «يلتحقوا بصفوف جيشكم». لكن الإمبراطور - وكما نعلم - لم ينتصح ورفض هذه الرؤية لتقليص البوذية. وبنجاح باهر أصبحت الصين رائدة في الاقتصاد العالمي ونقلت عنها الهند، والعديد من الدول، الكثير من تجاربها وخاصة في السنوات الراهنة، لكن إنجازات المشاركة الديمقراطية في الهند، بما في ذلك كيرالا، تفيد بأن الصين، من جانبها، أمامها ما تأخذه عن الهند. وواقع الحال أن تاريخ محاولات الصين التغلب على عزلتها، وخاصة خلال النصف الثاني من الألفية الأولى، له أهمية مستمرة باقية ومنافع، كثيرة عملية لعالمنا المعاصر. ■

هوامش

(١) استخدمت نظام Pinyin للترجمة من اللغة الصينية إلى اللغة الإنجليزية، عند التعامل مع الأسماء الواردة في الدراسة، وهو نظام سائد الآن رغم استخدام الأدب المقارن لطرق تهجئة مختلفة.

(٢) كتابان، صدرا حديثًا، وعلى درجة عالية من الإتقان ويستندان إلى رحلات Xuanzang: الأول هو «رحلة في المطلق» Ultimate Journey وفيه أعاد Richard Bernstein اكتشاف الممر الذي سار فيه الراهب البوذي القديم عبر آسيا يبحث عن لحظة التنوير، ونشر عام ٢٠٠١. والكتاب الثاني هو «عشرة آلاف ميل بلا سحاب» تأليف Sun Shuyun وصدر عام ٢٠٠٣.

(٣) Joseph Needham - العلم والحضارة في الصين - المجلد الثاني - ص ٤٢٧ (مطابع جامعة كامبردج -) ١٩٥٦.

(٤) مصطلح Mandarin جاء في الكلمة السنسكريتية Mantri ومعناها «المستشار الخاص». ولا يزال رئيس وزراء الهند يلقب بـ Pradhan Mantri أو «رئيس المستشارين».

(٥) John Kieschnick - تأثير البوذية على ثقافة الصين المادية (جامعة برنستون -) ٢٠٠٣.

(٦) ربما تكون هناك محاولات مبكرة للطباعة - البدائية على ما يبدو - قام بها بوذيون من الهند - ومن الواضح أن Yijing فوجئ عند زيارته إلى الهند بصور بوذية مطبوعة على الحرير والورق، ومن قبله يقال إن Xuanzang حمل عند عودته إلى الصين بعض صور مطبوعة لباحث هندي اسمه Bhadara، انظر Needham - مرجع سابق - المجلد الخامس - الجزء الأول - صفحات ١٤٨ و ١٤٩.

(٧) كانت كيرالا أقل توفيقًا في تحقيق معدل نمو مرتفع في إجمالي المنتج المحلي من خلال التوسع الاقتصادي، وهذا المعدل يساوي إجمالي المتوسط في الهند وأقل منه في عدد من الولايات الهندية. ورغم ذلك تميل تقديرات البنك الدولي البنك الدولي إلى إظهار أن كيرالا، وبالإضافة إلى إنجازاتها في التعليم والرعاية الصحية لديها أحد أسرع معدلات انخفاض «خط» حد الفقر في الهند، ولديها الكثير لكي تتعلمه من الصين حول طرق زيادة النمو الاقتصادي. حول هذه المقارنات والعوامل السببية الخاصة بها راجع كتابي «الهند: النمو والمشاركة» بالاشتراك مع Jean Dreze الصادر عام ٢٠٠٢ عن جامعة أكسفورد.

(٨) هذا الارتباط شبيه بالملاحظة الأكثر وضوحًا حول عدم وقوع مجاعات رئيسية في دول تحكمها النظم الديمقراطية حتى وإن كانت تعاني الفقر المدقع. المجاعات الكبيرة التي استمر حدوثها في الهند البريطانية (مجاعة البنجال عام ١٩٤٣ وقعت قبل استقلال الهند بـ ٤ سنوات) اختفت على نحو مفاجئ مع الأخذ بالديمقراطية متعددة الأحزاب. على النقيض من الصين التي عانت أكبر مجاعة في التاريخ في الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ حيث قدر عدد ضحاياها بـ ٣٠ مليون نسمة.

(٩) من المحتمل أن تكون الزيادة الحادة في التباين الاقتصادي، خلال السنوات الجارية، قد ساهمت أيضًا في تباطؤ الارتقاء بمتوسط الأعمار. لكن اللافت أن هذه الزيادة كان لها أوسع تأثير في هزيمة الحكومة الحاكمة في نيودلهي، في انتخابات مايو. وكان من بين أسباب الهزيمة أيضًا أحداث الشغب الطائفية في ولاية Gujarat، وهذه - بالتأكيد - ضريبة النظام الديمقراطي الذي تستجيب فيه الأغلبية وتفي بالتزاماتها إزاء الأقليات.

هوامش للمترجم

(*) «الاختزالية» Reductionism. مصطلح يستخدم في العلم عامة ويشير إلى جهد بعض الباحثين لتبسيط طرق البحث أو تحليل العلاقات وصياغة النظريات، بافتراض أن تفسير نوع معين من الظواهر يصلح لتفسير نوع آخر رغم ما قد يبدو بين النوعين من تباين. وأبرز الأمثلة هو تفسير الظواهر الاجتماعية بالرجوع إلى الدين أو العقيدة، ويدخل ضمن ذلك محاولة تفسير ما يتم من تغيرات في جوانب النشاط المتعددة بإرجاعها إلى تغيرات تقع في جانب واحد من هذا النشاط كأنما هذا الجانب هو الأصل والجوانب الأخرى فرع منه - المصدر: معجم العلوم الاجتماعية - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٥.

(**) طائفة بوذية نشأت في شمال الهند ودمجت ما بين تعاليم هندوسية ومعتقدات صوفية في نظام يشجع ممارسات سحرية لبلوغ لحظة الاستنارة.



"سبيل الباشا!"

حتى عام ١٩٩٨، كان سبيل محمد على باشا بالقاهرة مجرد أثر شديد التهالك على وشك الانهيار. إلا أن جهودا مصرية ودولية عظيمة أسهمت فى إنقاذ السبيل الذى بناه «الباشا الكبير» عام ١٨٢٠ بحى العقادين فى قلب مصر القديمة.

Muhammad Ali Pasha and His Sabil

(محمد على باشا وسبيله)

Agnieszka Dobrowolska and Khaled Fahmy

Auc Press. 64PP., 2004

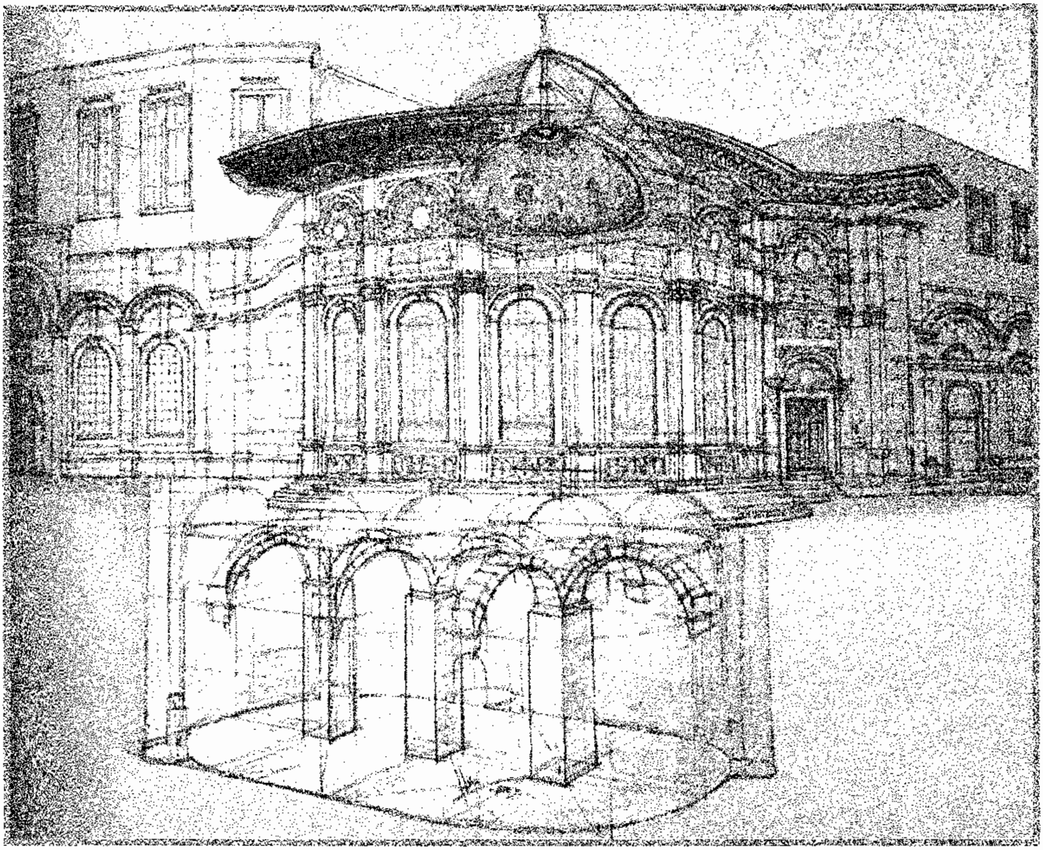
تصدر الطبعة العربية قريبا عن دار الشروق

السبيل صهريج لمياه الشرب، موهوب كوقف خيرى لتوزيع مياه شرب مجانية على الناس. وكان معظم مياه الشرب فى القاهرة يجلب من النيل ليبيعه السقاءون فى الشوارع، ولذلك كانت الأسبلة مرغوبا فيها ومفيدة، وبنى منها الكثير فى المدينة. وكان منشئ السبيل يطمع فى أن يجزيه الله عنه خيرا فى الآخرة، وأيضا فى رفع مكانته الاجتماعية وفى تخليد ذكراه أو ذكراها. والأسبلة موجودة فى كل أنحاء العالم الإسلامى، لأن تقليد مساعدة أبناء السبيل عميق الجذور فى الإسلام. وتنتمى جرار الماء الفخارية وثلاجات الماء المعدنية التى نجدها كثيرا فى شوارع القاهرة حتى الآن إلى نفس التقليد.

وحين ظهرت الأسبلة فى القاهرة للمرة الأولى فى القرن الرابع عشر، كانت ملحقة بالجوامع وبمبان دينية أخرى أقامها السلاطين والصفوة. ثم بنى الأثرياء من الرجال والنساء أسبلة كمبان منفصلة فى مواقع بارزة فى المدينة. وتتميز القاهرة وحدها باشتمال مبنى السبيل على «كتّاب» للتعليم الأولى يقام أعلاه. وأصبحت هذه الأسبلة - الكتاتيب من المعالم التقليدية لمشهد المدينة. وحين غزا نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨ أحصى مساحوه أكثر من ثلاثمائة سبيل فى القاهرة.

وتعكس أسبلة- كتاتيب القاهرة الطرز المعمارية للعصور التى بنيت فيها. فالأسبلة الأولى تعد أمثلة رائعة للطراز المملوكى، وهو تقليد معمارى عميق الجذور فى القاهرة لدرجة أنه امتد إلى العصر العثمانى. أما الأسبلة الكتاتيب القاهرية فى أواخر القرن الثامن عشر فهى نماذج رفيعة لطراز معمارى جمع بين التقليد المملوكى وعناصر من الزخرفة العثمانية ظهرت فى الأستانة (اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية).

وقد كسر محمد على باشا التقليد المعمارى المملوكى الذى امتد قرونا، ودشن بإقامة هذا السبيل طرازا جديدا تماما. فاختار موقعا بارزا فى المنطقة التجارية النشطة على الشارع الرئيسى فى المدينة، واستورد رخاما أبيض وأخشابا من تركيا، وربما جلب منها بعض الحرفيين أيضا.



سبيل محمد على باشا ١٨٢٠

أجنيشكا دوبرولسكا وخالد فهمى

واختار أن يشيد مبنى بهذه الضخامة والفخامة ليبرز سلطته السياسية. وتعرض اللوحات المنقوشة بكتابة عثمانية على الواجهة أبياتا شعرية واسم محمود الثانى، سلطان الدولة العثمانية آنذاك، والتى كانت مصر جزءا منها وكان محمد على واليه عليها.

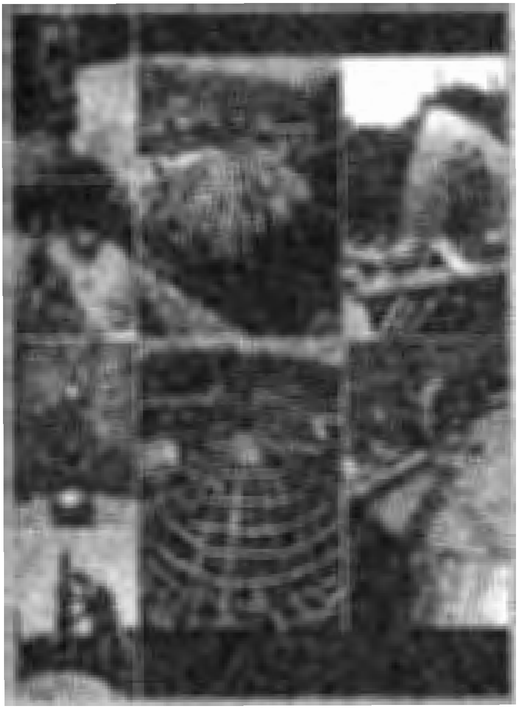
لقد بنى السبيل ليخلد ذكرى طوسون ابن محمد على الذى مات بالطاعون قبل إنشائه بثلاث سنوات وعمره ٢٢ عاما، وكان أحب أبنائه إليه. ولم يدخر الأب المكلوم جهدا أو مالا فى بناء السبيل ليطبع القاهرة بأثر باق يخلد وجود أسرته وأهميتها. وكان السبيل أيضا نقطة تحول فى معمار القاهرة. فطراز الزخرفة الفنية المنحوتة على الرخام على الواجهة المقوسة كان جديدا تماما. وكان هذا الطراز الذى ظهر فى مبان كثيرة فى الأستانة تحويرا عثمانيا لطراز الباروك الأوروبى، ولكنه كان تحويرا حديثا للغاية فى عصره، مع عنصر كلاسيكى قوى. كذلك كانت الأفاريز الخشبية البارزة المنقوشة الفنية بالنحت موتيفة تركية.

وزيادة فى البعد عن تقاليد العصر المملوكى، لم يبن فوق السبيل كُتاب، وإنما قبة مغطاة بالرصاص، على غرار مبان عديدة فى عاصمة الدولة، وكأن الإمعان فى إبراز الاختلاف مقصود، كان باطن القبة مزخرفا بلوحات تصور مشهدا تركيا مدينيا خياليا، لا يشبه بأى حال أفق القاهرة. وكان يتوج المبنى هلال لامع مطلى بالذهب، وكانت أبواب المدخل الرئيسى مصبوبة بالبرونز الصافى. وكان المقصود بتغطية القضبان المزخرفة (المصابع) بالذهب فى النوافذ المقنطرة إبهار الرواد الذين كانوا يرتقون الدرج ليملأوا كوبا من الماء من الأحواض الرخامية خلفها.

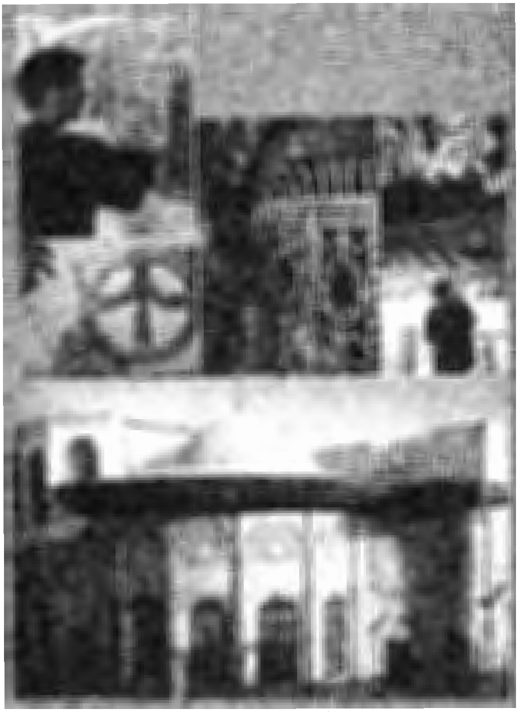
وكان الماء يُحفظ فى صهريج ضخم تحت الأرض، عمقه تسعة أمتار، ومسقوف بتسع قباب حجرية، وجدرانه مبطنة بمونة غير منفذة للماء، على غرار المبانى الرومانية القديمة. وكانت تغذيه بالماء أنابيب تملؤها سواق منصوبة على الترعة التى كانت تخترق المدينة وقتها. وتبلغ سعة الصهريج ٤٥٥ ألف لتر تكفى لملء مليون ونصف مليون كوب من الماء. وكان الناس الذين يشربون من السبيل يتركون عادة عملات رمزية عرفانا بالجميل، وُجد منها الكثير خلال الترميم تحت الدرجات وفقا للعرف الشعبى.

وكان بمستطاع الذين كانوا يرتقون الدرجات من الشارع ليصلوا إلى النوافذ المغطاة بالقضبان ليشربوا أن يلمحوا باطن القبة المزخرف فوق قاعة السبيل، فتوحى لهم المدينة الخيالية والنقوش النباتية المزهرة المنقوشة عليها بصور الجنة.

وبعد عقد من إنشاء السبيل، فى وقت ما بين عامى ١٨٢٨ و١٨٣١، تم توسيع السبيل وأضيف دور علوى له، خال من الزخرفة تقريبا، مما يؤكد أنه بنى لغرض عملى. ونحن لا نعرف الكثير عن هذه المرحلة من تطور المبنى، ولكن يبدو أنها مما ترتب على محاولة محمد على



أعمال الترميم في قبة السبيل



السبيل قبل وبعد الترميم

لإصلاح التعليم في مصر. فقد احتاج جيشه وبيروقراطيته إلى نوع جديد من المدارس الأولية لتدريس مقررات تعتمدها الدولة لمن سيكونون ضباطها وموظفيها في المستقبل. وفي ١٨٣٦ عين الباشا لجنة حكومية وضعت خططا لإقامة نظام تعليمي شامل في البلاد.

وفي نفس هذه السنة أجريت أعمال جديدة في المبنى كما تشهد اللوحة التذكارية الفنية على الواجهة. غير أن الواقع السياسي والاقتصادي في مصر قضى على هذه الخطط الطموحة. ففي عام ١٨٤٣ لم تتبق سوى ثلاث مدارس أولية حكومية. كانت هذه المدرسة واحدة منها.

وبعد حوالي ثلاثين عاما، في عام ١٨٧٠، أعيد إنشاء المدرسة في عصر الخديوي إسماعيل، الذي أحيا اهتمام جده بالتعليم وطوره. فأنشئ نظام للتفتيش على المدارس وطبعت الكتب الدراسية، وأدخل نظام الامتحانات العامة. ووفقا للمقرر الدراسي الجديد الذي وضع في ١٨٧٣ - ١٨٧٤، تلقى تلاميذ المدارس الأولية دروسا متطورة في اللغة العربية، ولكنهم درسوا أيضا التركية والفارسية واللغات الأوربية الحديثة. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر كان يعمل بهذه المدرسة ستة معلمين، يعلمون اللغة العربية والخط واللغة التركية والحساب وتعاليم القرآن. وسرعان ما أضيفت إلى المقررات الجغرافيا والرسم واللغة الإنجليزية. وكانت المدرسة تتبع نظام الامتحان العام، وأخضع التلاميذ لفحص طبي كل ثلاثة شهور. وقد ضمت المدرسة ٩٥ طالبا عام ١٨٧٢، و١٤١ طالبا عام ١٨٧٣، و١٧٧ طالبا عام ١٨٧٤.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين، دخلت مياه الشرب بالأنابيب إلى المنطقة فأهمل السبيل، وأصبحت حجرات الدور الأرضي مدرسة للبنات. وظلت المدرسة مفتوحة حتى الزلزال الكبير عام ١٩٩٢، الذي وضع المبنى على حافة الانهيار، فهجرته التلميذات اللاتي حولن إلى مدارس أخرى. ولكن الكثير من الجارات ما زلن يتذكرن فترة دراستهن فيه.

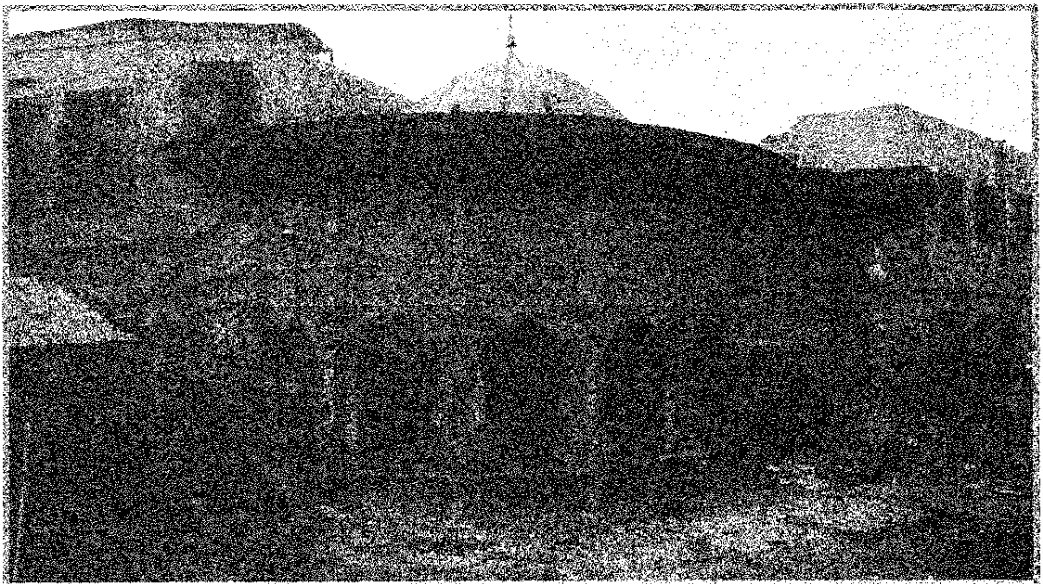
هكذا كان الوضع عام ١٩٩٨ حين بدأ مشروع الترميم الذي تولاه مركز البحوث الأمريكي بمصر، الذي مولته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وأدير بالتعاون مع المجلس الأعلى للآثار. وكان الهدف استعادة وحماية الطراز التاريخي الأصلي للمبنى، بما في ذلك السمات الزخرفية المعمارية، ولكن لم تُغفل أجزاء المبنى الأخرى التي تحمل آثار تاريخه، حتى لو كانت متواضعة أو غير ظاهرة. وفي إطار ذلك تمت دراسة المبنى دراسة شاملة وتوثيقه.

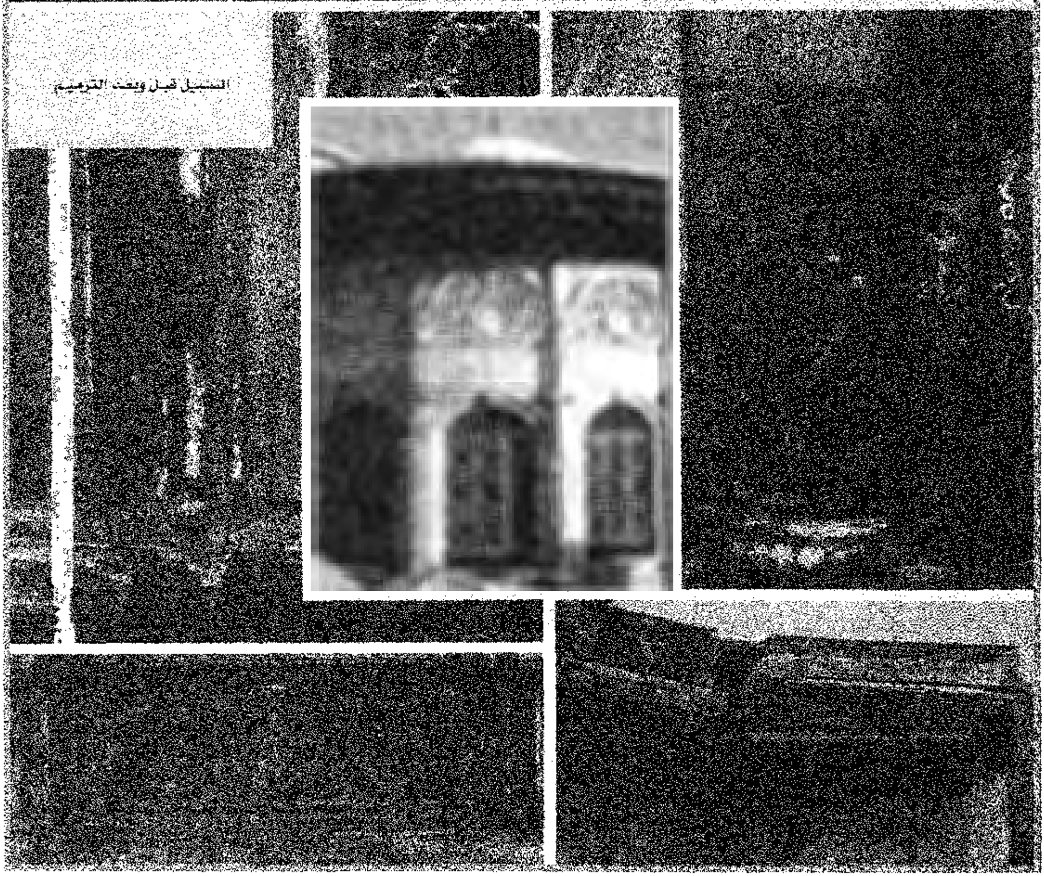
وعمل في فريق الترميم حوالي خمسين شخصا، منهم خمسة وثلاثون مصريا بمن فيهم الحرفيون، والباقي من المهنيين الأجانب من ستة بلاد مختلفة.

وأعطيت الأولوية للمشكلات المعمارية، حيث كانت أساسات المبنى مستقرة بشكل غير مستو بسبب ارتفاع منسوب المياه الجوفية وضعف التربة، بما يهدد بانهياره. وأخذت الحوائط تتصدع بمعدل ينذر بالخطر، كما أخذت دعامات السقف تنزلق من مواضع استقرارها. ولحل المشكلة تم زرع حوالي مائة ركيزة صغيرة في ثقوب بعمق ٩ إلى ١٢ مترا حتى تصل إلى الأرض الصلبة، فتدعمت الحوائط بهذا الأساس الصلب. بعد ذلك بدأت الإصلاحات المعمارية للمبنى المتصدع المتدهور. وظهرت مشاكل في السقوف بسبب الرطوبة المتزايدة والأمطار، لأن السقوف نفسها لم تكن مناسبة، انتزعت ألواح الرصاص التي كانت تغطي القبة الرئيسية في ثلاثينيات القرن العشرين، وأحدثت سبعون سنة من الشمس المحرقة صيفا والأمطار الغزيرة شتاء تلفيات كبيرة. وقد استرد مشروع الترميم كل السقوف وعزلها عن الماء، وحصلت القبة على غطاء جديد بعد إصلاحات معمارية شاملة. وقد أعيد هلال القبة المذهب اللامع إلى مكانه، ولكن تنظيف الهلال ونصبه لم يكن سوى جزء بسيط من المعالجة الترميمية للزخرفة الفنية المتنوعة للمبنى.

الركائز الصغيرة:

كان السبيل يقع في جزء نشط ومزدحم من المدينة، ظل يضج بالحياة لأكثر من ألف





السبيل قبل وبعد الترميم

عام. وبالتالي كان المبنى مستقرا على طبقات ضعيفة من الحشو يفوق سمكها التسعة أمتار، نتجت عن تراكم كسر الطوب من المباني المتهدمة ونفايات الإنتاج وقمامة المنازل ورمال الصحراء عبر القرون.

ومع تضاعف سكان القاهرة أكثر من عشر مرات في القرن الأخير، بدأت المياه الجوفية المحصورة في هذا الحشو في الارتفاع، وبدأت بحلول سبعينيات القرن العشرين تشكل خطورة على مباني المدينة عموما، ومعالمها الأثرية خصوصا. وبدأت التربة المشبعة تحت السبيل تتراص بشكل غير مستو، مما هدد بانهياره.

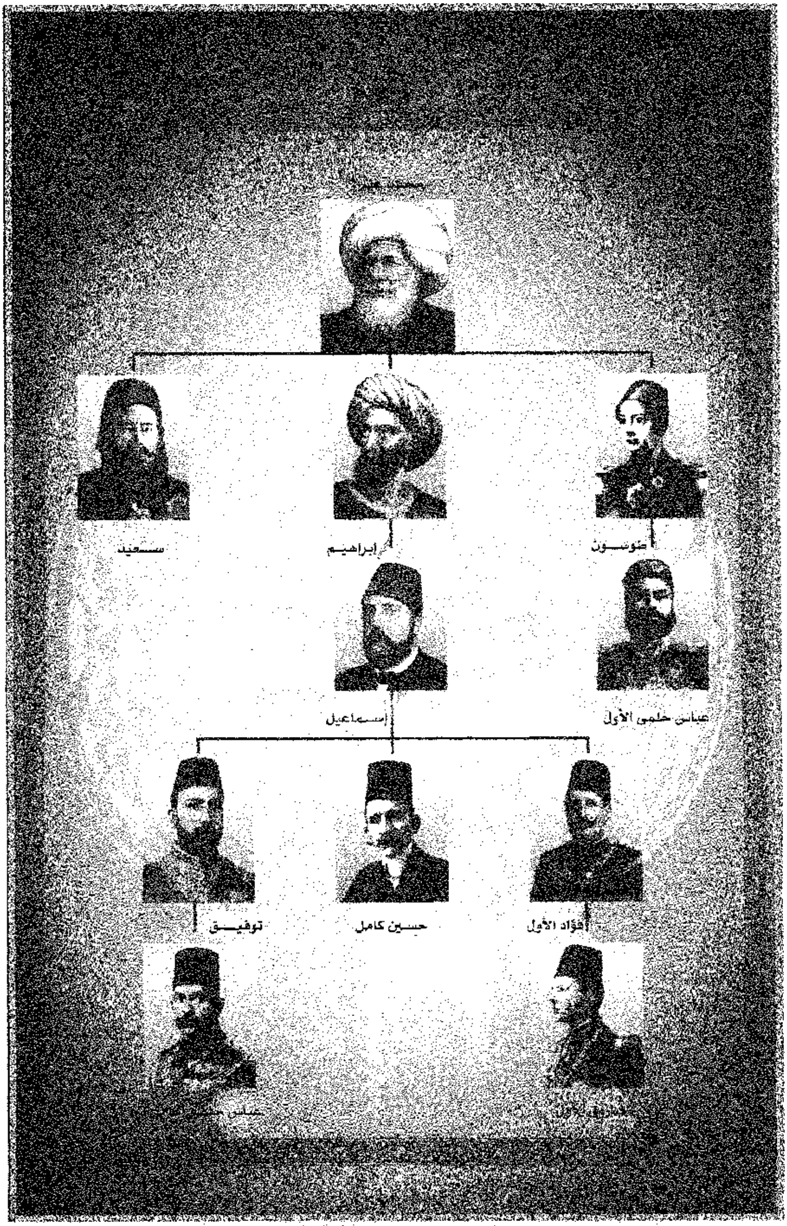
وللحيلولة دون ذلك تم دق أنابيب من الصلب قطرها ثمانية سنتيمترات على عمق تسعة إلى اثنى عشر مترا في التربة، حتى وصلت إلى الأرض الصلبة، وتم ضخ الأسمنت فيها تحت ضغط. وأخذ الأسمنت يرتفع تدريجيا بدءا من القاع وشكلت هذه الركائز أساسا صلبا للمبنى. وأرسيت الأطراف العلوية للأنابيب في كتل من خلطة الأسمنت دعمت الحوائط القديمة بشبكة من حديد التسليح الصلب. وتسمى هذه التقنية بالتدعيم بالركائز الصغيرة micropiling.

القبــــــة

من الناحية الهندسية، لا يشكل البناء الذي يعلو حجرة السبيل قبة حقيقية. فقد بين الفحص الشامل أثناء الترميم أنه في الواقع سقف مخروطي من العوارض الخشبية المستقرة على حوائط خارجية وعلى أخشاب ضخمة تشكل قناطر بين الأركان. وفوق هذه البنية المخروطية تستند روافد تكون هذا الشكل الذي يشبه القبة، وثبتت عليها ألواح خشبية وغطاء من الرصاص- الصلب. أما الطبقة الداخلية نصف الكروية المزخرفة من الشرائح الخشبية والجص، مع تصوير جداري في الداخل، فهي معلقة من البنية الأساسية بحمالات خشبية.

وقد أثبت هذا النمط البديع في البناء كفاءته الكبيرة في مقاومة الزلازل؛ فلم يتطلب ترميمه إلا إصلاحات محدودة.

لم تبدأ أعمال الترميم الدقيق لطرز المبنى إلا بعد تدعيمها بدراسات متخصصة. فتم تنظيف رخام الواجهة بكمادات مشبعة بمواد كيماوية. وبعد إذابة الوسخ والشحم المتراكمين تمت الإزالة يدويا بسكاكين المعجون وأدوات جراحية. كما نُظفت الأفاريز الخشبية البارزة من طبقات التراب والوسخ، وعولجت لحمايتها في المستقبل.

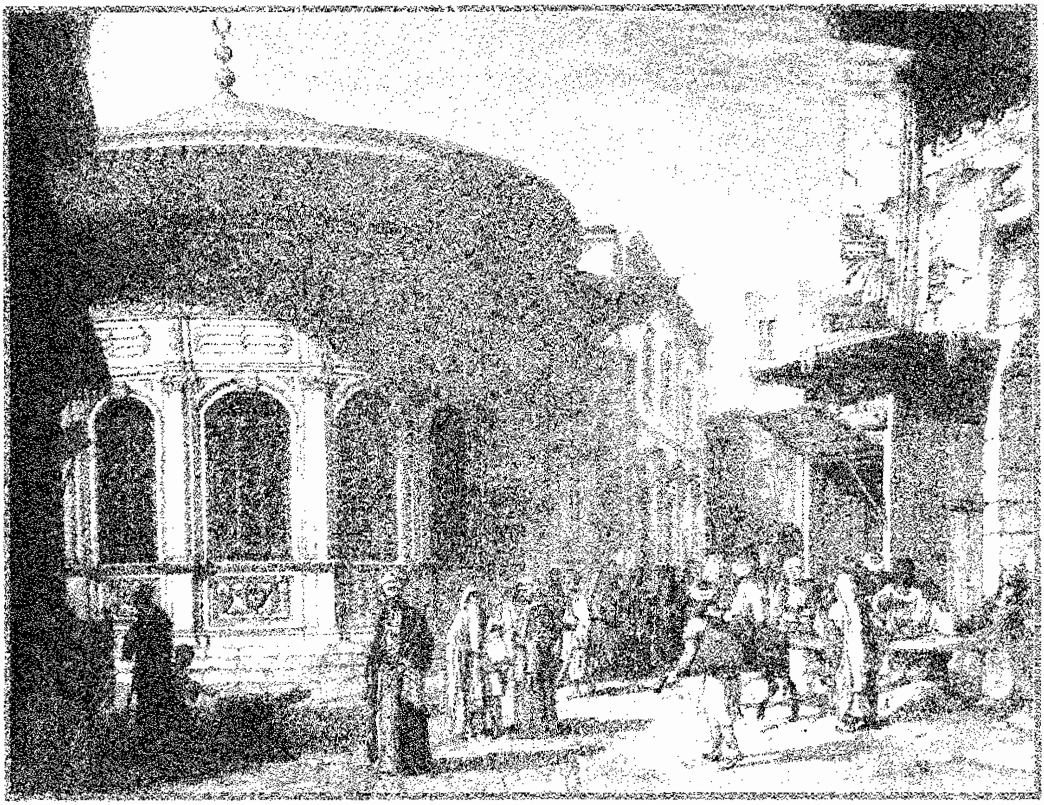


شجرة عائلة أسرة محمد علي

واستغرق ترميم القبة عاما، وأعيد تثبيت الصور الزيتية على خلفياتها ونُظفت، وحين عجزت الوسائل الكيميائية، استخدم المرممون مماسح مبللة باللعاب البشري الذي يحتوي على إنزيمات جعلته وسيلة تنظيف فعالة ورقيقة في نفس الوقت، لا تدانيها المذيبات الصناعية. ونُظفت الأشغال المعدنية من عوامل الصدأ، ومنعت الكيماويات المزيد منه في المستقبل.

واستُخدمت المواد والأساليب الحرفية المحلية كلما أمكن، بأقل تدخل في الأصل. وأجرى الترميم بطريقة تسمح بإزالته واستعادة الوضع السابق بالكامل.

بعد أربع سنوات من العمل الشاق انتهت عملية الترميم عام ٢٠٠٢. وفي العامين التاليين تم إعداد المبنى ليشغل مركزا للزائرين، بهدف عرض وشرح كل معالم المبنى وتقديم شخصية وإنجازات مؤسسه المرموق، محمد علي باشا. ■



السبيل وبجانبه المدرسة التى أقيمت عام ١٨٤٠

«الابـــن المحبـــوب»

كان طوسون أحب أبناء محمد علي إليه. وقد وصل طوسون، الذى وُلد عام ١٧٩٣، إلى مصر بعد أن أصبح أبوه واليا بقليل. وعينه محمد علي وعمره ثمانية عشر عاما قائدا للحملة على الوهابيين فى الحجاز، فاستولى الشاب على مكة والمدينة عام ١٨١٣ وأرسل مفاتيح المدينتين إلى السلطان فى الأستانة. وحين لاقت الحملة بعد ذلك مصاعب خطيرة، سافر محمد علي إلى الحجاز ليساعد ابنه. وتوثقت العلاقة بينهما أثناء تلك الزيارة القصيرة، فأصبحت على النقيض من علاقته بإبراهيم، شقيق طوسون الأكبر، التى اتسمت بالاحترام المتبادل، ولكن أيضا بفتور العواطف. وكان القائد العسكرى الفذ إبراهيم رجلا عنيدا بطبيعته. اعتمد على قواته المصرية، ولكنه اعتبر جنوده مجرد وقود للمدافع. ونحن نعلم بالمقابل أن طوسون كان شخصية ودودة، كما كان كريما وشجاعا، ومغرما حقا بالمصريين، يحبه مرءوسوه ويحترمونه. وعاد طوسون إلى مصر بعد حملته الحجازية واستُقبل استقبال الأبطال، وفى ٢٩ سبتمبر ١٨١٦ عاد إلى قصره فى برنبال، قرب رشيد، وأخذ يعد لمأدبة احتفال بهيجة.

«نقدم هنا شكرنا لك على هذا العمل النبيل وعلى جهودك، ونسأل الله أن يجزيك عنه أحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة، وأن يشد أزرك وينصرك فى أعمالك، وأن يعطيك كل ما تشتهيه وتصبو إليه».

ولم يكد الاحتفال يبدأ حتى مرض طوسون بالطاعون، ومات خلال أربع وعشرين ساعة. وحين بلغ النبأ الفاجع محمد علي كاد أن يغشى عليه. وأثناء ذلك كان موكب جنازة طوسون فى طريقه للضريح الذى أقامه الباشا فى القاهرة لنفسه ولأسرته. فلحق به الباشا سريعا، وهو دائخ مذهول، غير مصدق بما حصل. وقد وزع سبعين كيسا من العملات الذهبية والفضية على الفقراء أثناء الجنازة، وأُعلن الحداد لمدة أربعين يوما. مُنعت فيها الأفراح والاحتفالات، ولُطخت البيوت بالطين علامة على الحزن. وهذا السبيل هو النُصُب الذى أقامه محمد علي لإحياء ذكرى ابنه.

وبرغم أن هذه لم تكن المرة الأولى ولا الأخيرة التى يفقد فيها محمد علي أحد أطفاله الذين أنجبهم من زوجاته وسرياته العديدات، فإن حزنه على طوسون لا يقارن بحزنه على أى ابن آخر خلال حياته الطويلة. وتكشف قصة وقعت بعد موت طوسون بسنوات قليلة إجلال الباشا لذكرى ابنه. وهى تروى أنه استقبل طالبا شابا اسمه يوسف أفندى، كان قد أرسله قبل ذلك إلى أوربا ليتعلم زراعة البساتين. وقد جلب يوسف معه بعض أشجار اليوسفى لزراعتها فى مصر، وعرضها على الباشا الذى سأل عن اسمها. فتذكر الشاب أن رجال الحاشية قد أخبروه أن طوسون الراحل هو أحب أبناء الباشا إليه. فأجاب أن اسمها «طوسون باشا». أُعجب محمد علي بتملق الشاب المجامل، ورد المجاملة قائلا: «حسنا. سنسميها يوسف أفندى». ومنذ ذلك الحين أصبح الاسم الشائع لهذه الفاكهة فى مصر كلها هو «يوسف أفندى».



سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
ماك على الإنترنت
متواجد فى مراكز بيع بواقى



ISO 9001
SGS
تصدير المنتشرة فى كل أرجاء مصر

عنترة العربي ويفتاح اليهودي

■■ تاريخ الإنسانية منذ وعى الإنسان الأول (وقام قين بقتل أخيه هبل) حتى الآن، سلسلة متواصلة من الصراعات للسيطرة على مصادر النفوذ المادية والثقافية ـ المعنوية. ومصادر النفوذ المادية تتفاوت من الحيز/ الجغرافية الإستراتيجية، كالسهول والجبال والأنهار والبحار، عبر السيطرة على الثروات الطبيعية، كالماء ومصادر الطاقة، وتنتهي بقدرة الرأسمال الجمعي المتراكم، على إعادة إنتاج نفسه وممارسة دورا سوسيو ـ بوليتيا قادرا على الحفاظ على ديمومة طليعته. أما مصادر النفوذ الثقافية ـ المعنوية، فهي القدرة على إنتاج منظومات فكرية، كالعلوم المختلفة والفلسفة والدين والأخلاق، تكفل للمجموعة تجديد إنتاج نفسها في هوية جمعية، أو هويات تشاركية، تسهم في تطورها. وكي لا نكون داروتيين، نؤكد على أن هويتنا المقصودة هي الهوية الحرة وغير المستبدة، التي لا تعتدي وتظلم الآخرين. وتشارك الإنسانية السعي لإنتاج عالم أفضل؛ رد الظالمين وتصفية الظلم، وتوزيع مصادر الثروة والنفوذ وعائدات العمل والشغل بين الجميع بالتساوي.

وتعتبر الهويات القبلية والدينية أقدم الهويات التي لا تزال حية، وبما أننا في سياق الهويات اليهوإسلامية، (اليهودية المسيحية الإسلامية)، نستطيع التأكيد على أن الديانتين/ الهويتين الإسلامية والمسيحية تقبل الآخرين بيسر (تقبل)؛ إذ يكفي للغريب أن يصرح بقبوله أحد الدينين، والقيام بأركانه العامة، حتى يصبح شريكا في مصادر الثروة الثقافية ـ المعنوية. أما اليهودية فتقبل كقبول الغريب الذي يريد اعتناقها، ومشاركتها مصادر الثروة الثقافية ـ المعنوية. صحيح أن هنالك اختلافات بين التيارات الأرثوذكسية والإصلاحية، إلا أن قبول الغرباء يبقى صعبا للغاية.. وتعمل الشروط التي يجب أن يتخطاها من يريد أن يتهود بحسب التيارات الأرثوذكسية، كالشروط التي يجب أن يتخطاها من يريد الحصول على الماجستير مع رسالة! في حالة الحاصل على الماجستير، لا تهدده الجامعة بسحبها منه، إن لم يحترمها. أما في حالة الغريب المتهود، فإن الثقافة تهدده بسحب اليهودية منه، إن لم يحترمها! قبل عقد تقريبا، كشفت وسائل الإعلام «الإسرائيلية» المختلفة، أن الحاخامية في مدينة طبريا، رفضت تزويج عدة رجال ونساء، لأن أحد أجدادهم ومنذ ألفي سنة... لم يتزوج حسب الشريعة اليهودية... أي أنهم ليسوا يهودا... الحاخامية تحتفظ بسجلاتهم!

في مقالي هذا، سوف أقوم بقراءة وتحليل قصة: (يفتاح الجلعدي) ـ اخوته وقبيلته، وسيرة عنترة بن شداد ـ أبوه وقبيلته. فقد اخترتهما: لأن أم كل منهما، غريبة. واستدعى الاثنان في أحلك الفترات سوادا من حياة قبيلتيهما، ليقود جيشهما... وانتصرا. (يفتاح) رفضته القبيلة اليهودية شريكا أصيلا فيها، وعنترة أصبح بطلا في الهوية العربية/ (العربية ـ الإسلامية) وأحد أبرز رموزها. لا أتعامل مع الشخصيتين من منطلق تاريخي، ولا الأمكنة من منطلق جغرافي، فهذان ليسا مسألتي بحثي، وإنما أحلل قصتهما من منطلق ثقافي، باحثا الرموز والتعيينات والقيم المختلفة.

ابن الضرة غير اليهودية

ترد قصة يفتاح ـ اخوته وقبيلته في سفر القضاة. يقول النص: «وكان يفتاح الجلعدي محاربا باسلا، وهو ابن امرأة (زونه) ولدته لجلعد» (قضاة ١١: ١). يبدو لي أن جوهر قصته ـ مشكلته، هو في مكانة أمه: (زونه). فقد اعتادت الترجمات العربية والاجنبية ترجمتها: زانية. إلا أن الأمر ليس بمثل هذه السهولة والبساطة. ما هي مكانة الـ (زونه) يا ترى؟ بالطبع لقد شغلت ولا تزال تشغل فقهاء اليهودية وباحثيها. فقد اعتبرها ر. د. ق/ رابي دود قمحي (١١٦٠ ـ ١٢٣٥): خليلة. ور. ب. ل. ج (١٢٨٨ ـ ١٣٤٤): امرأة من قبيلة ثانية. واعتبرها كل من: Mendelson.I. (١٩١٨)، ومــارقــوس (١٩٨٤)؛ وليونشطام (١٩٩٨): زانية. واعتبرها فليشمان (٢٠٠٤): غريبة. إلا أني أرفض هذه الصفات، وأعتبرها ضرة من قبيلة ليست يهودية/ غريبة، للأسباب الآتية:

١ ـ يصف العهد القديم كل امرأة غير يهودية، كانت بعلاقة مع رجل يهودي بـ(زونه). صحيح أنها صفة تحط من قدرها، وقد تكون فعلا من هامش مجتمع الـ goyem، إلا أنها في حالة أم (يفتاح)، قد يكون الأمر معكوسا ـ ستوضح ذلك لاحقا. صحيح، أن هذا التفسير لا يكفي للقول أن أمه: ضرة غريبة.

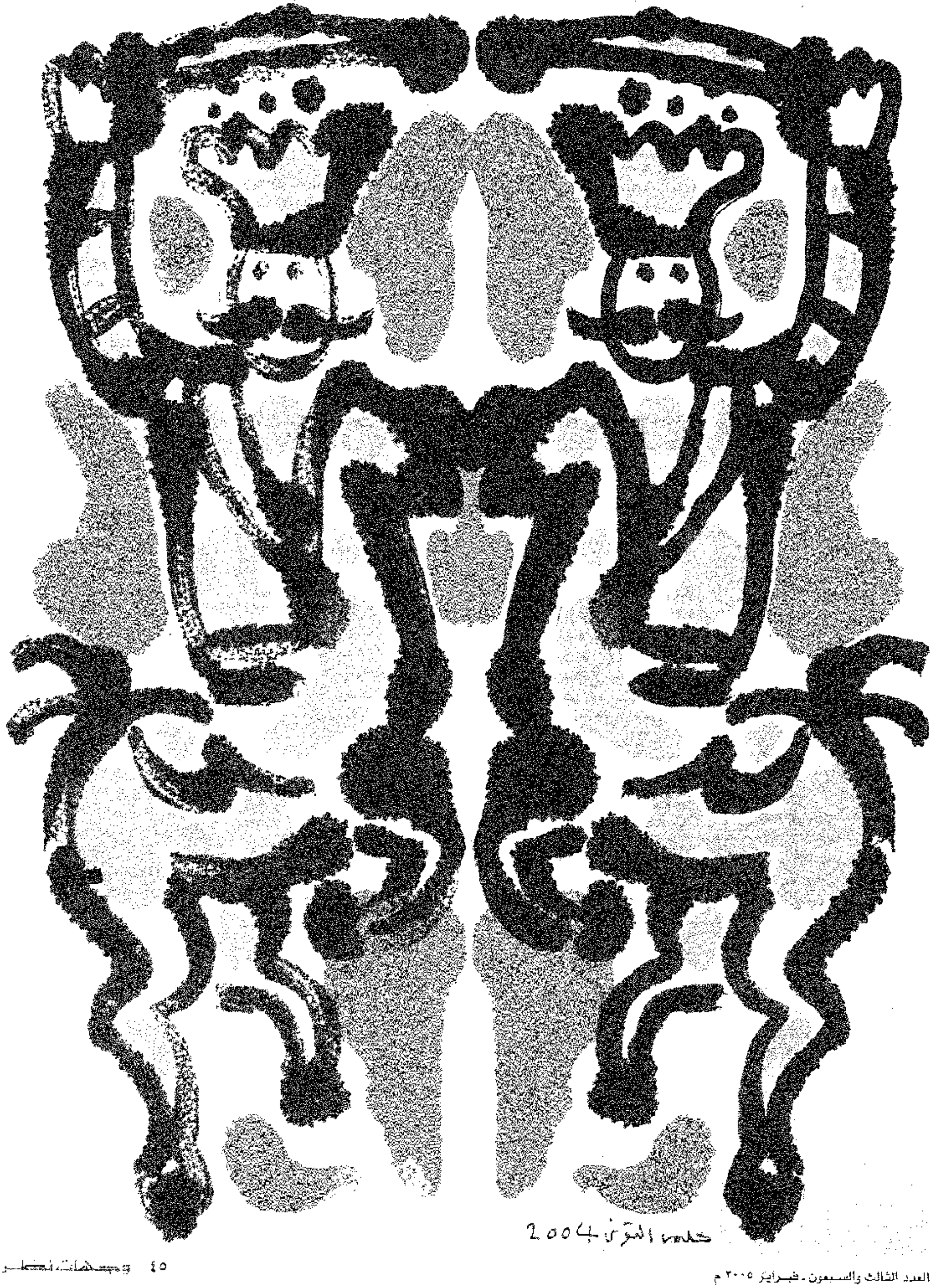
٢ ـ عندما قرر إخوة (يفتاح) طرده من حيز الثروة بشقيها المادي والثقافي ـ المعنوي، صرخوا بوجهه قائلين: «ليس لك ميراث في بيت أبينا. لأنك (بن إيشه شنيه) ابن زوجة ثانية/ ضرة» (قضاة ١١: ٢). لقد آثرت ترجمة «بن إيشه شنيه» بـ: ابن زوجة ثانية/ ضرة: لأنهم ـ أي إخوته ـ هم أبناء الزوجة الأولى، ومنها يستمدون شرعية طرده... لأنه ابن الضرة. والصراعات والخلافات بين أبناء الضرائر معروفة جيدا في المجتمعات التي تبيح هذا النوع من الزواج.

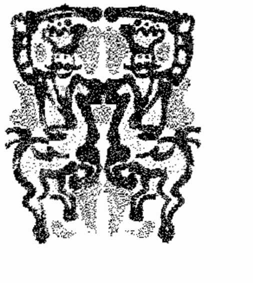
٣ ـ والسبب هذا متعلق بمكانة (جلعد) أبي (يفتاح)؛ إذ يخبرنا النص عنه قائلا: «وقام بعده [بعد شمير] يئير الجلعدي [أبو يفتاح]. فتولى القضاء في يسرءيل اثنتين وعشرين سنة. وكان له ثلاثون ابنا يركبون ثلاثين جحشا، وكان لهم ثلاثون مدينة تسمى مزارع يئير إلى هذا اليوم [...]» (القضاة ٧: ٣ ـ ٤). أي أن أبا (يفتاح) كان في مكانة مرموقة في قومه، كان قاضيا وغنيا؛ الأمر الذي يحتم عليه أن يكون أول الملتزمين بالشرائع التي يقاضي بحسبها. فالشريعة اليهودية تحرم الزنى، وعقوبة من يزني من الزوجات، بغض النظر عن دين الزاني، هو القتل رجما. أما الزوج الزاني بمتزوجة يهودية (فقط) فيقتل هو الآخر رجما. أما إذا زنى بامرأة غير يهودية، فعقابه ليس القتل بأي حال من الأحوال، وكما يقال: اختلف الفقهاء. أما العازبة الزانية مع غير يهودي، فعقابها هي الأخرى: القتل رجما. أما إذا زنت مع يهودي متزوج أو عازب... فكما يقال: اختلف الفقهاء. مما تقدم تفهم خطورة أن ينجب (جلعد) من زانية، ولأن مصلحته تقتضي عدم مخالفته الشريعة بمثل هذا الوضوح والصراحة. وقد يكون غناه، أو أجزاء منه، نتيجة عمله بالقضاء. فكانت إحدى مهام القضاة ـ إلى جانب فض النزاعات ـ المصادقة على المبادلات التجارية والزواج والطلاق مقابل أجر معلوم... يبدو أنه راكم ثروته، أو جزءا منها، نتيجة عمله قاضيا. لذا أرجح أنه لم ينجب من زانية ـ لا أجزم بأنه لم يرتد الزانيات! وأن أم (يفتاح) هي زوجة ثانية له/ ضرة غير يهودية. وقد تكون من علية قومها، لأن قاضيا بمثل هذا الغنى والجاه، يعرف بدقة تأثير أصول الزواج والمصاهرة والنسب على مكانته بمجتمع قبلي، هو أحد زعمائه.

لذا أعتقد أن جوهر مشكلة (يفتاح) وتراجيدية حياته (لقد ضحى بابنته الوحيدة)، نابعة من مكانته، كونه ابن ضرة غير يهودية. لذا طردته الهوية اليهودية وأبعدته عن مصادر ثروتها المادية والثقافية ـ المعنوية. كما سنبين.

عندما هاجمت قبيلة أخرى من بني (يسرءيل)، القبيلة التي ينتمي إليها إخوة (يفتاح)، وأيقنوا أن حالهم صعب للغاية، أرسلوا في طلبه ويقول النص: «انطلق شيوخ جلعد ليأتوا بيفتاح من أرض طوب (أرض لجوئه). وقالوا ليفتاح: تعال وكن قائدا وحارب بني عمون. فقال يفتاح لشيوخ جلعد: ألم تبغضوني أنتم وطردتموني من بيت أبي؟ فلماذا أتيتموني الآن في شدتكم؟» (قضاة ١١: ٥ ـ ٧). هذا النص يكشف لنا أمرين اثنين: أولهما ـ يكشف لنا (يفتاح) أن قرار طرده لم يصدر فقط من اخوته، بل من مجلس شيوخ القبيلة. يبدو لي أن اخوته بقرارهم طرده، لم يكونوا قادرين على تنفيذه وحدهم؛ لأنه كان «محاربا باسلا» ـ كما أفادنا النص؛ لذا استعانوا بشيوخ القبيلة؛ والثاني ـ أن اخوته توجهوا إليه لطلب مساعدته، وبما أنه ابن قاض، ويعرف أصول القضاء والتقاضي، اشترط عليهم

أحمــــــــد أشــــــــقـر


حلمي التوني 2004



حضور جميع الذين اتخذوا قرار طرده: هم والشيوخ. وفعلا حضر جميعهم. ثم يضيف النص قائلا: «فقال شيوخ جلعد ليفتاح: لهذا عدنا إليك الآن، فسر معنا وحارب بنى عمون وكن رئيسا علينا وعلى جميع سكان جلعد». وبما أنه يفقه أصول القضاء والتقاضى - كما أسلفنا - فإنه اشترط عليهم إبطال القرار الذى اتخذوه ضده، قائلا: «إذا أرجعتمونى لمحاربة بنى عمون، فأسلمهم يهوه إلى: أكون رئيسا عليكم». فوافقوا، إلا أن تخوفه وشكوكه من إمكانية تثبيت هذا الاتفاق، بعد النصر المستقبلى، دفعته لتثبيت هذا الاتفاق فى المعبد الذى فى المنطرة، الذى يتخذه (يهوه) شاهدا على أعمال القبيلة (قضاة ١١: ٧ - ١١). وهكذا أمن (يفتاح) تنفيذ اتفاق عودته إلى سدة ورياسة مصادر الثروات المادية والثقافية - المعنوية لقبيلته.

حاول (يفتاح) حل الخلاف مع بنى (عمون) بالمفاوضات. وعندما رفضوا، سارع إلى المعبد ونذر نذرا أمام (يهوه). فالنذور تنذر فى حالات الشدة القصوى المتعذرة على الحل، والأمل بحلها وزوالها بإرادة قوة خفية، (يهوه). وفعلا نذر (يفتاح) قائلا لـ(يهوه): «إن سلمت بنى عمون لى، فكل خارج من يخرج من باب بيتى إلى لقائى، حين عودتى بسلام من عند بنى عمون، يكون ليهوه سأقربنه حرقا» (قضاة ١١: ٣٠، ٣١).

انتصر يفتاح... «وعاد من المنطرة إلى بيته، وإذ ابنته خارجة تغنى وترقص وتضرب الدفوف.

كانت وحيدته، لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها. ولما رآها مزق ثيابه وقال: آه يا ابنتى! قد أحزنتنى حزنا وصرت فى مكدرى. لأنى فتحت فمى [نذرت متوجها] إلى يهوه ولا يمكننى التراجع. فقالت له: يا أبى، هل فتحت فاك [توجهت] إلى يهوه... فليفعل هذا الأمر [فلتوف بنذرك]» (قضاة ١٢: ٣٤ - ٣٧). وفعلا اعتزلت شهرين مع صاحبتها... ثم ضحى بها. النص واضح للغاية: (يفتاح) نذر نذرا... وعليه أن يوفى به! إلا أن أسئلة هامة تشغل وعى القارئ: لماذا نذر نذرا، نادرا جدا، وغير مألوف بين بنى (يسرعيل)؟ لماذا لم يسارع (يهوه) إلى حل مشكلة النذر واستبدال القربان - البنت، بقربان حيوانى، كما فعل (إلوهيم) لـ(أبرهم) وابنه البكر؟ وما هو سبب رمزية النذر؟! والجواب واضح: من أجل تعظيم (extreme) عملية الصد والإقصاء من مصادر الثروة المادية والثقافية - المعنوية، وجعلها دراماتيكية. سوف نعود إلى هذا التحليل، عندما نلخص المقارنة بين هذه القصة، وسيرة عنترة.

ابن الأمة السوداء

تتفق كتب التراث، المعنية بشئون الماضى واسقاطاته على الحاضر، أن عنترة هو: عنترة بن شداد بن معاوية العبسى. وأن أباه شيخ من شيوخ قبيلته. وأمه جارية حبشية، تدعى زبيبة. كان أبوه قد أسرها فى إحدى معاركه ضد قبيلتها. لهذا السبب رفض أبوه البيولوجى والشرعى إلحاقه بنسبه. أى انه رفض إشراكه وقبوله عضوا أصيلا فى مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية. ويضيف صاحب الأغانى، أبو الفرج الأصفهانى (١٢٧٦ - ١٣٤٩): عندما تضايقت قبيلة والده فى إحدى المعارك مع أعدائها، استنجد والده به، قائلا: كر يا عنترة. فرد عنترة: العبد لا يحسن الكر، إنما الحلاب والصر. فرد أبوه قائلا: كر وأنت حر. ثم أنشد يقول:

أنا الهجين عنترة
كُلُّ امرئٍ يحْمِى حِرَه
أَسْـــوَدَهُ وأَحْمَـــرَه
والـــواردات مِشْفَرَة

ومنطق السيرة يقول، أن عنترة أبلى بلاء حسنا... ثم أصبح عنترة سيدا من سادة قومه. وعنترة، مثل كل فارس أصيل، لا يتنكر لأصله، بل يستدعيه للافتخار به، بدليل قوله:

و:

أنا بن سوداء الجبين كأنها
ضبع ترعرع فى رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة
والشعر منها مثل حب الفلفل

و:

الثغر من تحت اللثام كأنه
برق تلألأ فى الظلام المسدل

و:

أنا العبد الذى خبرت عنه
فقد عاينتنى فدع السماعا
ولو أرسلت رمحى مع جبان
لكان بهيبتى يلقى السباعا

و:

لو أنكرت فرسان عبس نسبتى
فسنان رمحى والحسام يقر لى
وبذابلى ومهندى نلت العلا
لا بالقرابة والعديد الأجزل

و:

أنا العبد الذى بديار عبس
ربيت بعزة النفس الأبية

وتصل قمة كثافة فخره بنسبه قائلا:

يُقَدِّمُهُ فتى من خير عبس
أبوه، وأمه من آل حام
عجوز من بنى حام بن نوح
كأن جبينها حجر المقام

إن ما يقوله عنترة يشير إلى ثلاثة أمور هامة بالغة الدلالة: الأول - لا يتنكر إلى نسب أمه وواقعها كأمة، ولا إلى واقعه هو. والثانى - لا يعول البتة على نسبه لأبيه وقبيلته، بل إلى قدرته الشخصية العملية، كفارس ومقاتل، بأن يكون شريكا وعضوا أصيلا فى الهويات المذكورة. وثالثها - أن نسبه الأعلى هو أيضا عالى المقام. فإذا كان العرب نسبوا (أباه) إلى سام بن نوح، فإن نسب أمه، هى الأخرى من نسب حام بن نوح: أى جديه كريمان، ليس جدا واحدا فقط. ويشبه أيضا سواد بشرة أمه بسواد الحجر الأسود، الموجود فى الكعبة قبل الإسلام، وله مكانة خاصة فيها. يقول هذا لأنه يعى ويدرك أن لون بشرته السوداء حاجز بينه وبين هوية قبيلته؛ لذا يؤكد دائما على قدرته الذاتية، ونسبه لأبيه، واعتزازه بنسب أمه. لذا يقدم نفسه حاميا من حماة قومه ومدافعا عنهم فى وجه الظلم.

نسجت الثقافة العربية/ العربية - الإسلامية سيرة عنترة كملحمة شعبية، وقد استغرقت خمسة قرون من النسيج والتحرير والكتابة، إلى أن وصلتنا فى عدة آلاف من الصفحات، حول بطولاته التى سأكتفى بذكر بعضها، لأنها تعتبر مفاتيح للدلالة إلى مدى قبوله شريكا وعضوا أصيلا فى مصادر الثروات والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية (الهوية) العربية - الإسلامية، علما أنه لم يعاصر الإسلام. وعنترة الرمز لا يزال يحضر فى حياتنا المعاصرة.

تبدأ السيرة الحديث عن مكانة أمه من أبيه، فتؤكد على أنه وعدها بالزواج عقب أسرها من مضارب أهلها. ولم يسمح لأحد من شركائه فى المعركة أن يتعرض لها. وفعلا تزوجها... إلا أنه رفض إعطاء الشرعية لابنه، لسواد بشرته. أى أن كتاب السيرة يعتبرونه ابنا شرعيا، رغم رفض أبيه لهذه الشرعية فى بداية حياته. ويتراوح نسب أمه زبيبة، بين كونها أمة لقبيلة بنى جديلة التى حاربها شداد وجماعته، إلى كونها ابنة النجاشى، ملك الحبشة... والنجاشى ملك ليس كأى ملك: فهو نصرانى، وقد أعطى حق اللجوء السياسى - الاجتماعى للمهاجرين الأوائل من المسلمين فى بلاده، ولم يوافق بإعادتهم إلى قريش عندما توجه وفدها إليه. والنجاشى: هو الذى توجه إلى جعفر بن أبى طالب مخاطبا إياه، عن علاقة الدين الإسلامى بالنصرانية: «والله يا جعفر إننا لنشرب من مشكاة واحدة»!

ترسم السيرة الشعبية صورته، بخلاف صور جميع الأشخاص العاديين: فقد بدأ بتمزيق أقماطه عندما كان رضيعا... ويقلع أوتاد الخيام، وهو دون الثانية من عمره... وخلّص قطعة لحم من فم الكلب عندما كان ابن أربعة أعوام... وعندما أصبح صبيا قتل ذئبا وعاد برأسه إلى أبيه... وقتل الأسد وأكل قلبه (وهرقل أيضا قتل أسد نيما) وقتل داجى، عبد شاس بن زهير بيديه لأن هذا صفعه، ومنع الماء عن نساء القبيلة... وعندما كبر التقى برستم، البطل الفارسى (الشاهنامة)، وصارعه وهزمه... وأنقذ قبيلته، وآخرين مثل كسرى، فى الشدائد...

وتذكر كتب السيرة، أن إحدى زوجات أبيه لفقت تهمة أمام أبيه، أنه راودها عن نفسها؛ لذا عذبه أبوه عذابا شديدا... واتضحت براءته. فى هذا السياق، لا بد أن نشير إلى قصتين: (يوسف) وزوجة (فُطفر) التوراتية، ويوسف وزوجة العزيز القرآنية! يبدو أن كتاب السيرة والخيال الشعبى، يريدون التأكيد على أن إحدى صفاته، هى العفة، التى يشارك فيها نبى يهمسلامى.

رغم كون نشأة عنترة (التاريخى) قبل الإسلام، إلا أن كتب السيرة تذكر أن النبى محمدا والصحابة، استحضروا شخصيته مرارا، ولهجوا باسمه وبطولاته. واعتبره بعض المسلمين من:

الأحناف. والأب لويس شيخو (١٨٥٩ - ١٩٢٧) اعتبره: نصرانيا. أما الأب كميل حشيمة، الذي قدم أطروحة الدكتوراة لجامعة السوربون الفرنسية عام ١٩٦٧، حول هوية الشعراء الذين اعتبرهم شيخو نصارى، فيستبعد أن يكون عنترة نصرانيا.

رفض يفتاح وقبول عنترة

لاحظنا عدة عناصر تجمع شخصيتي (يفتاح الجلعدي) وعنترة بن شداد: كلاهما ابنان لأمين غريبتين، وفارسان محاربان قادا قبيلتيهما إلى نصر مفصلي في حياتهما، وكلاهما بذلا جهودا جبارة كي يصبحا شريكين في مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية. إلا أن هوية بني (يسرءيل) اليهودية المغلقة، صدته بعنف غير معهود في العلاقة بين الأنا والآخر. وما نذره وإيفاؤه بقرينة ابنته وحيدته، إلا دليل على هذا الصد. من المنطقي أن يتوقع المرء استمرار ذريته ونسله في أبنائه وبناته وأحفاده وغيابهم. قرينة الابنة الوحيدة. هو تأكيد جازم على عمل واع من قبل اللاهوت اليهودي وكتبة العهد القديم ومحرريه، لقطع هذا النسل، علما أن العهد القديم يامر بني (يسرءيل) قائلا: «تناسلوا تكاثروا واملأوا الأرض»، أي أن القائمين على إنتاج اللاهوت والشريعة، خرقوهما خرقا سافرا، يرقى إلى مستوى الجريمة المنظمة. قرينة الابنة الوحيدة، وإهانة أيضا. كما عبرت عنها - ابنته (يفتاح) الوحيدة، التي لجأت إلى الخلاء «وأبكت بتوليتها». فاليهودية تعتبر العذراء المرشحة للزواج وإنجاب الأبناء، أعلى مرتبة بين النساء، إذا قورنت بالمطلقات والأرامل والعاهرات والمفترعات عذريتهن لأي سبب غير الزواج والزنى، كالاغتصاب مثلا. لذا خصت اليهودية، الكهنة بالزواج من العذارى فقط! ويبدو أن مسألة علاقة الأنا والآخر في قصة (يفتاح الجلعدي)، ومسألة قبول الآخر في مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية اليهودية، لم تشغل بال وعي الفقهاء والباحثين اليهود الأقدمين والمعاصرين.

الذي شغلهم هو: مكانة أمه وشرعية طرد إخوته له: هذا ما اتضح لي من قراءتي خمسة عشر مقالا أكاديميا لكتابة هذا النص.

إذا كانت شخصية (يفتاح الجلعدي)، تتفق في أصول بعض جوانبها بشخصية عنترة بن شداد، إلا أنها تختلف عنها، كون (يفتاح) ابن المؤسسة (أبوه كان قاضيا). وعنترة نقيض لها. بينما نرى (يفتاح) يصر على الجوانب القانونية (المؤسسية) للعودة إلى مصادر الثروة والنفوذ، كما عبر عنها النص في مفاوضاته مع اخوته والشيوخ وتثبيت العهد في معبد (يهوه). بينما عنترة بن شداد يتحدى المؤسسة القائمة/ القبيلة ويتمرد عليها، لأنها تضطهد الفرد العبد والغريب وتمنع التشبب بالحبيبة علنا. إنها ملحمة تمجيد الحرية الفردية وبناء مجتمع حر. لذا تبناها عامة الناس من أبناء العرب - المسلمين، وأحجم عنها الحكام ومن والوهم من كتبة ومثقفين، وأسقطت عليها العديد من الصفات النادرة والخارقة الأسطورية، فقبلته الهوية الشعبية عنصرا أصيلا وشريكا منتجا في مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية المعنوية. مقابل صد اليهودية جميع محاولات (يفتاح الجلعدي). وكما اشرت إلى أن السيرة الشعبية استدعته بملحمة بعدة آلاف من الصفحات، بينما المثقفون لم يكشفوه إلا نتيجة لهزيمة وعار حزيران ١٩٦٧، وأولهم أمل دنقل: المعارض السياسي - الاجتماعي والمثقف الشعبي. وعندما زرت مكتبة جامعة حيفا الغنية جدا بكتب التراث المختلفة، للبحث عن مصادر لإتمام هذا المقال، فوجئت بشحة الصادر عنه. فقد وجدت السيرة بخمسة مجلدات، وخمس دراسات فقط. واحدة الإنجليزية!

باختصار: إن محاولة (يفتاح الجلعدي) ومسعاه لكي يصبح الغرباء/ الـ GOYEIM شركاء في مصادر الثروة المادية والثقافية - المعنوية اليهودية، هي محاولة تراجيدية عبثية. بينما سيرة عنترة بن شداد الملحمية على النقيض: إن مصادر الثروة والنفوذ المادية والثقافية - المعنوية العربية، ترحب بالآخر الشريك والساعي إلى بناء مجتمع أكثر حرية وتكافلا، من خلال مشاركته وعطائه. ■

البدو

قبائل وأنساب

ماجد شبّر

■■ مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ المستشرق الأشهر الهر فون اوبنهايم بالاشتراك مع الاستاذ البروفيسور فرنر كاسكل «ارش بروتيلش». واستمر البروفيسور كاسكل بعد وفاة زميليه ونشر مجلده الثالث. والمهم أن مؤلفيه استعانا بما كتب عن العشائر من آثار وسياحات ومؤلفات تضم إليها المشاهدات.

إن كتاب البدو هذا يعد من أجل الدراسات وأكثرها عمقاً فى فهم القبائل البدوية ودراستها دراسة تاريخية اجتماعية واقتصادية وسياسية وانثروبولوجية. وهو يقدم معلومات شاملة وفريدة من نوعها عن تاريخ القبائل وأصولها وأنسابها وهجراتها والترابط القائم بينها.

يقول المؤلف: «إن هذا الكتاب حصيلة اربعين عاماً من العمل والملاحظات والتسجيلات الشخصية التى قمت بها فى عين المكان». وقد صدر الجزء الأول والثانى من الكتاب فى حياة مؤلفه أوبنهايم، ومساعده بروتيلش، أما الجزءان الثالث والرابع، فقد أخذا عشرين سنة أخرى لكى يبصرا النور بعدما اشرف عليهما ونقحهما وأضاف إليهما إضافات مهمة البروفيسور كاسكل.

ذكر المؤلف أنه سار باتجاهين فى إعداد الكتاب:

الأول: إنجاز دراسة واقية للحياة المادية والثقافية للبدو.

الثانى: متابعة أعرافهم وعاداتهم ومراقبة حياتهم داخل الأسرة والقبيلة وحيال المنتسبين إليهم وتدوين مأثورات وأساطير قبائلهم. وكذلك تدوين ملاحظات مهمة حول الحياة الداخلية لهذه القبائل، من سلطة الشيوخ والأعراف البدوية وعادات الأعراس والزواج وحق الضيافة والحماية (الإجارة) وكذلك الاهتمام بالحياة الدينية.

وعلى وفق هذين الاتجاهين، قام المؤلف بدراسة عادات وتقاليد القبائل البدوية فى المناطق التى توجد فيها تلك القبائل كمنطقة سيناء، والأردن، حيث سجل بعض العادات والتقاليد البدوية والتى منها على سبيل المثال اجتماع افراد إحدى القبائل حول قبر أحد الأشخاص وسبه سباً مقذعاً، أو ذبح بعض الأضاحى ورمى أجزائها فى البحر، بالإضافة إلى قيامه بتسجيل الحكاوى المتعلقة بأصول بعض القبائل، فسجلها كما رويت له مختلطة بها الأسطورة والتاريخ. لقد قام المؤلف بتسجيل تلك الحكايات، لكنه وقف منها موقف الباحث الذى يتوخى الجانب العلمى. كمثال على ذلك، إن الحكاية التى تدعيها قبيلة العدوان فى سورية لإثبات نسبها إلى الإمام على بن أبى طالب، هى من تلك الحكايات الأسطورية التى يقوم بتحليلها ومن ثم تفنيد علة ربط ذلك النسب.

ومن خصائص هذا الكتاب أيضاً، قيامه بمعالجة القبائل من الناحية الجغرافية، فهو يقوم بتصنيف القبائل المختلفة إلى مجموعات بحسب المناطق الجغرافية المختلفة على خلاف ما هو متبع بكتب الأنساب. إن المساحة الجغرافية التى يشملها البحث كبيرة من حيث تتوزع بين العراق، سورية، المملكة العربية السعودية بأقاليمها (الحجاز ونجد والإحساء)، وبين الكويت، قطر، البحرين، الإمارات، الأردن، فلسطين، سيناء بالإضافة إلى قسم من القبائل التى تعيش داخل تركية الحالية، وكذلك قبائل وعشائر عربستان أو ما يطلق عليه خوزستان إيران. بل يمكن القول أنه يتناول كل القبائل العربية فى آسيا.

لقد صدر عدد من الكتب التى تبحث فى موضوع القبائل والعشائر بأسلوب أكاديمى ولكن أغلبها يقتصر بحثها على قبيلة واحدة، أو جزء من قبيلة كحال دراسة قبيلة الرولة او يشمل منطقة جغرافية محدودة. وما قام به الباحث الكبير البروفيسور موزيل فى كتبه المهمة والتى تندرج تحت نفس العنوان العلمى الرصين فإنها اقرب إلى كتب الرحلات التوثيقية منها إلى الأنساب، لكنها لا تخرج عن هذا المسار كمناطق (وسط الفرات) و(شمال الحجاز) و(شمال نجد) و(عادات وتقاليد الرولة) والصحراء العربية.

هناك ناحية مهمة أخرى فى تاريخية البحث ألا وهى الفترة الزمنية التى بحث فيها المؤلف «البدو» حيث تعد فترة فاصلة ومهمة فى تاريخ البدو بشكل خاص والمنطقة العربية بشكل عام. وهى الفترة الزمنية التى بدأت قبل عملية توطين القبائل البدوية، وقبل أن ينتشر نفوذ وسلطة الدولة التى قامت بعد الحرب العالمية الأولى.

يمكن القول إن صورة البداوة الجلية، التى تمكن المؤلف من مشاهدتها ميدانياً وتسجيل مفاهيمها وقيمها وعاداتها والتى كانت سائدة منذ الاف السنين كانت ماثلة أمامه. يقول المؤلف: «لا تختلف حياة البدو اليوم عن الحياة التى كان قد وصفها شعراء، ومؤرخو العصر العربى القديم. من جانبها بقيت سهوب الصحراء هى ذاتها منذ آلاف السنين وكذلك بقى البدو شعب أسياد أصلاء، بدائياً، وحشياً، محارياً لم تمسه الحضارة الأوروبية بعد».

وهناك تساؤل يتردد هو: هل هناك علاقة لبعض أسماء القبائل والعشائر المعاصرة مع القبائل والعشائر القديمة؟ وهل تشابه تسميات بعض القبائل المعاصرة لبعض القبائل القديمة استعارة لتلك الأسماء أم هناك رابط يربطها خصوصاً بعدما ظهر اسمها مجدداً بعد اختفائها زمناً طويلاً. وهناك قبائل وعشائر ظهرت حديثاً، لم نجد لها ذكراً فى كتب الأنساب القديمة فمن أين أتت؟!.

هذه التساؤلات وغيرها كانت دوماً موجودة. عند مراجعة كتب الأنساب القديمة، مثل جمهرة النسب لابن الكلبى ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى وجمهرة الأنساب لابن حزم الأندلسى، وعشرات غيرها، لكنها لم تكن لتفطى الإجابة عن تلك التساؤلات أو ربما تجد إجابة عن مرحلة أو فترة زمنية محددة، دون وجود ترابط وتناسق بالمعلومات، بل إن مادتها مشتتة، بالرغم من أن قسماً من كتب الأنساب هى كتب تاريخية أصلاً تناثرت بين طياتها أخبار عن القبائل. وعند البحث فى الكتب الحديثة فإن أغلبها قليلة المادة، وربما تعالج الأمور بسذاجة، وهى عبارة عن حكايات عن أصول القبائل، وعجرات لم تستند على التوثيق التاريخى بأسلوب يكثر فيه الإطراء والتفخيم والتعظيم وهى أشبه بحكايات السمر منها إلى التاريخ.

البدو (٤ أجزاء فى خمسة مجلدات)
البارون ماكس فون أوبنهايم
آرش بروتيلش وفرنر كاسكل
ترجمة: محمود كبيبو
تحقيق وتقديم الطبعة العربية: ماجد شبّر
لندن. بيروت: شركة دار الوراق للنشر. ٢٠٠٤



الاهتمام بالأنساب

يعد العرب من أكثر الأمم اهتماماً بأنسابها وأصولها. وقد حفل التاريخ العربي بشواهد كثيرة تظهر اعتزاز العرب بأنسابها. إنَّ التوارث لحفظ الأنساب ونقائها يعدّ من المفاخر التي يعتز بها الإنسان العربي بشكل عام، والإنسان البدوي بشكل خاص. ويمكن أن نشاهد الفخر والتفاخر ظاهرين للعيان في الشعر العربي الذي يعد ديوان العرب. يقول المؤلف: «لا حدود لاعتزاز البدوي بنقاء نسبه الذي يحرص عليه، ويعنى به. في نظر البدوي أنه وحده الأصيل وتتجذّر فيه بعمق الإيمان القرابة الدموية التي يجب أن يلتزم بها. ومن هنا يقسر الزهو بنقاء النسب».

وقد ظهر في مختلف العصور القديمة والحديثة أشخاص يتميزون بمعرفتهم بالقبائل العربية، ولهم باع في حفظ الأنساب، يطلق عليهم النسابون. كان عقيل بن أبي طالب أحد هؤلاء قبل الإسلام وفي بداية ظهوره، وكانت المصادر المتعلّقة بأصول الأنساب تنحصر بالحفظ الشفاهي. ولم يظهر الجانب التوثيقي الكتابي إلا في منتصف القرن الثاني الهجري. كانت المرحلة الأولى تتخذ طابع التدوين القبلي، وفي المرحلة الثانية اتخذ تدوين الأنساب شكلاً أوسع فظهرت كتب الأنساب الجامعة.

لقد استقى النسابون مادة مصنفاتهم النسبية من مصادر شتّى، فأُخذ جل أنساب القبائل العربية من قدامى نسابي القبائل، ورجع مصنفو كتب الأنساب إلى هؤلاء النسابين فاستقوا مادة كتبهم منهم.

ويُعد كتاب جمهرة النسب لابن الكلبي من الكتب المهمة في بحثها للأنساب العربية، لما عُرف عن ابن الكلبي من أنه كان عالماً بأنساب وأخبار العرب وأيامهم، وقد أخذ علمه بالنسب من أبيه الذي لم يهتم بتأليف الكتب فجاء ابنه فألف في الأنساب وأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم كتباً عديدة، وقد عدّ المؤلف كتاب ابن الكلبي جمهرة النسب من الكتب المهمة والأكثر مصداقية. فكان مصدراً مهماً في معرفة القبائل والعشائر في عصورها الأولى.

لقد ظهرت على مر العصور عشرات الكتب التي تناولت القبائل العربية وعشائرها والتي تُعد ذات أهمية عظيمة، نذكر بعض أسماء كتب هؤلاء في الأنساب والقبائل.

١ . كتاب النسب لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ . ٢٢٤هـ)

٢ . كتاب نسب عدنان وقحطان لأبي العباس المبرد (٢١٠ . ٢٨٥هـ).

٣ . كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٤٦ . ٣٢٨هـ).

٤ . جمهرة الأنساب لابن حزم الأندلسي (٣٨٤ . ٤٥٦هـ).

٥ . طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك عمر بن يوسف بن رسول ٦٩٦هـ.

٦ . نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ٩٨٢ . ٧٣٣هـ.

٧ . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، وقلائد الجمان في التعريف بقبائل الزمان للقلقشندي (٧٥٦ . ٨٢١هـ).

٨ . سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب للسويدي ١٢٤٦هـ

التقسيمات القبلية للقبائل والعشائر

القبيلة تعبير يطلق على مجموعة بشرية ذات لغة أو لهجة مشتركة، بصرف النظر عن استقرارها على أرض ثابتة أو ترحالها من مكان إلى آخر. فالقبيلة مجموعة بشرية متنقلة أو مقيمة على أرض محدودة صحراوية في الغالب بين أفرادها علاقات خاصة قائمة على التقاليد والأعراف المتوارثة، فهي إذاً مجموعة بشرية متماسكة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وذات شخصية متميزة وتعمل تحت إمرة زعيم أو شيخ القبيلة الذي أنيطت به إدارة شئون القبيلة، وإقامة التحالفات مع القبائل الأخرى لحماية المجموعة المنتسبة إليه.

ويختلف النسّابون في تقسيم القبائل العربية من حيث توصيفها وتصنيفها، ومتى يطلق عليها قبيلة أو عشيرة. وتكاد تختلط التسميات في التراث العربي، فقد يطلق على العشيرة اسم «فصيلة، أو «بطن»، أو «فخذ»، وهي ألفاظ تدل على مستويات مختلفة في التنظيم الاجتماعي، ولا تدل على طرق العيش والكسب.

فالنويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» يقسم القبائل إلى عشر طبقات فيبدأ أولاً بالجذم فالجمهور فالشعب فالقبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالعشيرة فالفصيلة فالرهط.

أما القلقشندي فيصنف طبقات القبائل إلى ست، وهي الشعب فالقبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة.

أما ابن منظور فقد حدد القبيلة بأنها جمع من الناس ينتمون إلى أب واحد، وهم أصغر من الشعب، وتليها بالصغر العمارة ثم البطن ثم الفخذ. أما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأدنون.

أما عبد الجليل الطاهر في الدراسات المعاصرة فيبدأ بالقبيلة ثم العشائر التي تنقسم إلى أفخاذ، وكل فخذ إلى أسر. كما قسم عباس العزاوي القبائل والعشائر إلى وحدات بدأ من الأصغر إلى الأكبر على هذه الشاكلة:

أ . البيت (الأسرة) أصل القبيلة.

ب . الفخذ ويقال له (البديدية) وجمعها بدية، والفندة وجمعها (فند)، والفخذ بالأصل عدة بيوت من جد قريب لا يتجاوز الجد الخامس في الأغلب.

جـ . العشيرة: وتتألف من عدة أفخاذ أو بيوت وتعيش مجتمعة بالوجه المتعارف وقد يتفرع الفخذ إلى عدة أفخاذ فرعية.

د . القبيلة: وتتألف من عدة عشائر وتكتسب ضخامة وسعة في تكونها حينئذ يقال لها قبيلة وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة.

هـ . الأمارة: وهي تقارب عدة قبائل أو تكاثر إلى أن تكون قبائل عديدة فيتولى إمارتها رئيس الفخذ الأول.

وقد شكلت القبيلة الوحدة الأساسية في المجتمعات العربية في الجاهلية والإسلام، فكانت العصبية القبلية هي العنصر الأساس في اجتماع وتكاتف القبيلة فيما بينها، كما كان الانتماء إلى القبيلة عنصراً من عناصر الحماية الفردية. فالفرد في القبيلة يذود عنها والقبيلة بدورها تدافع عنه، حيث قوة الفرد من قوة القبيلة.

كان العرب في الجاهلية يتكونون من قبائل كبيرة وصغيرة، وكانت هناك تحالفات وحروب بين هذه القبائل، حيث كانت القبيلة على الأغلب تحارب وتسالم وتهاجر بشكل جماعي. وعندما جاء الإسلام بقيت التشكيلات القبلية ذاتها، ولم تتغير كثيراً. بل إن القبائل حاربت لنصرة الإسلام ضمن الجيوش الإسلامية كوحدات قبلية. فقد عمل القادة المسلمون الأوائل للحفاظ على التشكيل القبلي كي يكون عنصر تضامن وتمازج يشد بعضه بعضاً ضمن الوحدة القبلية في مواجهة العدو المشترك، ومن أجل أن يمنع الحزازات القديمة من الظهور. «إن سعد بن أبي وقاص أدرك بثاقب بصره أن نظام الأسباع يكون أكثر صلاحاً إذ جمع بين القبائل المشتركة في النسب أو المترابطة بروابط القربى».

يقول سهيل زكار استفاد النبي في مكة من العصبية القبلية، حين تمتع بحماية عمه وعشيرته له، واستمر الحال بعد وفاة (الرسول) حيث دون عمر بن الخطاب الدواوين على أساس قبلي، وعلى الرغم من قيام الفتوحات الكبرى وانتشار القبائل العربية في الأقاليم ظل النظام القبلي معتمداً، وبدلاً من ذوبان القبائل في نظام مجتمعات البلدان المفتوحة، حدث ما هو العكس، حيث تبنت



«لا تختلف حياة البدو اليوم عن الحياة التي كان قد وصفها شعراء، ومؤرخو العصر العربي القديم. من جانبها بقيت سهوب الصحراء هي ذاتها منذ آلاف السنين وكذلك بقي البدو شعب أسياد أصلاء، بدائياً، وحشياً، محارياً لم تمسه الحضارة الأوروبية بعد»

الشعوب المفتوحة النظام القبلي عن طريق «الولاء». لقد هاجرت قبائل عربية بكاملها من الجزيرة إلى العراق مثل بجيلة، وإلى بلاد فارس وما وراء النهر وإلى أفريقيا وقد استقرت هناك وحافظت على وحدتها القبلية وأصولها وجذورها.

وعند تكوين الدول العربية في العصر الحديث، لعبت القبائل والعشائر دوراً أساسياً في تبلور شكل هذه الدول. فهناك قبائل ادمجت في الدول الحديثة الناشئة مثل سورية والعراق وفلسطين، وأصبحت جزءاً من المجتمع المستقر الحضري حيث إن المكونات الحضرية قوية بحكم وجود الأرض الزراعية وقوة التكوين المدني ووجود سلطة الدولة. وهناك قبائل سيطرت على قبائل أخرى لتؤسس دولة كبيرة، وهنالك قبائل تحولت إلى دويلات أو إمارات كالكويت، وقطر، والبحرين، والإمارات.

يقول عالم الاجتماع الكبير الدكتور علي الوردي إن المجتمع العربي هو أكبر معين للبداوة في العالم. إن التناقض بين الحضارة والبداوة كبير. فإما أن نكون متحضرين أو نعود إلى الصحراء، فلا التقاء ولا توافق ولا انسجام بين قيم الحضارة والبداوة. إن سمات البداوة هي: القبيلة، الغزو، التفضل (الذي يشمل الكرم والسخاء والنخوة وغيرها).

أما الحضارة فهي على العكس من ذلك تماماً إنها الدولة، العمل اليدوي، وعدم الاهتمام بقيم التفضل. فعلى الرغم من تزايد المدن وعدد سكانها إلا أن قيم البداوة ما زالت في دواخلنا إلى حد كبير.

تصنيفات البدو

البدو والبادية والبداوة: خلاف الحضر. والنسب بدوي منسوب إلى البداوة. وبدأ القوم بدواً أي خرجوا إلى باديتهم. وفي الحديث من بدا جفا، أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب. وقال الليث: البادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري، قيل قد بدوا، والاسم البدو.

لقد ميّز ابن خلدون ثلاث فئات من السكان، هم: البدو، والأعراب والحضر. فالبداوة ترتكز على القبيلة والترحال الدائم، أما الأعراب فهم تجمعات البدو المستقرين في قرى الأرياف والواحات ويقيمون نمط إنتاج زراعي، وهم نواة مرحلة انتقالية بين نظام البداوة والتحضر. إن التصنيف القبلي عند العرب مستمد في الأصل من القدرة الاقتصادية ونمط العيش، لا من التسلسل الدموي والأصول القبلية العريقة.

إن حالة استمرار قيم ومفاهيم البداوة في المجتمعات الحضرية حالة قديمة، ولا تبتعد كثيراً عما هو موجود لدينا، إنّ حالة هؤلاء الناس وإن تحضّروا، واستقروا، وأقاموا، وتركوا الحياة الأعرابية إلا أنهم بقوا رغم ذلك على مذهب أهل الوبر، وديدنهم في التمسك بالانتساب إلى الجد الأعلى، وإلى أحياء وبطون، وفي إجابة النخوة العصبية، وما شابه ذلك من سجايا البداوة.

لا يوجد توصيف متفق عليه لدى الباحثين لتقسيمات البدو ومن هنا أجمل القول:

١ . بدو رحل وهم الأصلاء أو (الأقحاح) ويسمون أهل الوبر، الذين يرعون الإبل فقط ويسمون أيضاً أهل الإبل. إن القبائل الأصيلة عند العرب، التي تحتل منزلة عالية هي التي تعيش أو كانت تعيش على رعي الإبل.

٢ . البدو نصف الرحل: تختلف التسمية للبدو نصف الرحل من منطقة إلى أخرى، فيطلق عليهم «الغنامة» التي تعتمد فيها القبيلة على رعي الأغنام، أو يطلق عليهم الشاوية «الشواوي» في العراق الجنوبي وهم نصف متحضرين فهم يعملون بالزراعة ونصف بالرعي، ولديهم مساكن، ويقومون بعملية الرعي وبالأخص الأغنام ويطلق عليهم اسم حكرة (حكرة) في الكويت ونجد ويسمون أيضا بعرب الدار. وقد تنقسم القبيلة نصف رحل غنامة فهي تربي الأغنام وتمارس أعمال الزراعة. ويعيش جزء من القبيلة في أكواخ أو خيام. إن نوع الزراعة محدود بالحبوب فقط دون غيرها. لأن زراعة الخضروات وما شابهها تعد محتقرة ومرفوضة بنظر البدو.

٣ . فلح أو فلاليح: وهم مستقرون ضمن مجموعات قبلية وعشائرية، ويقومون بعملية الزراعة. وينقسمون إلى قسمين الطبقة العليا هم الزراعة والتي تقوم بزراعة الحبوب من حنطة وشعير، والطبقة الدنيا الحساوية الذين يقومون بزراعة الخضروات.

٤ . المعدان: وهم العشائر الموجودة في العراق الجنوبي والذين يربون الجاموس ويصيدون الأسماك ويقومون بزراعة بعض المحصولات يبيعون الحليب ومشتقاته التي تعد من العيوب الكبيرة ضم المفهوم البدوي.

٥ . الهتيم: هنالك مفهوم للهتيم وبالأحرى يطلق على الهتيم من منظورين. الأول هم الناس الذين فقدوا مرجع أصولهم القبلية وبالتالي أصبحوا مجهولي النسب. أما المنظور الثاني وهو الأرجح لدي وهو منظور اجتماعي، بحكم ممارستهم أنواعاً معينة من المهن مثل الصناع (الحداد والحائك وإلى آخر هذه المهن وتعد محتقرة بدرجة كبيرة لديهم فإن من يمارسها يعد هتيمياً. لأن في الماضي كان لا يمارس هذه المهن إلا الهتيم، من هنا فإن الهتيمي لا يعني بالضرورة أن يكون مجهول النسب أو ما يسمى (غير أصيل).

٦ . الحوازم: الفئات والأفراد الذين يكسبون رزقهم بطريقة محتقرة حسب المفاهيم البدوية وقد تغير حالهم في العقود الأخيرة.

٧ . صليب أو صلبه. وهم مجموعات قبلية صغيرة تقوم بأعمال تعد حقيرة بنظر البدو، مثل بيع أدوية نباتية تصنعها نساؤهم، ويقومون ببعض الحرف البسيطة وتقوم نساؤهم (بطرح الحصا) والذي يسمى عندهم (الطلشة). ويقول العزاوي على كل حال هم بدو ولكن عيشهم أخس عيشة فلا يزاحمهم فيه أحد، يطاردون الغزلان والحيوانات الوحشية، ومن جلودها يتخذون لباسهم وبيوتهم. أما فؤاد حمزة فيقول: إن صليبي أو أولاد غانم هو الاسم الذي يطلق على مجموعة القبائل التي لا تعرف أنسابها. الصلبة يقسمون إلى بداية ويقال لها ال وهم يقطنون في أماكن مختلفة. ونظراً لضعف الصلبة وعدم وجود عصبية لها فإنها تلتجيء إلى القبائل المعروفة وتطلب حمايتها مقابل الخاوة.

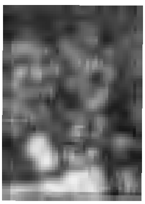
٨ . بنو خضير: هم ليسوا قبيلة وإنما طبقة من الخدم في نجد ووسط الجزيرة العربية.

شعب شديد البأس

إن الموضوعية التي اتسم بها المؤلف في بحثه يرافقه فيها حبه للعرب بشكل عام، والبدو بشكل خاص تجعله أكثر مصداقية، فهو لم يذهب إلى وصفهم بالسراق والقتلة كما هو حال الكثير من الرحالة، بل يصفهم بأنهم «شعب أبي محب للحرية، قاس شديد البأس، مضياف ومحارب».

وكذلك لا بد من الإشارة إلى أن احترامه للإسلام كان واضحاً حيث يسمي النبي محمد بالنبي في كثير من الأحيان وليس بالاسم مجرداً كما هو حال الكثير من المستشرقين. اعتمد أوبنهايم في بحثه نهجاً علمياً مختلفاً عما جرت عليه العادة في الكتب التي تبحث في تاريخ وأصول القبائل والعشائر وقد سار على طريقة تتلخص بما يلي:

أولاً: التقسيم الجغرافي للقبائل فقد بحث عن القبائل التي هي ضمن منطقة جغرافية معينة، فبدأ بدراسة تاريخ المنطقة



«لا حدود لاعتزاز البدوي بنقاء نسبه الذي يحرص عليه، ويُعنى به. في نظر البدوي أنه وحده الأصيل وتتجذّر فيه بعمق الإيمان القرابة الدموية التي يجب أن يلتزم بها. ومن هنا يفسر الزهو بنقاء النسب»

الجغرافية التي يتناولها قديماً وحديثاً. وكذلك الأحداث السياسية الهامة مستعرضاً الجانب التضاريسي والاقتصادي فيمزجهما بأسلوب سلس شيق. كما سعى إلى تتبع أهم القبائل العربية القديمة التي أقامت في هذه المنطقة، والأحداث السياسية الهامة التي مرت بها مدار البحث كما تابع حركة انتقال القبائل العربية وانتشارها بتسلسل زمني حتى يصل إلى القبائل الحديثة فيبحث في أصلها وهجراتها وقدومها إلى المنطقة الجغرافية. موضوع البحث.

ثانياً: أسلوب البحث ولغته:

جعل أوبنهايم بحثه مفهوماً من الخاص والعام أي موجها لكل من له اهتمام في القبائل وليس للمتخصصين فقط. يقول المؤلف عن كتابه أنه كتاب صيغ بأسلوب علمي رصين، لكنه حرص في الوقت نفسه أن يكون مفهوماً من الجميع، لذلك فهو لا يخاطب المتعلمين وحدهم بل يتوجه إلى كل من لديه اهتمام بمسألة البدو. «سيقدم كتابنا هذا معطيات إلى كل من يبحث عن معلومات حول سائر المسائل المتعلقة بأبناء الصحراء».

ثالثاً: البحث الميداني

إن البحث الميداني في إعداد الكتاب، والملاحظات التي تمَّ تسجيلها، تشكل المادة الحية فيه ملتقطةً من الواقع المادي الملموس، المعلومات التي جمعها والتي توفرت لديه، لم يكن يسلم بها، بل يخضعها لتمحيص شديد، أي لأسلوب التشكيك حتى يثبت دقة المعلومة. ويمكن ملاحظة ذلك في جداول القبائل. ففي أرقام هوامش الجداول تجد المصادر التي اعتمدها لاسم كل قبيلة وتفرعاتها والطريقة التي تحقق من صحة المعلومة وبالتالي فإن الجداول تلك، تعد من أهم مرتكزات الكتاب. يقول أوبنهايم عن طرق البحث الميداني: كانت ملاحظاتي الخاصة، وملاحظات مساعدي في الشرق ومازالت من أكثر مواد كتاب البدو أهمية. إن البدو هم، بوجه عام، أناس قليلو التعبير عن أنفسهم، وهم يخافون المعطيات الرقمية (العددية) لاعتقادهم أن أخبارهم يمكن أن تصير خطراً عليهم بسبب الضرائب وغيرها من الالتزامات التي تفرضها الحكومات. لذا كنت أحتاج دوماً إلى تحضيرات طويلة وإلى كسب ثقتهم بصورة مطلقة، قبل أن أتمكن من تلقي أخبار موثقة فعلاً منهم. وقد ساعدني على فتح قلوبهم لي معرفتي الدقيقة بأعرافهم، ومشاركتي القلبية في حياتهم الفريدة وعلامات البهجة التي كانت تبدو على وجهي عندما كنت استمع إلى قصص ومغامرات الغزو والصيد في تلك اللحظات. كانت تنشأ لعبة سؤال وجواب معقدة ومتواصلة تتيح لي معرفة ما له من قيمة علمية من أحاديث. فهم لم يألفوا الحوارات العلمية أبداً. إنَّ الصبر الجميل والمعرفة الدقيقة باللغة العربية هما شرطان ضروريان لدراسة البدو.

صيحات الحرب

قام أوبنهايم بتسجيل أغلب صيحات الحرب (النخوة) للقبائل والعشائر العربية، وكذلك قام برسم وسم الحيوان لكل قبيلة بل كان في قسم منه يسجل أكثر من وسم موجود لدى القبيلة وهي إحدى الدلائل التي يمكن أن تميز قبيلة عن أخرى، وكذلك لمعرفة ملكية الحيوانات. وبالتالي أصبح لدينا رسوم الوسمات وصيحات الحرب. وقد استفاد المؤلف كثيراً من تسجيله لصيحات الحرب. حيث يمكن اعتبارها إحدى الوسائل التي دلل بها على صلة نسب القبائل بعضها ببعض، فعن طريق صيحة الحرب استطاع أن يربط علاقة شمر طوقة بشمر جربا. علماً بأن العزاوي في كتابه عشائر العراق قد صعب عليه معرفة ذلك بل بقي يدور حول الموضوع ولكنه لم يستطع الوصول إلى الربط.

وندع المؤلف يقول في القسم الثاني من الجزء الثالث من الكتاب ص٤٩٦ ج٣.

هناك تعبير «صلته» و«غرير» اللذان يستعملان أيضاً كصرخة حرب لدى بعض القبائل الفرعية صلاتي: غريري غرير. وبما أن كلاً منهما اسم قبيلة فرعية من أسلم النجدية، فلعله يمكننا الربط بين صرخة الحرب «وهيب». وقبيلة فرعية من الأسلم تحمل الاسم نفسه، ومما يؤيد ذلك بصورة خاصة هو وجود قرابة بين طوقة والأسلم. الواقعتان التاليتان توضحان ذلك. أولاً: كان يوجد في طوقة فعلاً فخذ يحمل اسم «صلته»، وقد ذكره روسو عام ١٨٠٨م التي تحتوي جميع أفخاذ شمر المرتبطة بفارس الجربا ولكن بما أن هذا الفخذ لا وجود له عند الجربا ولا عند الزقاريط، ولا عند زوبع فيجب أن يكون تابعاً للطوقة. وأما الواقعة الثانية، فهي أنَّ أسلم وطوقة يوجد في كل منهما فرع اسمه (المراير)، وهو اسم لا وجود له أبداً في أي مكان آخر.

ويتألف الكتاب من أربعة أجزاء، أُرفق بكل جزء منه مجموعة من الخرائط الجغرافية تظهر توزع وانتشار وتواجد القبائل المذكورة في ذلك الجزء، وكذلك أرفق المؤلف بعض شجرات أنساب القبائل ووضع بعض الصور في الجزءين الأول والثاني.

وفي بداية أي جزء أو قسم يقدم لنا فيه تمهيداً كبيراً يتناول ذلك الجزء، ثم يقدم مقالاً لكل قبيلة. إن المقالات والمقدمات الفرعية هي في الواقع دراسة تاريخية جغرافية سياسية واقتصادية تغطي كل جوانب القسم أو الفصل المبحوث، وفيه يتناول القبائل من حيث تكويناتها وتطورها ودورها السياسي وتاريخ هجراتها. إنَّ بحثه يتناول القبائل على ضوء المناطق الجغرافية أي اعتمد على التقسيم الجغرافي للقبائل الجزء الأول (المجلد الأول) صدر باللغة الألمانية عام ١٩٣٩م

ويتكون هذا الجزء من قسمين:
القسم الأول: ما بين النهرين (العراق الشمالي) وتناول المؤلف كل القبائل والعشائر الرحل، ونصف الرحل والفلح (الفلاليح). كما تناول المؤلف الحديث عن القبيلتين عنزة وشمر في قسم بلاد ما بين النهرين «العراق الشمالي» الذي يقع جزء منه الآن في سورية. منطقة الجزيرة. والقسم الآخر ضمن العراق الحالي بشكل مفصل. هنا نجد أنَّ المؤلف نفسه لم يقسم عنزة إلى عنزة سورية، أو عنزة العراق، بل جعل الفصل الذي يبحث حول قبائل وعشائر عنزة وشمر قائماً في جزء بلاد ما بين النهرين. إن أهمية هاتين القبيلتين ودورهما في تاريخ المنطقة، جعل المؤلف يستغرق في البحث عن تاريخ وأصول هاتين القبيلتين بشكل يغطي تاريخهما من عصر ما قبل الإسلام إلى الوقت الذي تمَّ فيه البحث. مضافاً إلى البحث في قبائل طي وعشائرها، وزبيد بقبائلها ألبو شعبان، وعقيدات، وجيس، وحرب، والنعيم، والحديدين. وغيرها من القبائل والعشائر.



عنـد تكـوين الـدول العربيـة في العصر الحديث، لعبت القبائل والعشائر دوراً أساسيا في تبلور شكل هذه الدول، فهناك قبائل أدمجت في الدول الحديثة الناشئة مثل سورية والعراق وفلسطين، وأصبحت جزءاً من المجتمع المستقر الحضري

وفي القسم الثاني:

تناول المؤلف القبائل الساكنة في المنطقة الجغرافية التي تختلف بعض الشيء عما هو معروف حالياً باسم سورية، حيث تعد منطقة الجزيرة ضمن التقسيم الجغرافي لمنطقة بلاد ما بين النهرين «العراق الشمالي»، وتشمل سورية في هذا الجزء كل سورية الحالية ما عدا منطقة الجزيرة. ويشمل البحث القبائل حول حلب المستقر والرحل وكذلك قبائل حماة، وقبائل ريف دمشق، والجولان، وقبائل عرب الجبل، والموالي، فضل، عمرو، وبني خالد وغيرها.

وأما الجزء الثاني (المجلد الثاني) صدر باللغة الألمانية عام ١٩٤٣م ويتكون من أربعة أقسام. القسم الأول: قسم فلسطين، يتناول القبائل الفلسطينية المتواجدة شمال وجنوب وبعض مناطق

وسط فلسطين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المؤلف قد استعمل التعابير التوراتية فى تسمية بعض المناطق الفلسطينية فمثلاً يسمى صحراء يهودا، ويقصد صحراء الخليل، وقد أشرت فى الهوامش إلى التسمية العربية الفلسطينية لتلك المناطق المختصة بالقسم الفلسطينى الذى لم يهود، ولم تفته الإشارة إلى موضوع الدور الصهيونى فى فلسطين.

بعد المقدمة التاريخية التى ابتدأت من العصر القديم إلى العصر الحديث عن فلسطين وجغرافيتها. تناول أوبنهايم القبائل الفلسطينية، والأحداث التاريخية التى حدثت فى القرنين الأخيرين، فقد بدأ بقبائل شمال فلسطين ثم عرج على قبائل أريحا والساحل، ومن ثم تحدث عن قبائل الداخل من الشمالنه، والكعابنة، والمساعيد. والرشايدة إلى القبائل المجاورة لسيناء، كالتياها وغيرها من القبائل والعشائر.

ويتناول القسم الثانى: سيناء حيث سار المؤلف على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والوصف الجغرافى للمنطقة، ثم متناولاً القبائل الساكنة فيه، وعلاقاتها مع بعض القبائل المصرية حيث يثبت انتقال بعض القبائل من مصر إلى سيناء والأردن كحال الحويطات. ومن القبائل التى يتناولها فى البحث الترابين والسواركة والحبالية والتياها، وغيرها.

وفى القسم الثالث: تناول المؤلف إمارة شرق الأردن وسار على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والوصف الجغرافى للمنطقة، متحدثاً عن القبائل الساكنة فيه ومنها سرحان وبنو خالد والعدوان وقبائل الكرك والعمرو والشوبك وغيرها.

ثم تناول المؤلف فى القسم الرابع الحجاز وبحث فى الجانب التاريخى، وتأثير الإسلام فى هذا الإقليم، ودور قريش، ومن ثم دور الأشراف فيه والصراعات التى حدثت فى تاريخ المنطقة. مشيراً بتفصيل إلى القبائل البدوية كهذيل، وحرب، وعنزة، وبنى فهيم، وعدوان، وحرب وبنو عطية.

وأما الجزء الثالث (المجلد الثالث): صدر باللغة الألمانية عام ١٩٥٢م فقد تولى مسئولية الإشراف عليه بعد موت المؤلف مساعده كاسكل وحده وهنا تجد أنّ الكتاب تضمن بعض المعلومات التى كانت غير متوافرة فى حياة أوبنهايم، وقد شمل منطقة شمال ووسط الجزيرة العربية وتشمل (نجد والكويت، وقطر، والحسا، والإمارات والبحرين). وقد سار على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والسياسى والوصف الجغرافى للمنطقة، وينقسم هذا الجزء إلى قسمين: القسم الأول: يتناول شمال ووسط وشرق الجزيرة العربية. حيث تتجلى البداوة بأجلى صورها. عند شمر، وحرب، وضفير، والدواسر، وبنى خالد، وبنى هاجر.

و الثانى يتناول: العراق «العراق الجنوبى».

حيث يشكل هذا القسم ثلثى الكتاب لكونه يشمل منطقة ذات كثافة سكانية عالية قياساً إلى كل الأجزاء التى يتناولها الكاتب قبائل وعشائر العراق «العراق الجنوبى» مثل عقيل، وخفاجة، والجبور، والحميدات، والخزاعل، وفتلة، وبنى تميم، وغيرها من القبائل والعشائر الصغيرة والكبيرة.

وصدر الجزء الرابع (المجلد الرابع): باللغة الألمانية عام ١٩٦٦م حيث سار المؤلف على النسق نفسه من حيث السرد التاريخى والوصف الجغرافى للمنطقة: لكن فى القسم الثانى من هذا الجزء سلط الضوء على نواح مهمة فى فهم النظرة الاجتماعية الدونية لعشائر هتيم وصلبة والخضير.. ولا بد من الإشارة إلى أن الفصل الثانى والثالث من هذا الجزء يختلف عن الأجزاء الأخرى من الكتاب فى معالجة جغرافية القبائل والعشائر «هتيم، شرارات، حوازم، صلبة، والخضير» ويعالجها ليس ضمن التقسيم الجغرافى الذى اتبعه فى معالجة القبائل والعشائر فى أجزاء الكتاب الأخرى بل عالجها بشكل وحدة واحدة، أى عندما يتحدث عن هتيم فيتحدث عن هتيم العراق، وشمال الجزيرة، والحجاز، وهكذا عن صلبه. وقد استعمل المؤلف كلمة غير أصلاء. أما البروفيسور كاسكل (معد ومنقح الكتاب) فقد استبدل كلمة «غير أصلاء» بكلمة المنبوذين، أى الباريا، وقال إنه يجدها أكثر تعبيراً من كلمة «غير أصلاء».

وفى المجلد الخامس من الكتاب وضع المؤلف مشجرات أنساب وخرائط جغرافية فى كل جزء، تبين مكان انتقال وانتشار وتواجد القبائل التى هى موضوع البحث حيث قمنا بجمع هذه الخرائط: وقسم من مشجرات الأنساب فى هذا المجلد.

كما عمدتُ لرسم مشجرات الأنساب لعدد من القبائل معتمداً بالأساس على مادة الكتاب بالإضافة إلى بعض المصادر الأخرى لأنّ وجود هذه المشجرات، والخرائط فى الكتاب يضيف مادة أخرى إلى هذا العمل الكبير.

كتاب الزاوية



يحيى حقى

كناسة الدكان

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار - بزجل جديد لبيرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق الفصحى - عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقى. وصول الصحيفة اليومية التى نشرت القصيدة - بالتشكيل - فى صفحتها الأولى (فلشعر شوقى دون بقية الشعراء مكان الصدارة مهما كانت الحوادث والأخبار)، أو المجلة الأسبوعية التى نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعاً - فى صفحة داخلية (لم تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئًا بالعامية. تركتها لبعض المجلات. فعصر صلاح جاهين كان لا يزال فى عالم الغيب) يا لها من لحظة مضيئة فى حياتهم. إنهم تربوا على حب الكلمة، سواء مكتوبة. سواء منطوقة. والإعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها الحق والمبتكر معًا على إمتاع الذهن والروح معًا.

الأيدى تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة إما مقام الكبير أو دلال الصغير، خطف يعرض الورق للتمزق، ولكنه خطف فى نطاق الود لا العداء، فهو مصحوب بالضحك والمعابثة. إن كان هناك غضب عند الهزيمة، فهو مصطنع. سريع الزوال، ينتهى بالمهادنة. لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه، ولنفسه بنفسه. لابد لهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنـاً من اللغة وإجادة للإلقاء وهيامًا بالشعر إلى حد أن تأخذه الجلالة، ليتلو النص عليهم ملتزمًا نغمة الإنشاد وحركة الخطيب، لتشترك الأذن أيضًا فى المتعة.

من الباقورى وحسن البنا إلى «الهيب هوب» و«الراب»

دفات الدف الإسلامية



تدريجيًا أخذ النشيد (الإخوانى أو الوهابى كما يصنفه البعض) مكانه فى العديد من المناسبات فى مصر. من التجمعات النقابية والطلابية، وحتى الاحتفال بالزفاف أو قدوم مولود جديد فى العديد من شرائح المجتمع وخاصة الطبقة الوسطى. ورغم التاريخ الطويل لهذه النوعية من الأغنيات، وانتشارها الملحوظ فى السنوات الأخيرة من القرن الفائت. إلا أن ندرة الدراسات الاجتماعية أو النقدية التى تتعرض للظاهرة، وتلاحظ تطورها اللافت، أو تعمد إلى تحليل مضمونها الإعلامى كان ملحوظًا أيضًا.

فى هذه الدراسة التى عكف عليها باحثان فرنسى ومصرى إطلالة على هذا التاريخ الطويل من المحاولات الأولى للباقورى وعبد الحكيم عابدين والبنا وحتى أغنيات «البوب» الإسلامية.. حسب تصنيف منشديها وكثير من مستمعيها.

المحـــرر

حســـام تمـــام وباتريك هانى

※ كان حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين أول قائد إسلامى حديث يلجأ إلى الأغنية. لقد كان البنا ابنا لحقبة تؤمن بالفنون الاجتماعية، وتعتبرها وسيلة لتحريك وبلورة الميول السياسية. وشكل انخراطه فى الصوفية رؤيته للموسيقى، وبدا أن البنا يسعى إلى نوع جديد من الفن هو ما أطلق عليه اسم «الفن الهادف». ومن ذلك المنظور أدخل البنا العديد من صور التعبير الفنى فى برامج تشكيل كوادر حركته؛ وعلى رأسها الأغانى الدينية و«الاسكتش»، ثم المسرح الإسلامى الذى أسسه شقيقه عبدالرحمن.

كان ذلك فى فترة لم تكن السلفية قد أعلنت عن وجودها بعد فى صفوف الإخوان، وكان للنساء وجود ملحوظ ليس فى صفوف الحركة فقط بل وعلى خشبة المسرح الإخوانى، لا سيما نجمة المسرح الشهيرة آنذاك «فاطمة رشدى» التى عملت فى مسرح الإخوان!.

إذن، كان النشيد حتى ذلك الحين يتبع حركة اجتماعية فى طور التشكيل، وبذلك كان معتمدا كلية على السياسة: كلماته نضالية، كتبها الشيخ احمد حسن الباقورى، بعضها الآخر كان يكتبه عبد الحكيم عابدين زوج أخت المؤسس. لقد كان النشيد مصاحبا للتظاهرات والتجمعات فى المناسبات والاحتفالات الدينية مثل مولد النبى والعام الهجرى الجديد والعيد، فى تلك الأوقات كان الأفراد جميعهم ينصهرون فى حركة موحدة، يدا بيد، يرفعون أيديهم نحو السماء أثناء التظاهرات.

بترتيب مع:
مجلة القرن العشرين «الفرنسية»
وهى فصلية محكمة عدد يونيو ٢٠٠٤

ترجمة: يسرا زهران



فى جميع الأحوال، فإننا إذا أردنا البحث عن جذور صوفية عامة فى مفهوم «النشيد» لوجدنا أولا أن محتوى الكلمات نفسه كان جديدا، بلا علاقة حقيقية مع الأشكال الموسيقية التقليدية، وتلك كانت بداية تسييس النشيد، صحيح أنه من الممكن أن نجد علاقة بينه وبين النشيد الصوفى إلا أننا نجد بالمقابل عدة فوارق بينهما، يتمثل أولها فى إخضاع النشيد للسياسة ووضوح الإيقاع فى موسيقى النشيد الذى تصاحبه عدة آلات موسيقية، كى يمثل النشيد فى النهاية منتصف الطريق بين النشيد القومى والمارش العسكرى.

وعليه صار النشيد الذى كتبه الباقورى والذى يحمل اسم «يا رسول الله» أقرب إلى النشيد الرئيسى للإخوان وتقول كلماته:

«يا رسول الله هل يرضيك أنا
إخوة فى الله بالإسلام قمنا
ننفض اليوم غبار النوم عنا
لا نهاب الموت بل نتمنى
أن يرانا الله فى ساح الفداء
....
أشعلت دعوة الإخوان فينا
روح آباء كرام فاتحينا
أسعدوا العالم بالإسلام حينا
فاستجبنا للمعالى ثائرينا
وتسابقنا إلى حمل اللواء
....
إن نفسا ترتضى الإسلام دينا
ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام فى أرض مهينا
لن تكون فى عداد المسلمين الأوفياء

وبدا أن ساعة المواجهة قد حانت، وتظهر القناعة التامة بقرب النصر فى نشيد الكتائب الذى كتبه زوج أخت حسن البنا، وتقول كلماته:

هو الحق يحشد أجناده
ويعتد للموقف الفاصل

فصغوا الكتائب أسادا
ودكوا دولة الباطل
إلى النصر في الموقف الفاصل



مأساة أعوام الرصاص

لكن ليلة النصر الفاصل الموعودة لم تأت أبدا، بل أتت بدلا منها سنوات الرصاص تحت حكم عبد الناصر. والتي شهدت انتقال الجماعة إلى السرية مما أعاق نمو الحركة الفنية للإخوان. وظل النشيد حبيسا وراء القضبان، وفي الوقت الذي كان نشيد أعوام الثلاثينيات والأربعينيات محملا بتفاؤل البدايات الأولى، صار النشيد في الخمسينيات والستينيات محملا بالمأساوية. في تلك المرحلة بزغت أسماء سيد قطب، أبو الأصولية الإسلامية في مصر، وهاشم الرفاعي، الذي كان طالبا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة واغتيل في ظروف لم يتم الكشف عنها بوضوح إلى اليوم.

كان هاشم قريبا من الإخوان المسلمين ولكن دون أن يكون واحدا منهم وكان ينشد ألم ويأس المرحلة في كلمات قصيدته «أبتاه»:

أبتاه ماذا قد يخط بناني
والحبل والجلاد منتظراني
هذا الكتاب من زنزانة
مقرورة صخرية الجدران
لم تبق إلا ليلة أحيا بها
وأحس أن ظلامها أكفاني

نلاحظ أن نبرة النشيد ليست وحدها هي التي تغيرت، بل تغير معها محتواه نفسه. في زمن حسن البنا كانت المواضيع المسيطرة عليه هي بذل الجهد في سبيل الخير وتوحيد المسلمين أو عودة الخلافة، لكن لم تنته الخمسينيات من القرن الفائت حتى شهد النشيد تفصيلا جديدا للمفاهيم يسيطر عليه أمران: «الجهاد» بمفهومه العسكري. والثاني هو «الغربة» ذلك الشعور بوجود منفى داخلي في قلب كل مؤمن تقي في مجتمع يبتعد عن الإسلام. وهو ذات الشعور الذي أوجد فرعا كاملا من الأدب هو أدب الغربة، والذي ارتكز على قول النبي «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء».

سعد سرور، وجمال فوزي وزكريا التوابيتي، كلها أسماء لشعراء مقربين من الإخوان، مروا جميعهم بتجربة السجن، وكتبوا حول التعذيب، والتمسك بالإيمان على الرغم من المعاناة، والحياة في ظل السجون. وبدأ الانتقال تحت قلم وكتابات سيد قطب من مجرد توصيف حال الغربة إلى تعظيم فكرة العزلة عن المجتمعات الجاهلة، أو ما يطلق عليه اسم «العزلة الشعورية»، وهو ما ظهر في نشيد سيد قطب الذي يحمل اسم «الغرباء»:

«غرباء ولغير الله لا نحني الجباه
غرباء وارتضيناها شعارا للحياة
إن تسل عنا فإنا لا نبالي بالطغاة
نحن جند الله دربنا درب الأباة

وكان طبيعياً أن تؤكد أناشيد أيامها على الصبر والحفاظ على المبادئ والمثل العليا في زمن الضعف، كما يبدو في نشيد «أخي أنت حر»:

«أخي أنت حر وراء السدود
أخي أنت حر بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصما
فماذا يضيرك كيد الحسود

وفي سياق مزدوج من ضعف الوجود العام للإخوان المسلمين على الرغم من إعادة تنظيمهم بالكامل بعد خروجهم من السجون عام ١٩٧٣ وتقاربهم مع المملكة العربية السعودية، بدأت الوهابية تفرض إيقاعها على النشيد الإسلامي: تم منع كل الأدوات الموسيقية فيما عدا الدف، وأضيفت أناشيد المناضلين السوريين الفارين من قمع النظام البعثي الوحشي للإخوان في حماة عام ١٩٨٢، إلى أناشيد سيد قطب. وظهرت السيطرة السياسية والعسكرية الأصولية بعنف على النشيد على يد منشدي هذه الفترة البارزين أبو مازن وأبو راتب وموسى مصطفى. وولدت نشيدا مثل «المجد القادم» الذي ينشد على خلفية من أصوات حوافر الخيول وهي تضرب الأرض، أو نشيد مثل «ثوار.. ثوار» الذي يهدر ب:

«ثوار.. ثوار
سيف ومصحف يا أحرار
لازم نصبر مهما طال
وبعون الرب الجبار
بعد الليل نهار...»

ما أن انتصفت السبعينيات حتى صارت الحركة الإسلامية من جديد تحت لواء الإخوان، متواجدة في كل مكان: في الاتحادات الطلابية والنقابات المهنية والمجالس المحلية والبرلمان.. كانوا ينظمون المؤتمرات والاحتفالات والمظاهرات والصلوات العامة للاحتفال بالعيد في الخلاء، وظهر جيل جديد لم يعان من ويلات السجون، يسعى للخروج من «ثقافة السرية» التي كانت تسيطر على الأجيال السابقة عليه، كي يبدأ في مد مشروع الأسلمة إلى خارج المحيط السياسي.

تضاعفت التجمعات الإخوانية، وصارت الأناشيد مصاحبة لها باستمرار، وراحت فرق الأغاني تتشكل ما بين القاهرة والإسكندرية: تأسست فرقة الهدى عام ١٩٨٩.. تبعتها فرق الفتح والندى وزهرة المدائن.. في بداية التسعينيات، وانتشرت مهنة جديدة في مصر، هي مهنة المنشد الذي يشدو بالأغنيات الدينية، واتجه رجال مقربون من الإخوان أو ينتمون إليهم إلى هذا اللون الغنائي الجديد، لون الدعوة بالغناء.

ولعب عامل آخر دورا في ذلك، هو عامل المهرجانات الموسيقية التي أقيمت بهدف دعم القضية الفلسطينية، وكانت قد بدأت منذ عام ١٩٨٧ تحت إشراف الإخوان المسلمين الفلسطينيين، كان هؤلاء يتزايدون في بلاد الخليج وخاصة الكويت «ذات التواجد الفلسطيني الكثيف وقتها»، انطلاقا من الفرق القريبة بشكل عام من حماس، وهي فرق شديدة الميل نحو العسكرية وبعيدة عن السلفية في آن واحد. وهو ما سمح بالآلات الموسيقية في بلاد الخليج في الوقت الذي كان الضغط السلفي في مصر يمنع أن يصاحب الغناء أي آلة موسيقية باستثناء الدف. ومنذ عام ١٩٨٩ ومع انفتاح سوق الكاسيت، وجدت حركة مهرجانات الأناشيد لدعم الانتفاضة صدى كبيرا في مصر، وأعادت تشكيل نفسها تحت إشراف الإخوان في الجامعات، خاصة في جامعة الإسكندرية، وظلت تلك المهرجانات تقام كتقليد سنوي هناك حتى عام ١٩٩٣ عندما بدأت ضربات النظام تتوالى على الإخوان.

ثم كان العامل الثالث الذي ساهم في تحويل هذه الفرق إلى الشكل المؤسسي واستقلالها عن السياسة، وهو التوجيه الذي أطلقته المكاتب الإدارية للإخوان في المحافظات خاصة القاهرة والإسكندرية وأعطى لهذه الفرق الحق في أن تستقل بعيدا عن الرقابة التنظيمية المباشرة من الجماعة، وهو ما أتاح لها أن تنمي نفسها خارج نطاق سيطرة الإخوان، ودون ان تلزم نفسها بقواعد الدعوة الكلاسيكية.

وبذلك، وبدءاً من العام ١٩٩٢، تحررت فرق النشيد من السيطرة الأيديولوجية للإخوان، وبدأت تبتعد به عن السياسة، ومنذ ذلك الحين صار منطق العرض والطلب هو الذي يحكم تطور النشيد، وليس مشاكل السياسة أو علاقة الإخوان بالسلطة. لقد بدأ النشيد يخضع بوضوح لآليات السوق.

من الجامعة إلى فنادق الخمس نجوم

ولنتأمل حالة فرقة «الهدى».. لقد ظهرت تلك الفرقة في إطار مهرجانات الأناشيد لدعم الانتفاضة الفلسطينية... أشرف على تأسيسها الشيخ عباس السيسي عام ١٩٨٩، وهو أول عسكري ينضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في عهد الملك فاروق، وكان وراء تأسيسها فعليا عمرو أبو خليل، الناشط الكبير في الجماعة الإسلامية (الإخوان المسلمين) في جامعة الإسكندرية في الثمانينيات.

كانت الفرقة في بدايتها مكونة من أعضاء اللجنة الفنية للإخوان، وهي مؤسسة تتولى مهمة إدارة كل صور التعبير عن آراء الإخوان، بما فيها الشعارات في المظاهرات والاسكتشات المسرحية في الجامعات وكلمات الأناشيد، كان عدد أعضاء الجماعة يتراوح بين سبعة أو ثمانية أفراد، معظمهم من طلاب جامعة الإسكندرية، نشطت في أول الأمر في المجالات الكلاسيكية للحركة الإسلامية مثل المؤتمرات والمظاهرات والاحتفالات الدينية... ثم بدأوا كذلك في إحياء الأفراح على الرغم من الجناح السلفي في الحركة الذي يقبل بصعوبة صياغة الإسلام في كلمات الأغاني ويقبل بصعوبة أكثر تحصيل عائد منها.

بدأ الزواج الإسلامي يفرض نفسه في قلب البرجوازية المسلمة، وراحت فنادق الخمس نجوم ونادي سموحة نادي البورجوازية الراقي يقدمون عروضا لمثل هذا النوع من الزواج الذي يحتفظ بملامح إسلامية في الجانب والمظهر الأخلاقي أكثر من احتفاظه بها في الممارسات الدينية المحددة.

(يلاحظ أنه في الإسكندرية يرفض



فندق الشيراتون وحده إقامة مثل هذا النوع من الأفراح الذى يصر على عدم الاختلاط بين الرجال والنساء)

وبدأت الهدى تدخل بعدها إلى سوق الكاسيت: فى البداية، كانت تغنى فى الأفراح وتقوم ببيع شرائطها إلى المدعوين، وبعدها راحت المكتبات الإسلامية تنشر هذه الشرائط، ثم جاء دور المساجد، وأخيرا قامت الفرقة بتسجيل سلسلة من شرائط الكاسيت فى الاستديو تحمل اسم «أفراح الهدى».

لقد صمدت الهدى فى وجه الضغوط السلفية التى كانت قوية داخل جماعة الإخوان فى منتصف التسعينيات، وساعدها على ذلك أنها كانت فى ذلك الحين قد استقلت بما يكفى عن الإخوان المسلمين بحيث لا يتم التعامل معها باعتبارها منهم.. ومن ثم فقد راحت «الهدى» تستخدم كل الآلات الموسيقية فى أدائها ضاربة عرض الحائط بكل الآراء السلفية، لتنتج ألحانا تتأرجح ما بين الإيقاع الشبابى والشعبى. أما محتوى الأغنيات نفسه، فبدا أكثر نعومة وتلاشت النداءات الثورية منه.

ثم ظهر الجيل الثانى من الفرقة فى نهاية التسعينيات: جيل أكثر احترافا، وقريب كذلك من الإخوان المسلمين، أدار ظهره للسياسة، وفتح ذراعيه للرومانسية: مما دفع الفرقة تدريجيا باتجاه ثقافة الغناء الشعبى الذى كانت السلفية تحاربه لأكثر من ربع قرن.. وبدا ذلك فى شريطها الأخير «من أفراح الهدى» الذى يحمل طابعا شعريا غير ثورى، ويضم أغنيات مثل «عصافير الجنة» «وبلبل الأفراح» و«حور الجنة»!

وتبدو قصة فرقة الهدى متشابهة إلى حد ما مع قصة فرقة البنات التى حملت اسم «سندس» نسبة إلى الحرير الذى تصنع منه ملابس أهل الجنة. لقد بدأ كل شىء فى قلب مجموعة من البنات الطالبات فى جامعة القاهرة، أغلبهن من طالبات كليات الهندسة والطب، كن ينظمن حفلات فى الجامعة للفتيات قبيل الزواج بهدف «إدخال البهجة على قلب الفتاة التى تنوى الزواج» كما تروى رحاب سلامة المسئولة عن المجموعة.

وفى نهاية التسعينيات بدأ الطلب يتزايد على الفرقة لإحياء أمسيات خارج نطاق الجامعة. هنا طرحت مسائل الاحتراف والمكاسب المادية المتحققة للمناقشة، وارتضت الفرقة فى البداية أن تنال مقابلا من الجوائز الرمزية التى تخصصها فقط لتغطية مصاريف التشغيل دون الحصول على أية عوائد أو رواتب إضافية لعضواتها. الأمر الذى أتاح لهن تحسين نوعية آلاتهن الموسيقية، وابتكرن لأنفسهن زيا موحدا ثم اخترن الاسم فى النهاية : سندس.

وبذلك تشكلت أول فرقة «موسيقى إسلامية» للنساء، وأمام الانتقادات التى وجهتها إليها الفرق النسائية الأخرى، والتى اعتبرت الحصول على مكاسب مادية أمرا يتناقض مع الدعوة، قالت رحاب سلامة: «هل من الضرورى أن يكون كل مشروع إسلامى مشروعا خيريا؟ وهل الإسلام يعارض الربح؟»..

الواقع أن نجاح هذه الفرقة قد صعد بها حتى فنادق الخمس نجوم، وفى الصيف كن يقدمن خمسة عروض أسبوعيا (بدءا بليالى الحناء ومرورا بحفلات الخطبة وحتى احتفالات الحجاب) وهو ما دفعهن لاستخدام الأورج الكهربائى بعد أن صارت الطبول مجهدة بالنسبة لهن، ولنفس السبب بدأن فى استخدام مكبرات الصوت.

لقد أدت مضاعفة أعداد الكوادر والانفتاح المطرد للفرقة على جمهور جديد، إلى أن تقوم الفرقة بتنويع اجندتها فى إطار السياق المحدود الذى تمنحه الأناشيد الإسلامية، والتى لا يوجد بينها ما هو موجه للمرأة. بالتالى وجدت الفرقة أنها مضطرة إلى تركيب كلمات إسلامية على الأغنيات العربية الكلاسيكية الموجودة بالفعل، أو القيام بإنشاد هذه الأغنيات مع حذف المقاطع «غير الملائمة دينيا» منها. وهو ما قامت به المجموعة بالفعل فى ألبومها الأول الذى حمل اسم «زى البنات» وهو اسم لأغنية شهيرة كتبها المطرب الشهير سيد درويش وكان أبرز أشهر من غناها ممثلة الإغراء مها صبرى فى ثلاثية نجيب محفوظ!

من النشيد إلى الأغنية الإسلامية

فرض النشيد نفسه، بوصفه شكلا موسيقيا جديدا، كعلامة مميزة لديناميات التحول إلى الأسلمة. لقد تمت إعادة اكتشاف النشيد من جديد ليصبح عنصرا فى الحركة الثورية وفى السلفية المتخيلة وفى أزمة الهوية، كل ذلك فى آن واحد، كان النشيد هو ما ظهر على الساحة الموسيقية (هناك أكثر من ٥٠ فرقة تتقاسم السوق فى مصر) وصاحبه الحجاب على ساحة الأزياء، وموائد الرحمن فى مجالات الخير، وأخيرا الدعاة الجدد.

كلها علامات مميزة للتحول إلى الأسلمة التى صارت تدخل فى فكر عام خال من التوجهات السياسية فى التسعينيات ويكافئ نفسه بمنطق السوق وثقافة الجماهير.

كان ذلك هو «النشيد» الذى كان لابد أن يتحول إلى «الأغنية» الإسلامية وهو الاسم الذى استقر بعد المواجهة مع المنظومة السلفية والتى بدأت مبكرا... ظهرت فرق أغان إسلامية فى سوق الكاسيت متخصصة فى إحياء الحفلات الخاصة - كالأفراح والسبوع والختان- وحملت أسماء جذابة وحالمة مثل أندلسية، زهرة الأندلس، كنوز، تغريد، السراج، الزمن الجميل، الندى، مرحبا. كانت الفرق الإسلامية متشددة عند انطلاقها، تصر على مبدأ منع الاختلاط بين الجنسين، وكانت الفرق النسائية مثل «سندس» و«زهرة البنات» لا تشدو إلا للنساء فى احتفالات خاصة بهن، وبالتالى ظلت هذه الفرق ممنوعة من دخول سوق الكاسيت (فصوت المرأة يثير الرغبة، ومن بعدها الفوضى، لذلك فهو عورة بالنسبة للرجال)، وتحايلت فتيات الفرقة على تلك العقبة بتسجيل أغانى الألبوم فى الاستديو بصوت فتاة صغيرة غير بالغة.

كان الزواج الإسلامى فى بداية الأمر يمنع الاختلاط، ثم صار بعدها احتفالا يتم فى قاعة واحدة مع التأكيد غير الصارم على شكل محترم للاختلاط: وصار ذلك معيارا للاحترام لدى البورجوازية المتدينة التى لم تكن مستعدة لتقبل الرؤية السلفية فى المنع البدنى للاختلاط.. لقد بدا أن وحدة وتجانس التيار الإسلامى هى أول ضحية لنجاحه وانتشاره.

أما الفرق ذات التوجه التربوى التى لا تحيى الأفراح مثل الجيل. فلم تضطرها الأفراح إلى الميل نحو الشاعرية، وظلت قادرة على الالتزام بنهجها التربوى، ولكن أتاح لها تحررها من منطق الطلب المباشر المزيد من الابتكار فى حقل الموسيقى. فتمزج فرقة مثل الجيل فى ألبومها الأخير ما بين الإيقاع العربى الحديث، new age، وبين الجاز، بشكل أقرب إلى أسلوب المغنى الشهير ربيع أبو خليل، ومن المنتظر أن تعد فيديو كليب إسلاميا لأول مرة فى تاريخ الأغنية الإسلامية[*].

وهنا لا يكون لروح وأجواء أفراح الزواج دور كبير فى التطوير، إذ تصبح الكلمة العليا لقواعد الأداء الموسيقى الصرف واحترافه، فعلى سبيل المثال يمنح عازفو فرقة «النور» أنفسهم كلية للموسيقى، إذ إن الموسيقى تحتاج إلى محترفين، وهو ما يتعارض مع فكرة النضال. والمؤكد أنه فى تقييم الفرق الموجودة فى سوق الكاسيت، فإن المهارة تأتى فى المرتبة الثانية بعد الانخراط الأيديولوجى. أما الملحنون فيتم اللجوء إلى خدماتهم دون أدنى اعتبار لتوجههم أو مظهرهم الدينى، مثل حسن إش إش وياهر الحريرى وكلاهما من الملحنين المعروفين الذين يتعاملون مع المطربين الكبار.

إن «الأسلمة» لم تتلاش، لكنها تميل إلى إعادة صياغة نفسها على أسس غير سياسية، بل أخلاقية مثل السمعة والاحترام والتقوى. بمعنى أنها تستنبط من المجتمع وليس من روح الجماعات التى تكونه.

ولم تتوقف التجديدات فى المحتوى فيما يطلق عليه اسم «الأغنية الإسلامية» بل تتصاعد كلما خرجت الفرق من عباءة الوصاية المباشرة للتنظيم الإخوانى. وكانت كلاسيكيات الأناشيد النضالية هى أول ما فقد جزءاً من رونقه، فكلمات مثل «لبيك إسلام البطولة» و«ثوار» و«أنا عائد» ليوسف القرضاوى، كانت من قبل تلقى دون موسيقى، ثم تم تركيبها على موسيقى ذات إيقاع هجومى، تماما مثل أى أغنية ثورية.. ولكن مع التطور الأخير لانت النبرة التى تشدو بها حناجر أعضاء فرق الغناء الجديدة مثل فرق الجيل وكنوز.

أطلقت فرقة كنوز سلسلة من شرائط الكاسيت تحت اسم «بشائر النصر».. خصصتها لفلسطين وأنشدت فيها أغنيات مثل «خدوا بالكم» ظهر فيها بوضوح



تخفيف الثقافة الجماهيرية للحماس الثوري. وأعادت «كنوز» غناء نشيد «رددي يا جبال» الكلاسيكي الثوري ولكن بصوت هادئ تصاحبه الموسيقى.

في كل شيء، بدأ محتوى النشيد يميل إلى النعومة، وبدأت الرومانسية تجد طريقها إليه (على سبيل المثال، نداء الحب لفرقة السراج)، وبدأت روح السخرية والفكاهة تتزايد: فتطلق فرقة مثل الوعد على ألبومها الأخير اسم «جوزناه وخلصنا منه» بينما تشدو جماعة كنوز بهذا المقطع: «يا جماله يا جماله يا جماله.. عريسنا تايه في دلاله»!.

ومن الواضح أيضا تزايد التداخل بين الأغنية الإسلامية وثقافة الجماهير في فترة التسعينيات، وتزايد معها بالمثل استخدام إيقاعات الأغاني العربية الشائعة التي يتم تركيب كلمات إسلامية عليها. فأغنية لمطرب مثل عمرو دياب يقول مطلعها «سن كام سنة وانا ميال ميال.. وفي حبك انا مشغول البال» أصبحت تغنى في الاحتفالات الإسلامية بنفس الإيقاع ولكن بكلمات أخرى تقول «من كام سنة وانا ديني الإسلام... وشريعتي أنا سنة وقرآن»!! بل وتحولت أغنية الأطفال الشعبية «بابا فين» إلى أغنية إسلامية تقول «المسلم فين» وأعادت زهرة الأندلس غناء أغنية «على دا العودة» وهي أغنية شامية مشهورة غنتها المطربة اللبنانية صباح بتوزيع جديد، بينما يتم الإعداد الآن لوضع أغنية المطربة الشابة شيرين «جرح تاني» في قالب إسلامي!.

في أغاني أو زفة الأفراح التقليدية، كانت تتم الإشادة بأسماء الشخصيات الهامة من الحضور أو أبناء الحي وأقارب العروسين، وقد اتبعت الأغاني الإسلامية نفس التقليد ولكن تم محو هذه الأسماء كي يحل محلها أسماء الرموز الإسلامية الكبرى:

«إحنا الإخوان.. ما فينا جبان

إخوان البنا.. الموت نتمنى

منا الفرغلي.. أبدا ما يولي

والتلمساني.. راجل رباني

والزعفراني.. من الجيل التاني»

والفرغلي - أو محمد فرغلي - قيادة تاريخية حكم عليها بالإعدام أيام عبد الناصر، وعمر التلمساني هو المرشد الثالث، أما إبراهيم الزعفراني فهو قيادة سكندرية وسيطة.

وهكذا بدأ نوع جديد من الغناء يتشكل على جبهة النشيد الإسلامي والثقافة الجماهيرية، هذا النوع هو ما يطلق عليه اسم «الأغنية الشعبية الإسلامية»، ويستعير أسلوبه من أجندات مختلفة، بدءا من الأناشيد التقليدية، ومرورا بالجاز وحتى إعادة صياغة للبوب المصري أو الموسيقى الشبابية التي بدأت من جانبها تميل شيئا فشيئا إلى التدين.

وفي الوقت الذي تسيطر السياسة على اهتمامات العالم كله أثناء الانتفاضة، نجد للأمر نكهة مختلفة عند فرق الأغاني الإسلامية: فالاهتمام بقضايا السياسة يتم في إطار ثقافة جماهيرية منفتحة. تنزع فيه السياسة من الأغنية لا باختفاء الموضوعات السياسية من عناوينها وكلماتها وإنما بتعميم الأسلوب الذي يتم به تناول السياسة، بمعنى آخر: فإننا نعود من جديد إلى صورة من القومية العربية التي تحمل لمسة دينية للعالم أجمع، تمتزج فيها كل الإرهاصات، إلى الحد الذي يجعل فرقة عتيدة من فرق الإخوان المسلمين الغنائية مثل الجيل، تستعير لحن أغنية للمغنية اللبنانية جوليا بطرس المسيحية الأصل تحمل اسم «قاطع» لأنها تدعو إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية.

ومع تضاعف شعبية الأغنية-النشيد، الذي امتد خارج الدوائر الإسلامية بمعناها الحرفي، صار محتوى وموسيقى أغنياته أكثر عمومية، وبدأ مطربو «البوب» العرب «يتشددون». فأعلن عمرو دياب عن نشيده الصوفي الأول (يا رسول الله يا محمد). وسجل محمد فؤاد أنشودته في المدح الديني مثل «الحق»، وسجل مصطفى قمر أول دعاء له يحمل اسم «الرحماء». أما محمد الحلو فقد غنى أغنية «صرخة ميلاد» عن فلسطين التي احتلت أولوية كبيرة حتى خصص لها ألبوم كامل باسم «القدس تصرخ» ضم عددا من الأغنيات ذات الطابع الديني. كما صدر ألبوم متنوع (كوكتيل) يضم ١٢ أغنية دينية لكبار المطربين المصريين، مثل: محمد رشدي، وعلي الحجار، ومحمد ثروت، وهاني شاكر.

أما محمد منير أشهر نجوم الغناء المصريين فقد خصص ألبومه قبل الأخير «الأرض السلام» بأكمله للمدائح الصوفية مستلهما تراث كل من الطائفتين الشاذلية والميرغنية. وكلتاهما متأصلة في النوبة، بلده الأصلي، وكان ذلك الألبوم هو أيضا ما أتاح لمنير أن ينال شعبية واسعة في الغرب، إذ كان أول ألبوم يسجله هنالك. فوضعته رسالة «الحوار الثقافي والدعوة لإسلام سلمي» في قلب الأحداث العالمية المتلاحقة والتي يمثل فيها الاهتمام بالإسلام قاسما مشتركا.

وبذلك تمت إعادة تشكيل النشيد في قلب حركة إسلامية سلفية لكنها في طور الانفتاح من جديد على الثقافة المحيطة ممثلة في الغناء العربي، وصار النشيد (الإسلامي سابقا) متأصلا بقوة في الثقافة الجماهيرية التي تميل إلى التعددية أكثر من الإسلامية، حيث يحتل الإسلام مكانه بين الثقافات الشابة الأخرى دون أن يلغيها كلية، ومرة أخرى بدا أن امتداد الأسلمة يأتي على حساب الإسلاميين، لأنه يبتعد عن السلفية المتخيلة، وعن السياسة من بعدها.

تظل «الأصولية الجديدة» من دون شك سواء في صورتها العسكرية أو السلمية هي الطريق الملكي للخروج عن الحركات القومية الإسلامية. فهي تقترح إسلاما عالميا، نموذجا صالحا للتطبيق في كل زمان ومكان لأنه لا يضرب بجذوره في مكان محدد، كما أنه يتكيف مع ظروف العولمة، بالتالي فهو يعارض الثقافات المحلية باسم عالمية المرجعية الدينية.

هناك عدة وسائل للخروج من الإسلام السياسي مع البقاء داخل إطار الإسلام، والانخراط في ديناميات العولمة. وربما تعد إعادة صياغة الأسلمة عبر الثقافة الجماهيرية إحدى هذه الوسائل. لقد أوضحت تلك النبذة القصيرة عن تاريخ النشيد الإسلامي سابقا كيف يمكن أن تستقل أجندة إسلامية استخدمها الإخوان المسلمون كأداة في المواجهة السياسية، عن إطار المنظومة السلفية: إذ إن فكرة الهواية والجمال تتعارضان ولا شك مع السلفية.

وتفرض الثقافة نفسها من جديد على هوامش دينامية الأسلمة التي وقفت كثيرا ضدها. فالإسلام العالمي وأثيرته السلفية يتعارضان مع التقاليد المحلية بزعم ابتعادها عن حقائق الكتلة الفكرية المعروفة. في الوقت نفسه فإن هذه الثقافة ليست الثقافة التقليدية التي ترفضها السلفية: بل هي ثقافة شابة تحيا بإيقاع عصرها، فوجود الموسيقى العربية الكلاسيكية يكاد يكون منعدما في الاستخدامات المختلفة لفرق النشيد: إذ يتم الاعتماد على عمرو دياب وشيرين.. ونجوم الغناء الشبابي العربي، ولكن دون أن تكون هناك نسخة إسلامية من أغاني أم كلثوم مثلا. هذه هي الثقافة الجماهيرية المعارضة للثقافة الكلاسيكية، أي الثقافات الفرعية للشباب الذين يتعايشون مع العولمة ويقبلون التعددية.

لقد أثبت النشيد قدرته على إرساء قواعده من جديد في مختلف الثقافات الشابة. فهو في أمريكا مثلا يضرب بجذوره في موسيقى الهيب هوب، ويستخدمها كتعبير عن الاعتناق الجديد للدين، وكأحد عناصر ثقافة جديدة سوداء تعيد تشكيل نفسها حول الإسلام. وفي جنوب شرق آسيا يتلامس النشيد مع إرهاصات موسيقى العصر الجديد أو new age مع أسماء لفرق مثل «ريحان» و«قطر الندى»، وعلى أنغام موسيقى الأفلام الهندية يضع روما ايراما، مطرب الروك الإندونيسي السابق، كلمات دعوته. وفي هولندا فإن فرقة الهدى التي كونها عدد من المهاجرين المغاربة قد استخدمت موسيقى الروك لتعبر بها عن نفسها. بينما ينطلق الراب الإسلامي في فرنسا من الضواحي على يد الشعراء الأفريقيين الجدد على سبيل المثال، وهم المدافعون القدامى عن الاتحاد بين المؤسسات الإسلامية في فرنسا والذين ابتعدوا اليوم عن أرضية السياسة الزلقة.

بعبارات أخرى، فإن الثقافة التي ترسي دوافع الأسلمة في كل مكان. وفي كل الوقائع المحلية، تشهد هذه المرة، ليس على فشل الإسلام السياسي، وإنما على فشل العالمية السلفية التي تصف نفسها بأنها محاولة إرساء دعائم إسلام بلا وطن وبلا أرض على حد تعبير الباحث الفرنسي أوليفييه روا. ■

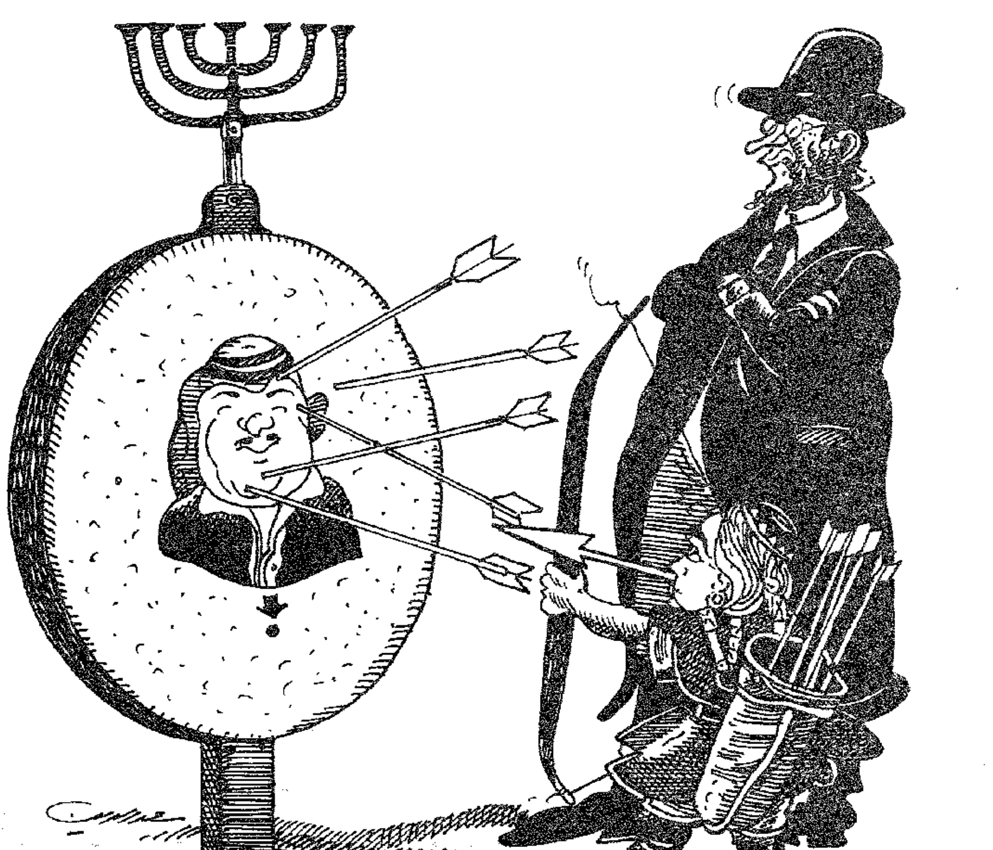
(*) صدر بعد الدراسة لأول مرة فيديو كليب إسلامي (المعلم) للمطرب البريطاني سامي يوسف تبثه الفضائيات العربية والتلفزيون المصري باستمرار).


الآن وفر وقتك .. واتصل
EGYPTAIR Call center
بُعد جديد للخدمة
من أي تليفون أرضي
٠٩٠٠٧٠٠٠٠
من أي موبايل
سعر الدقيقة ١ جنيه
١٧١٧
إختيار الحجوزات التي تناسب سفرك
إختيار أفضل سعر لتذاكر السفر
معرفة مواعيد الرحلات
callcenter@egyptair.com.eg
مصر للطيران
EGYPTAIR

نايل محمد شامة

صيغت كتب المرحلة الأولى بشكل شديد العنصرية فالعربي لا يتم تناوله إلا في صورة الإرهابي القاتل الغشاش اللص وكل أعماله لا تخرج عن نطاق القتل والذبح والعدوان. والعربي كذلك هو المكافئ العصري لألد أعداء اليهود في الكتاب المقدس

زرع الأكاذيب.. وحصد الكراهية



كتب التاريخ في مدارس إسرائيل

※ للكلمة المطبوعة سلطة طاغية. فبفضل فصل المتكلم عن الكلام تصبغ الكلمات بصفات الحيادية والموضوعية، وترقى فوق كل مستوى للشك أو النقد. ويزداد فوق هذا تأثير الكلمات إذا كان القارئ طفلاً لم يزل عقله في طور التكوين، ولم تنضج بعد بداخله ملكات التفكير السليم والتحليل الموضوعي والنقد البناء. الكتب للطفل إذن أشبه بالنصوص المقدسة التي لا يجرؤ أحد على التشكيك فيها. كما يستمر تأثيرها على الأرجح مدى العمر.

من هنا جاءت أهمية الكتاب المدرسي كمدخل لفهم التركيبة النفسية للشعوب ومواقفها المبدئية من قضايا في غاية الأهمية كالحرب والسلام والموقف من النفس والآخر..... الخ. لذلك أيقن الكثيرون أن تغيير المناهج الدراسية كفيل بتغيير شكل المستقبل فلأن الحروب - كما أشار تقرير لليونسكو صدر في عام ١٩٨٨م - تبدأ في عقول البشر فلابد أن يتم غرس قيم السلام أيضاً في عقولهم. بنفس المنطق تحاول الإدارة الأمريكية الحالية جاهدة تغيير ما ترى أن وجوده في مناهج الدول العربية الدراسية حرى بتكرار مشهد الحادي عشر من سبتمبر، خصوصاً أن الثابت أن الكتاب الدراسي في دول العالم الثالث يعد في كثير من الأحيان الكتاب الوحيد الذي يقرأه الطالب في حياته كلها، وهو بذلك مصدر المعرفة الأوحد تقريباً.

الغريب أن الحملة المثارة - أمريكياً - لتطوير أو تعديل المناهج الدراسية العربية لم يقابلها أي حملة أو حتى اهتمام على مستوى النخب الفكرية العربية بالمناهج الدراسية الإسرائيلية وما تبثه في نفوس أطفال إسرائيل على مدى اثنى عشر عاماً دراسياً من أفكار ومفاهيم. وإذا كانت السياسة الخارجية لبعض الدول العربية - ومنها مصر - تراهن على قبول الشعب الإسرائيلي للسلام في مقابل تعنت النخبة السياسية والمؤسسة العسكرية إزاء أطروحاته فإنه يبدو ضرورياً - بل وملحاً - معرفة كيف يفكر هذا الشعب. إذ كيف يمكن تصور التأثير في شعب لا نعرفه جيداً، كيف يفكر ويتصرف، ماذا يحب ويكره، نقاط القوة والضعف فيه ...إلخ. ثم من باب أولى ماذا تعلم في طفولته وشبابه؟ وماذا يعرف عن حقائق الصراع العربي الإسرائيلي؟ وهل حجبت عنه بعض الحقائق التي قد تغير نظرته إلى ما يفعله المتطرفون من ساسته (مثل نتنياهو أو شارون)؟ ثم كيف يمكن استثمار تلك المعرفة في محاولات ترمي لحذف ما في تلك المناهج من تعصب وعنصرية وتشويه للحقائق، خاصة أن شعار تغيير المناهج مطروح بالفعل على الساحة الإقليمية منذ فترة؟

في هذا السياق - واستكمالاً لدراسة أنطوان شلحت القيمة المنشورة في عدد نوفمبر ٢٠٠٣م من مجلة «وجهات نظر» عن تأثير سلاسل قصص الأطفال الإسرائيلية على نشئها - تبرز أهمية دراسة الأكاديمي الإسرائيلي ايلي بودة: الصراع العربي الإسرائيلي في المناهج الدراسية الإسرائيلية (١٩٤٨-٢٠٠٠م)، حيث يتناول فيه نظرة كتب التاريخ المدرسية في المدارس العلمانية والدينية على السواء للإسلام والعرب وجذور الصراع بين إسرائيل والدول العربية إضافة إلى الحروب العربية الإسرائيلية الأربع (٤٨-٥٦-٦٧-٧٣) كما يرصد التغييرات التي حدثت بهذه الكتب عبر عقود خمسة.

يرى بودة أن كتب التاريخ في النظام التعليمي الإسرائيلي مرت بمراحل رئيسية ثلاث: بدأت الأولى مع بداية استيطان اليهود لفلسطين أوائل القرن العشرين واستمرت حتى العام ١٩٦٧م، أما الثانية فبدأت في أعقاب حرب ٦٧ واستمرت حتى منتصف الثمانينيات عندما بدأت المرحلة الثالثة والمستمرة حتى الآن.

المرحلة الأولى

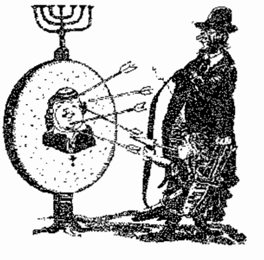
لم يكن خافياً على الصهاينة الأوائل - ومنهم بن جوريون مؤسس دولة إسرائيل - أهمية التعليم في عملية بناء الدولة وغرس المبادئ التي قامت عليها في نفوس أبنائها. ولأن النظام التعليمي في إسرائيل كان قائماً على المركزية الشديدة فقد سهل ذلك من مهمة توظيف الكتب المدرسية لأغراض «وطنية» بدت ملحة وقتها كزرع الانتماء والولاء للدولة الوليدة. وبالتالي خلق جيل قادر وراغب في الدفاع عنها والمشاركة في نهضتها. ولم يكن ذلك ممكناً بالطبع إلا إذا اتسقت رؤى الأبناء للماضي والحاضر مع سياسة الدولة الناشئة ومنهجها. فعلى سبيل المثال، إن أمكن إقناع الجميع بأن «الآخر» العربي هو المخطئ والمبادر بالعدوان أمكن إقناع الشعب كله بحتمية الوقوف ضده «دفاعاً عن النفس». تلك كانت مهمة كتب التاريخ الدراسية: التركيز على عظمة وتميز الشعب اليهودي وتسليط الأضواء على أمجاده التاريخية مع تجاهل تام لأي أخطاء أو تجاوزات يمكن أن يكون قد اقترفها. يقول في هذا الصدد فالفتالي زون مدير التعليم العالي في الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٧٢م إن هناك فارقاً بيناً بين المؤرخ ومعلم التاريخ. فمعلم التاريخ يتوجب عليه أن يحفز طلبته على أن يحسوا بهوية شعبهم، وأن يعملوا من أجله ولا يكون هذا إلا بانتقاء الأحداث التاريخية اليهودية التي تعبر عن معاني البطولة والتضحية وتكون بالتالي قادرة على التأثير في وجدانهم فيشعرون بالانتماء إلى أمتهم ويتماثلون مع أبطالها.

لم تخصص كتب المرحلة الأولى إلا النزر اليسير للحديث عن العرب تاريخاً وثقافة ولغة: فالوقت المتاح لدراسة التاريخ العربي مثلاً لم يتجاوز ١,٤٪ من إجمالي الوقت المخصص لدراسة التاريخ اليهودي والإنساني عامة. ولم تكن دراسة اللغة العربية أوفر حظاً فلم تكن تدرس إلا في ١٠٪ فقط من المدارس اليهودية في الخمسينيات والستينيات فقد فضل معظم الآباء أن يتعلم أبناؤهم الفرنسية بدلاً من العربية التي كان ينظر إليها باعتبارها «لغة دنيا»، حتى أن بعض الإسرائيليين تساءلوا عن جدوى تدريسها من الأساس باعتبار أن من يحتاج بالفعل إلى إتقانها من اليهود نتيجة لاحتكاكه المباشر بالعرب عدد ضئيل جداً «وأن العرب في المقابل هم الذين يجب أن يتعلموا اللغة العبرية». الخلاصة أن كم المعرفة التي كان الطالب الإسرائيلي يحصلها عن العرب أو الفلسطينيين ظل ضئيلاً للغاية حتى أن رئيس تحرير جريدة إسرائيلية أسبوعية كتب متسائلاً: «ماذا نعرف عن حياة العرب الذين يعيشون بيننا؟ هل كتب أي كتاب عن هذا الموضوع؟ إننا نعرف أكثر عن الدول الاسكندنافية مما نعرفه عن أولئك الذين نتعامل معهم بشكل يومي».

صيغت كتب المرحلة الأولى أيضاً بشكل شديد العنصرية فالعربي لا يتم تناوله إلا في صورة الإرهابي القاتل الغشاش اللص وكل أعماله لا تخرج عن نطاق القتل والذبح والعدوان. والعربي كذلك هو المكافئ العصري لأبي مالك: ألد أعداء اليهود في الكتاب المقدس. ولم تنكر كتب التاريخ في تلك المرحلة على العرب حقهم في أرض فلسطين فقط بل أعطت

كانت مهمة كتب التاريخ الدراسية:
التركيز على عظمة وتميز الشعب اليهودي
وتسليط الأضواء على أمجاده التاريخية مع
تجاهل تام لأي أخطاء أو تجاوزات
يمكن أن يكون قد اقترفها

The Arab-Israeli Conflict in Israeli History Textbooks, 1948-2000.
(الصراع العربي الإسرائيلي في المناهج الدراسية الإسرائيلية ١٩٤٨ - ٢٠٠٠)
Podeh, Elie
Westport: Bergin & Garvey, 2002



للطلبة اليهود الإيحاء بأن على العرب أن يشعروا بالامتنان للمشروع الصهيونى فى إسرائيل أيضاً!!! وبالتدريج فقد العربى - فى نظر طلبة إسرائيل - كل صفاته الإنسانية وتحول إلى معنى مطلق ليس له أى ملامح سوى كونه رمزاً للشر وعنواناً للكراهية. وهو ما ساعد على إضفاء الشرعية على منهج مواجهة العرب بلغة القوة واستبعاد أى تفكير فى التعايش معهم أو تحقيق السلام فى المنطقة.

المرحلتان الثانية والثالثة

مثلت حرب عام ١٩٦٧م نقطة تحول فى تاريخ نظرة التعليم الإسرائيلى لكيفية تدريس كلٍ من المبادئ الصهيونية وتاريخ ولغة العرب على حد سواء. جاء ذلك انعكاساً لتطورات ثلاثة مر بها المجتمع الإسرائيلى آنذاك. يتلخص السبب الأول فى أن احتلال الأراضى العربية وبصفة خاصة الضفة الغربية وغزة قد زادا من احتكاك اليهود بالفلسطينيين فأصبحت شخصية العربى بالتالى أقل نمطية وأكثر وضوحاً. نتيجة لذلك شعر الكثير من الإسرائيليين بالرغبة فى معرفة المزيد عن جيرانهم الذين أصبحوا أكثر قرباً عن ذى قبل وانعكس ذلك فى زيادة الإقبال على دراسة اللغة العربية حتى وصل عدد دارسيها إلى ١٠٢٠٠٠ فى المدارس الابتدائية والإعدادية و٣٠٧٥٠ فى المدارس الثانوية بحلول عام ١٩٨١م.

التطور الثانى يتعلق بالجدال الساخن الذى دار داخل إسرائيل عما إذا كان احتلال الأراضى العربية شرعياً أو مطلوباً. فالمعسكر المتشدد الذى رأى أن إسرائيل لم تحتل بل حررت ارتأى التركيز على الهوية اليهودية الصهيونية حتى يقطع الطريق على أى شكوك تتعلق بمدى شرعية الاحتفاظ بالأراضى، وكان للمناهج الدراسية نصيب من هذه المحاولات. أما التطور الثالث فيتلخص فى أن الشعب الإسرائيلى بدأ يعرف بالفعل المزيد عن العالم العربى وعن منظمة التحرير الفلسطينية والفلسطينيين من خلال وسائل الإعلام والدراسات الأكاديمية خاصة فى ظل بزوغ نجم عدد من الباحثين المهتمين بشئون الشرق الأوسط فى الجامعات الإسرائيلية. لم يكن ممكناً بالتالى استمرار تهميش كل ما يتعلق بالفلسطينيين والعرب على النحو الذى كان عليه الحال طوال المرحلة الأولى.

أسهمت حرب أكتوبر أيضاً فى تغيير العقلية الإسرائيلية وإفساح المجال لإجراء بعض التعديلات فى المناهج. قال أحد المشاركين فى أحد مؤتمرات التعليم التى عقدت فى أعقاب الحرب:

«لقد أدركت فجأة أن المدرسة لم تعلمنى كيف أعيش مع العرب. لم تعلمنى أن أراهم كبشر بل كان هناك دوماً إحساس بالاحتقار تجاههم. عندما حدثت الحرب، وقعت الصدمة. أدركت أن العربى إنسان مثلى تماماً وأن بإمكانه أن يتفوق علىّ. اثنا عشر عاماً من التعليم لم تعلمنى ذلك».

التغيير على أى حال جاء طفيفاً للغاية، وانصب الجانب الأكبر منه فى إقناع التلاميذ بحق اليهود التاريخى فى الأرض ودحض ادعاءات العرب بأحقيتهم فيها. أما الأخطاء التاريخية والتحيز الصارخ والأفكار المبتسرة والقولبة (stereotyping) فيما يتعلق بالعرب والنزاع العربى الإسرائيلى والتى حفلت بها مناهج التاريخ منذ بدايات المرحلة الأولى فلم يطرأ عليها تغيير كبير.

استمرت عملية التغيير فى المرحلة الثالثة فأضيفت موضوعات كان قد تم تجاهلها تماماً فى المراحل السابقة (كتاريخ فترة ما بعد حرب ١٩٤٨م مثلاً) كما حاولت بعض الكتب توجيه نظر الطلبة إلى أن معظم الأحداث التاريخية لا تشترط النظرة الأحادية بل تحتمل عدة رؤى مختلفة. تم أيضاً حذف جزء مما فى تلك المناهج من أخطاء تاريخية وأساطير وتجرأ بعضها فوجه النقد للصهيونية وهو ما لم يكن وارداً من قبل، إلا أنها ظلت فى العموم - برغم تلك التغييرات الإيجابية - حافلة بالكثير من التحريف والتشويه.

يبقى الحديث السابق عاماً ومطلقاً بأكثر من اللازم إن لم يتم دعمه بسرد نماذج مما ورد فى كتب التاريخ لتسليط الضوء على نظرتها تجاه الأحداث التاريخية المختلفة.

التاريخ القديم

بالغت كتب التاريخ المدرسية كثيراً فى قوة القبائل اليهودية الموجودة فى شبه جزيرة العرب فى فترة ما قبل ظهور الإسلام فادعت سيطرتهم على قبائل العرب (وهو ادعاء باطل دون شك). وكالعادة وصفت قبائل العرب بالغدر والمكر والخيانة أما الشرف والصدق والأمانة فكانت من نصيب قبائل اليهود. تطاولت كذلك كتب التاريخ - وبالذات فى المرحلة الأولى - على الإسلام فادعت أن ابتعاد العرب عن اليهودية واعتناقهم للإسلام كان بمثابة «ارتداد إلى الوثنية». تقول إحدى الفقرات فى كتاب صدر عام ١٩٤٨م:

«لم يكن هناك جديد فى تعاليم الإسلام حيث لم يأت محمد بشىء. لم يضف محمد إلى الإسلام شيئاً على ما صادره من تعاليم اليهودية والمسيحية (وربما من المعتقدات الفارسية) ثم مزج كل هذا بشكل غير متجانس».

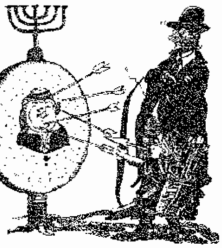
وبشكل متعمد تم التركيز على أهمية الجهاد فى الإسلام فاختزل بهذا فى جانبه العسكرى وخلق الانطباع بأنه دين عدوانى لا يعبأ بشىء إلا لغة القوة وترسخ هذا الانطباع عن طريق وصفه المتكرر «بدين السيف».

أسقطت معظم الكتب الدراسية من حساباتها أربعمائة عام بأكملها هى فترة حكم الدولة العثمانية، فجاء ذكر تلك الفترة مبتسراً للغاية فى أحيان وغير موجود بالمرة فى أحيان أخرى. عاشت طوال هذه الحقبة قلة من اليهود وسط بحر هائل من المسلمين وهو ما حاول واضعو الكتب على ما يبدو أن يتجاوزوه، تماماً كما حاولوا التأكيد على أن الوجود اليهودى فى فلسطين لم ينقطع أبداً:

«لم يتخل اليهود عن أرض إسرائيل أبداً. كان عددهم كبيراً فى أوقات وصغيراً فى أوقات أخرى ولم يكن المجتمع اليهودى يولى أهمية تذكر لمسألة العدد إذ رأى يهود إسرائيل فى أنفسهم تعبيراً عن الأمة اليهودية بأسرها. ضم المجتمع اليهودى (فى فلسطين) الكثير من الرجال الحكماء كالحاخامات والكتاب الذين كتبوا المقالات والكتب. أما العرب والمسيحيون الذين وطنوا أرض إسرائيل فلم ينتجوا شيئاً ذا أهمية ولم يخلفوا وراءهم أى انجاز».

بصفة عامة، اتسمت النظرة إلى العثمانيين بالتحامل الشديد، فاتهموا بالعنصرية والتعصب الدينى ولم تكن هناك أى محاولة لتسليط الضوء على تسامحهم تجاه الأقليات الدينية فى إطار ما عرف بالنظام الملى.

بالغت كتب التاريخ المدرسية كثيراً من قوة القبائل اليهودية الموجودة فى شبه جزيرة العرب فى فترة ما قبل ظهور الإسلام فادعت سيطرتهم على قبائل العرب (وهو إدعاء باطل دون شك)



الهجرة إلى فلسطين

فيما يعد ترديداً لأسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» أكدت كتب التاريخ أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين لم يجدوا سوى أرض قاحلة مهجورة لا يسكنها أحد تقريباً، وتم استخدام كافة الوسائل لإنكار الوجود العربى كالخرائط التى تحدد موقع المدن والتجمعات اليهودية وتغفل ذكر المدن والقرى العربية، أو استخدام صور فوتوغرافية لأراض صحراوية خالية للبرهنة على أن المهاجرين اليهود لم يقابلوا بالفعل أى سكان مع عرض صور أخرى للحياة المزدهرة فى المدن التى بناها اليهود عقب استيطانهم للأرض. كما استخدمت الجداول لبيان معدل زيادة السكان اليهود فى فلسطين مع عدم الإشارة نهائياً إلى عدد السكان العرب أو معدل الزيادة بينهم. الهدف الرئيسى من كل هذا التحايل هو إقناع الطلبة بأن عدد العرب كان قليلاً جداً وأنهم - أى العرب - لم يعانوا قط جراء هجرة اليهود بل على العكس تحسنت أحوالهم الاقتصادية وأصبحوا أكثر صحة وسعادة عن ذى قبل!!! وبالطبع تجنبت كل الكتب الإشارة إلى قضية مصادرة أراضى الفلسطينيين بل حاولت وزارة التعليم من خلال كتيب أصدرته عام ١٩٧٥م دحض ما أسمته «أسطورة مصادرة الأراضى العربية».

تم تناول تلك الحقبة التاريخية بشكل أكثر اتزانا فى المرحلة الثالثة فأشارت بعض الكتب إلى أن عدد اليهود لم يتجاوز ٥٪ من إجمالى السكان فى أرض إسرائيل كما أبرزت امتعاض العرب من تزايد أعداد المهاجرين اليهود ومقاومتهم للمشروع الصهيونى الاستيطانى.

من وعد بلفور إلى قيام إسرائيل

أفردت كل كتب التاريخ مساحات واسعة لعرض ومناقشة وعد بلفور ونشر معظمها النص الكامل له معتبرة إياه «بداية تحرير شعب إسرائيل». فى المقابل لم يذكر شىء عن استياء العرب من الإعلان بل وأعطت إحدى الروايات الانطباع بحدوث العكس إذ زعمت بأن إعلان بريطانيا تعهدها بحماية حقوق العرب الدينية والمدنية أرضى قادتهم فتوقفوا عن مواجهة وعد بلفور!!!

الجدير بالذكر أن كل الكتب تحاشت ذكر كلمة فلسطين أو فلسطينيين مستخدمة لفظ «عرب إسرائيل» بدلاً منه (الغريب أن الكثيرين فى الوطن العربى الآن يستخدمون نفس التعبير بدلاً من تسميتهم بعرب أو فلسطينيى ٤٨ وهو فيما أرى المصطلح الأكثر دقة والأقل تشوشاً) واعتبرت أنه لم يكن هناك أبداً شعب فلسطينى أو أمة فلسطينية، يقول بن زيون ديتور وهو وزير أسبق للتعليم ومؤرخ فى الوقت ذاته أنه «لم يكن هناك أبداً شىء اسمه وطن فلسطينى».

أنحت الفقرات المتعلقة بالمواجهات المسلحة بين اليهود والفلسطينيين أيام الانتداب البريطانى باللائمة على العرب اللئام الذين روعوا أمن المستوطنين اليهود حتى اضطروهم إلى تشكيل مجموعات قتالية (مثل الهاجاناه) للدفاع عن أنفسهم وزعمت أن اليهود - رغم تلك الاعتداءات العربية - مدوا أيديهم بالسلام فى كل وقت ومناسبة إلا أن العرب المتأثرين بالدعاية النازية لم يأبهوا وصمموا على مواصلة العدوان (لاحظ ما يخلقه الربط بين العرب والنازية فى عقول اليهود المصابة بعقدة الهولوكوست من تأثير).

الحروب العربية الإسرائيلية

نكبة عام ١٩٤٨م

مثلت حرب عام ١٩٤٨م وإعلان قيام دولة إسرائيل الحدث التاريخى الأبرز فى كتب التاريخ بالمدارس الإسرائيلية، وتم تناول الحدث من منظور إسرائيلى بحت، فلم تتم الإشارة إلى نظرة العرب له باعتباره «نكبة» أو «كارثة». النظرة الإسرائيلية صورت الحرب باعتبارها صراعاً بين الخير والشر، أو بين داود (اليهود) وجالوت (العرب). واستدعاء لأسطورة «القلة فى مواجهة الكثرة» (Few Against Many) الراسخة فى وجدان اليهود، ادعت الكتب أن اليهود كانوا أقل عدداً من العرب (بنسبة سبعة إلى واحد)، وأن سلاحهم كان قليلاً ومنخفض الجودة (وهو قلب كامل للحقيقة). لماذا انتصر اليهود إذن؟ تم تقديم التفسير التالى: «كان لدى اليهود ميزة واحدة هى التفوق الثقافى والاجتماعى على العرب».

وفيما يشبه الهذيان، زعمت إحدى الروايات أن ستين مقاتلاً صهيونياً استطاعوا دحر عشرين ألفاً من المقاتلين العرب فى صفد!!!

يتواصل الهذيان فى الكيفية التى تم بها تصوير مسألة اللاجئين الفلسطينيين إذ برز فى هذا الصدد اتجاهان رئيسيان. الأول يؤكد أن الفلسطينيين «فضلوا أن يغادروا» على الرغم من محاولات اليهود المستميتة إقناعهم بالبقاء!!! وبالطبع تم إغفال كل عمليات التهجير المنظمة بما فيها استخدام سلاح الإرهاب والمذابح (كما حدث فى دير ياسين مثلاً). أما الاتجاه الثانى فيلقى بالمسئولية على قادة العرب الذين أقنعوا الفلسطينيين بمغادرة ديارهم «بشكل مؤقت» حتى تعيد الجيوش العربية الأمور إلى نصابها.

إحدى الروايات اتخذت طريقاً ثالثاً لا يخلو من الطرافة - أيضاً لإعفاء إسرائيل من المسئولية - إذ زعمت أن ما حدث لا يعدو كونه نوعاً من «تبادل السكان»، فكما هاجر إلى إسرائيل اليهود من الدول العربية (كالمغرب ومصر واليمن والعراق)، هاجر عرب إسرائيل إلى الدول العربية!!! (الخلط بين الحالتين لا يحتاج منا إلى تعليق).

العدوان الثلاثى

كانت حرب عام ١٩٥٦م حرباً «لا مفر منها» فنشاط الفدائيين المتزايد وترويعهم لأمن المستوطنات اليهودية وسياسات عبد الناصر العدائية (خصوصاً بعد إبرام صفقة السلاح التشيكية وإنشاء القيادة العربية المشتركة مع سوريا) ضيق الخناق حول رقبة إسرائيل واضطرها إلى القيام بعمل جسور لتتخلص من عزلتها. امتد التحريف لنتائج الحرب، فبينما يتفق جميع المحللين على أن فشل العدوان أثمر نصراً سياسياً واضحاً لمصر أسس زعامة عبد الناصر فى الوطن العربى والعالم الثالث، أكدت إحدى الروايات العكس: «قل احترام قادة العرب لعبد الناصر ولم يعودوا يتبعون سياساته وتحطمت وحدة العالم العربى». الغريب أن تواطؤ إسرائيل واتفاقها السرى مع بريطانيا وفرنسا لمهاجمة مصر لم تتم الإشارة إليه على الإطلاق وكأن لم يكن.

فيما يعد ترديداً لأسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» أكدت كتب التاريخ الإسرائيلية أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين لم يجدوا سوى أرضاً قاحلة مهجورة لا يسكنها أحد، وأنكرت أى وجود عربى فيها

كـتب التـاريخ فى مدارس إسـرائيل



نكسة ١٩٦٧م

مرة أخرى، ألقيت مسئولية نشوب حرب عام ١٩٦٧ على العرب (بالأخص مصر وسوريا) الذين حاصروا إسرائيل وحشدوا الجيوش وأغلقوا الممرات المائية فما كان أمام إسرائيل إلا أن ترد دفاعاً عن النفس. اتسقت الرواية المدرسية بهذا مع الخطاب الرسمى الإسرائيلى الذى أكد دوماً أن إغلاق مضايق تيران كان هو الرصاصة الأولى فى الحرب.

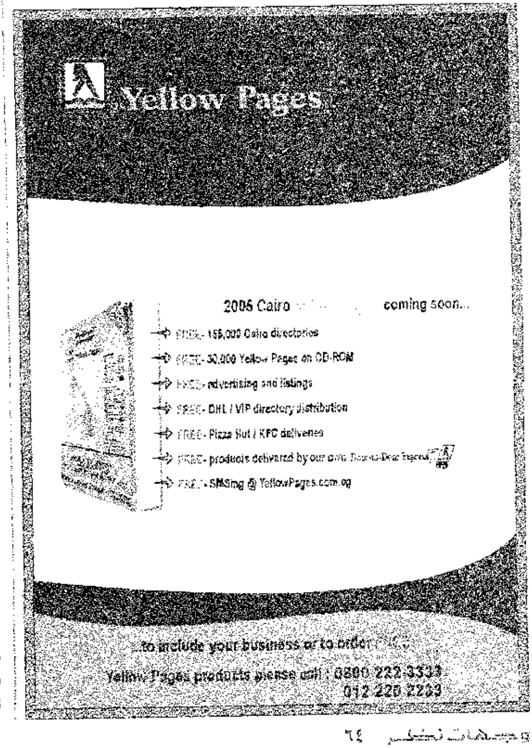
تعاملت الكتب المدرسية بذكاء مع ما تستخدمه من مصطلحات فى أعقاب الحرب. فاستخدم تعبير «حرب الأيام الستة» لإبراز حجم النصر الإسرائيلى وفداحة الهزيمة العربية. كما استبدل مصطلح «الضفة الغربية» بيهودا والسامرة للربط بين الأراضى المحتلة والتاريخ اليهودى القديم. ومجدداً وظفت أسطورة «القلة فى مواجهة الكثرة» للدلالة على تفوق العرب من حيث الأسلحة والمعدات (وهو أمر غير صحيح بالمرة، إذ امتلكت إسرائيل من الأسلحة الأمريكية والفرنسية المتقدمة ما هو أكثر تطوراً بمراحل مما كان فى حوزة العرب وقتها من أسلحة سوفيتية).

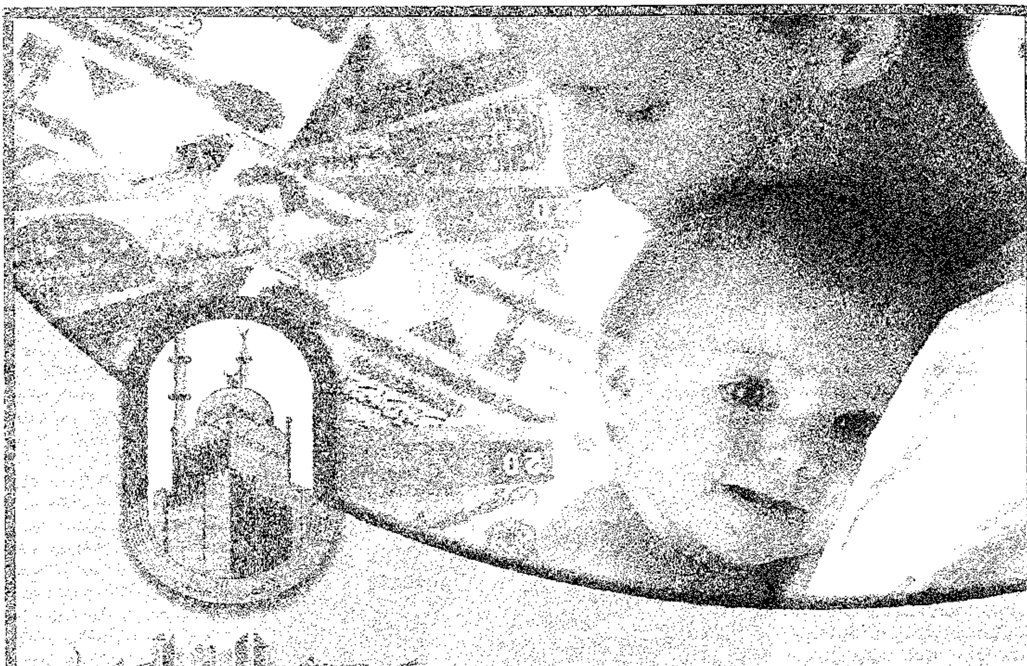
لم يخلُ أيضاً تناول تلك الفترة من بعض الادعاءات الطريفة كالقول بأن سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وغزة قد حافظ وثبت هوية السكان الفلسطينية (لا حديث هنا عن الاستيطان السرطانى والتهويد).

أحد ملامح التغيير فى المناهج ظهر فيما يتعلق بطريقة تناول حرب ٦٧ ففى كتاب صدر فى آخر التسعينيات، يقول المؤلف أن إسرائيل كان بإمكانها اتخاذ «قرار شجاع وحكيم» بالانسحاب من الأراضى المحتلة من جانب واحد لإثبات أن «الاحتلال فرض عليها». يضيف المؤلف بأن خطوة كهذه كانت ستغير من طبيعة الصراع فى الشرق الأوسط وتقنع العرب برغبة اليهود الحقيقية فى السلام والتعايش، إلا أن إسرائيل فضلت أن تفعل العكس وهو التشبث بالأرض وانتظار ما سيحدث. هذا الطرح - الذى ببساطة يلوم إسرائيل على سياستها فى أعقاب الحرب - يمثل نقلة كبيرة ويثبت أن بعض ما أصاب الكتب المدرسية من شطط تم تعديله مؤخراً.

على التوازى مع الصراع العسكرى والسياسى مع العرب، أدارت إسرائيل صراعاً لا يقل عنه خطورة، صراع تطلق فيه فوهات المدافع قذائف من أفكار تغسل الأدمغة وتزرع الآلاف من حبوب الحقد والكراهية. لا عجب إذن أن يظهر استطلاع للرأى أن ٤٠٪ من طلبة المدارس الثانوية الإسرائيلية «يكرهون» العرب وأن ٦٠٪ منهم «يشعرون برغبة شديدة فى الأخذ بالثأر» فتلك هى النتيجة الطبيعية لما تعلموه منذ نعومة أظافرهم عن العرب والفلسطينيين.

على الجانب الاخر، يبدو العالم العربى منهمكاً لأذنيه فى تغيير مناهجه الدراسية استجابة لموقف أمريكى متشدد وغير قابل للتراجع وهو ما حدا بالرئيس اليمنى إلى القول بأن عدم إخضاع المدارس الدينية للإشراف الحكومى سيعرض اليمن لقصف مماثل لما تعرضت له أفغانستان!!! ويبدو أن رياح التغيير قد هبت بالفعل فى كل الدول العربية بدءاً من قطر التى وصف ما أقدمت عليه من تعديلات ثورية «بالزلزال» وصولاً إلى السلطة الفلسطينية التى حذفت الفقرات المتعلقة بتدمير إسرائيل ومروراً بالسعودية وباقى دول الخليج التى تحمل الولايات المتحدة كتبها المدرسية وزر هجمات الحادى عشر من سبتمبر. ازدواجية المعايير امتدت إذن إلى مجال التعليم، وبنفس حجم التنازلات، ففى مقابل كل قيراط تغيره إسرائيل، يعدل العرب مناهجهم بالأفدنة (مثلما يحدث على المسرح السياسى). ناهيك عن أن بعض ما يحذف يمس جوهر عقيدة فى مقابل أن ما ينبغى حذفه فى المعسكر الآخر يتعلق بأخطاء تاريخية صارخة ونظرة عنصرية مقيتة. سنستمر إذن فى إدارة خدنا الأيسر لمن صفعنا على الخد الأيمن ولا عزاء للحكومات العربية. ■





هذا ما جناه علينا "الأبويون"!

هشام شرابي



هشام شرابي

■ ■ يمكن النظر إلى البعث الإسلامي كحركة تحرير سياسية ونهضة ثقافية على أنه النقيض المباشر لعملية التغريب، فهو نتيجة لعصر الامبريالية، تماماً كما هي حال «التنوير» و«التحديث».

فعلى الصعيد السياسي العقائدي شهد الشرق الأوسط الحديث ثلاثة تحديات خلال تصادمه مع المعضلة الاجتماعية والاقتصادية التي ولدتها الهجمة الأوروبية. ومثل التحديان الأولان، أي العلمانية والأصولية. قبولاً واضحاً للنمط الأوروبي ورفضه المبرم على التوالي. أما التحدي الثالث الذي نطلق عليه تعبير الاصلاح فقد انتهج حلاً وسطاً. ومهما يكن من أمر، فلم يكن كل تحد من هذه التحديات عقيدة جديدة أو نظرية اجتماعية بل أشكال وعي نضجت في رحم المجتمع الأبوي المستحدث وعكست ردود فعل متباينة لمشكلة التحديث المشوه.

وكان المفر الوحيد من سيطرة أوروبا المباشرة يكمن في البحث عن أشكال مختلفة من المقاومة. وحتى في المجالات التي بدا فيها النضال مجدياً، فإن علاقات التبعية بقيت سائدة واشتد ساعدها. وتتضح أهمية هذه الحقيقة متى أخذنا بدراسة النمط الياباني الذي يجسد البرهة التاريخية الوحيدة للتملص الناجح من قبضة الهيمنة الأوروبية المباشرة، وكان ذلك مرده مقدرة اليابانيين على انتهاج تحديث مستقل يمكنهم من التطور بسرعة كافية تحول دون سقوط اليابان عسكرياً. وبالطبع، فإن ذلك نجم عن عدة عوامل هي وجود اليابان في موقع جغرافي ناء، وعزلتها، إضافة إلى مناعتها النسبية في مقاومة أي عدوان عليها (أي على النقيض من قرب العالم العربي وانكشافه وعدم توفر مقاومته العسكرية). ولكن هنالك سبباً آخر هو أكثر أهمية، فبدءاً من استعادة الامبراطور ميجي الحكم في ١٨٦٨ تميز النظام الأبوي الياباني، وبخلاف نظيره العربي (أو الهندي أو الصيني) بخاصيتين فريدتين: وحدة سياسية. جغرافية وقيادة حكيمة قديرة.

كان أول تحديات النظام العربي الأبوي وأشدها صلابة وأطولها ديمومة بعد إحكام السيطرة الأوروبية عليه قد تجسد في العودة إلى التقاليد الإسلامية، وأصبح الإسلام بصفته عقيدة ونموذج تنظيم اجتماعي المحور الطبيعي للمقاومة التي تمثلت في أربع انتفاضات سياسية. دينية ضد الهيمنة الامبريالية: عبد القادر في الجزائر ضد فرنسا، والمهدي في السودان ضد بريطانيا، وعمر المختار في ليبيا ضد إيطاليا. وعز الدين القسام في فلسطين ضد الانكليز. ومن الجدير بالاهتمام أنه طيلة حقبة النضال ضد الهيمنة الأوروبية كانت الانتفاضة ما إن ترتبط بالجماهير حتى تتحول من حركة سياسية محدودة أطلقتها القيادة الوطنية إلى ثورة إسلامية عارمة.

فخلال مرحلة النضال لتحقيق الاستقلال لم تتحول آية انتفاضة تقودها الزعامة الوطنية إلى حركة جماهيرية دون استلهام الباعث العقائدي للثورة من التراث الإسلامي. ولذلك فإن النضال الوطني ضد المستعمر استمد وحيه وقوته من العرف الأبوي وليس من العقائد العلمانية التي بشرت بها النخبة المثقفة. وهذه حقيقة يمكن في ضوئها تفسير عدم إحداث تحول اجتماعي جذري عقب الثورات الوطنية الكبرى خلال نصف القرن الأخير. ومن الصعب فهم تطور الإسلام التقليدي أو الأصولية إلى حركة سياسية ملحة دون الأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية القائمة بين الأصولية من جهة والامبريالية والتحديث من جهة أخرى. فقد استمدت الأصولية الإسلامية المبكرة صلابتها ومحتواها كحركة مسلحة من مقاومتها العنيدة للهيمنة السياسية والثقافية الأوروبية. واكتسبت هذه الأصولية زخمها كعقيدة ليس من نظريات نقدية، بل من تحديها غير المساوم لوضع اجتماعي. سياسي لا يحتمل. ولذا رأت هذه الأصولية أن خلاصها يكمن ببعث ماضي الإسلام المجيد، فاعتمدت على النص القرآني للبرهنة على إمكانية إيجاد مجتمع إسلامي أصيل في هذا الزمن المعاصر، فيما لو أن المسلمين عادوا إلى الصراط المستقيم ووحدوا صفوفهم في وجه عدوهم التاريخي.

والإسلام التقليدي لهو بالضرورة تصوفي وحنيف وشعائري ومجرد، إلا أنه يتحول فقط إلى أصولية مسلحة بفعل ما يحدثه وما يقوله قادته الجدد أثناء استجابتهم لأزمة وطنية. وعليه، فإن الطابع العدائي والمطلق للعقيدة الأصولية ليس بالتالي مظهراً مرتبطاً وثيقاً بالمذهب التقليدي، ومن هنا فإن الغليان الأصولي يخمد وتنحل قواه متى حل السلام وتحقق التوازن الاجتماعي من جديد.

ومن الضرورة بمكان ملاحظة أن الإسلام التقليدي في نضاله ضد الامبريالية قد اكتسب تجربة تحديثية،

Neopatriarchy: Theory of Distorted Change in Arab Society

(النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي)

Hisham Sharabi

USA: Oxford University Press Inc. 1988

صدرت له عدة ترجمات عربية إحداها عن دار نلسن (٢٠٠٠)

ليس فقط في أساليبه بل أيضاً في توجهه وممارسته إلى حد ما. قام بتطوير أنماط تنظيمه السياسي ورضى بتعديل بعض نماذج العقلانية الغربية وتقنياتها. إلا أنه بقى يعاند الاختلاف معه، فلم يقبل بالمساومة. ومن هنا فإنه لا يرضى إلا بالنصر أو الشهادة لحسم دفة الصراع. ومتى استوى على سدة الحكم، فإنه يميل إلى المحافظة ويتشبث بالسنة والطاعة السياسية.

ولم يكن الخلاف بين الأصوليين والعلمانيين (الوطنيين واليساريين التوريين) خلافاً على قضية دينية أو خلقية، بل كان سياسياً محضاً. ولأن الوطنية العلمانية لم تكن قادرة على التعامل بنجاح مع القضية السياسية للهيمنة الأجنبية ولم تتمكن من تحقيق الوحدة العربية، فقد أدت في نهاية المطاف إلى التطرف الديني. وعليه فقد استفادت الحركة الأصولية من إخفاق العلمانية ونجاح الامبريالية.

وحين وجد المصلحون المسلمون أنفسهم محاطين بالمسلمين المحافظين والقوميين العرب، فإنهم اضطروا إلى تبني موقف معتدل: سياسياً وعقائدياً. إلا أنهم أخفقوا في النهاية في مسعاهم هذا، ربما لأنهم مضوا بعيداً في معالجة بعض القضايا ولم يتمكنوا من معالجة غيرها، إلا أن سبب إخفاقهم الرئيسي يعود إلى أنهم قد قبلوا بموقف مساوم ضعيف، ولأنهم عالجوا القضايا الحياتية الملموسة من خلال التجريدات العقائدية، لا من خلال الواقع الحي المعيش. إن أخذهم الساذج بالعقل (على صورة الاجتهاد) قد أوقعهم في مناظرات سياسية عقيمة، بيد أنها لم تخل من طرافة. دعوا إلى التغيير، ونادوا بحكومة برلمانية ليبرالية تنهض على مبادئ إسلامية متنورة. ولم يكن مفاجئاً أن بقوا أقلية صغيرة كان أثرها محدوداً، على الرغم من أهميتها في مرحلة تكوين اليقظة العربية. ثم ما لبثت هذه الأقلية أن فقدت تأثيرها بصورة مطردة خلال المراحل المتعاقبة للهيمنة الأوروبية وفي فترة الاستقلال.

الجدير بالذكر أنه بخلاف آراء الأصوليين، فإن آراء المصلحين لم تجد لها صدى مسموعاً في صفوف الجماهير.

وعليه، فإننا نستطيع تكوين فكرة ما عن مدى فعالية الهيمنة الإمبريالية في قولبة الوعي والممارسة السياسية في المجتمع الأبوي المستحدث.

وبإيجاز، ففي المجال السياسي كانت الإمبريالية مسئولة عن تفتيت الوطن العربي سياسياً واقتصادياً وتعزيز السلطة الأبوية التقليدية (بتحديثها)، وبالتالي المساهمة فعلياً في نشوء الأبوية المستحدثة كما نشهدها اليوم. ونتيجة ذلك، فإن الأبوية المستحدثة قد تمكنت اجتماعياً ونفسانياً (على مستوى الطبقة وعلى مستوى العقيدة) من أن تكتسب قوة وزخماً كافيين، بحيث أنها عطلت مسار الإصلاح السياسي الهادف وأعاقت التطور الديمقراطي الصحيح، إضافة إلى أنها اقتلعت جذور أي فكر ماركسي وجذري وأجهزت عليه في مهده. ولذلك، فإنه يتوجب النظر إلى الأبوية والإمبريالية على أنهما، موضوعياً، حليفان متآزران يعيقان تقدم أي تغيير اجتماعي - سياسي طبيعي. لم يصمد هذا التحالف اللاواعي في مرحلة السيادة الوطنية (والاستقلال) فحسب، لكن أيضاً أصبح أكثر فعالية كلما عملت كل دولة عربية استقلت حديثاً على تعزيز سيادتها واستقلالها. فعقب انتهاء مرحلة استعمار الوطن العربي أصبحت الوحدة خطراً على الوضع الراهن ووازتها خطراً الاشتراكية. وكانت هذه الأخيرة تشيع الخوف في بعض الأنظمة العربية أكثر مما كانت عليه في عقر الرأسمالية نفسها. يمكن القول، إذن، إن الإمبريالية الأوروبية قد شوهت عملية التقدم الاجتماعي والسياسي من ناحيتين: بتقويض التطور الاقتصادي الطبيعي (النمو الرأسمالي)، لا سيما في مصر، حيث عملت الرأسمالية منذ نهاية حكم «محمد علي» على إعاقة النمو الصناعي، وحجمت الاقتصاد ليقتصر على الإنتاج الزراعي فحسب، وفي الوقت نفسه عرقلت بروز طبقة عاملة في المدن، الأمر الذي أدى إلى ترسيخ البنى الاجتماعية والسياسية للأبوية المستحدثة وتقويتها.

إلا أن أثر التشويه الذي أحدثته الامبريالية كان أكثر وضوحاً في المجال الثقافي. فمن الوجهة الاجتماعية - السياسية كان لاستعمار الوعي (وكذلك اللاوعي) نفوذ أوسع من الاحتلال العسكري أو الهيمنة السياسية في دفع عجلة تطور بنية الأبوية المستحدثة. ومن هذا المنطلق، لا يمكن النظر مجدداً إلى هذه المشكلة كما تأخذ بها نظرية التحديث. أي باعتبار أن التحديث يهدد «المجتمع التقليدي» أو أن مصاعب التنمية تترسب ثم تؤدي إلى تشكل «متخلف». بل يتوجب الأخذ بوجهة النظر القائلة بأن المجتمع الأبوي قد اضطر إلى تبني النماذج الاقتصادية والأنماط الثقافية الأوروبية في ظل الأوضاع المشوهة الناتجة عن الهيمنة الإمبريالية، والسيطرة الثقافية والتبعية الاقتصادية. ومن هنا نجد أن الثقافة الأبوية المحدثة (الأبوية المستحدثة) فقدت توازنها وانسجامها، واتصفت بالتملق في العلم والدين والسياسة، إضافة إلى عجزها السياسي وتلكؤها الثقافي، وابتعادها عن الحداثة الأصيلة، أي فقدانها تحرير الذات المنشود. ■

رحلة مفكر

لأسباب عديدة، أبرزها إقامته شبه الدائمة في الولايات المتحدة ودراساته التي يغلب على معظمها الطابع الأكاديمي الرصين، لم يكن هشام شرابي المفكر الفلسطيني البارز الذي رحل عنا قبل حوالي شهر، حاضراً بقوة لدى جماهير العالم العربي التي أمضى معظم سنوات عمره في الكتابة عن مشاكلها والأسباب التي تحول بينها وبين التقدم.

إلا أن شرابي المولود في يافا عام ١٩٢٧ كان ومازال مؤثراً وبقوة أيضاً في عقل ووجدان النخبة العربية التي ساهم في صياغة أفكارها من خلال مؤلفاته العديدة التي قدم فيها أطروحات متميزة عن عورات المجتمع السلطوي «الأبوي» ومجتمع البداوة وإشكاليات التقدم والتخلف وعلاقة المثقف بالسلطة.

بدأ شرابي نشاطه السياسي مبكراً من خلال الانضمام للحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسسه في لبنان «أنطوان سعادة» ودرس في الجامعة الأمريكية في بيروت وكان للقبض على «سعادة» وإعدامه عام ١٩٤٩ في بيروت الأثر البالغ في حياة شرابي الذي وجد نفسه مدفوعاً للهجرة إلى الولايات المتحدة حيث حصل على الدكتوراة من جامعة شيكاغو عام ١٩٥٣.

وجاءت كارثة يونيو ١٩٦٧ لتجبر شرابي على العودة للاهتمام بقضايا المجتمع العربي وأسباب تخلفه بعد أن شغله العمل الأكاديمي سنوات عديدة. وأصبح شرابي أحد أهم ثلاثة مفكرين فلسطينيين كان لهم حضور مميز خلال النصف الثاني من القرن العشرين سواء في الوسط الأكاديمي الأمريكي أو متابعة الشأن العربي والكتابة بعمق عنه وهم إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد إضافة إليه.

وكمثقف وأكاديمي وعالم اجتماع، تعمق شرابي في التنظير لأزمات المجتمع العربي وبلغ الذروة في الحديث عن النظام الأبوي باعتباره أحد الأسباب الرئيسية للتخلف وتحدث عن وسائل تغيير هذا النظام الأبوي إلى النظام الديمقراطي الذي يبدو مستحيلاً طالما ظل الأب والزعيم والقائد هو الأساس في بنية المجتمع العربي وهو يقول:

في المجتمع العربي يريد المثقفون إيصال الحقيقة إلى ذوي السلطة وهؤلاء يرفضونها.. فهم لا يريدون حقيقة المثقفين ولا فلسفتهم بل ولاءهم الشخصي.

ولأنه فلسطيني أولاً وأخيراً فقد كان أحد أهم شواغله مسار القضية الفلسطينية حيث أبدى حماساً لاتفاق أوسلو وزار الأراضي الفلسطينية عام ١٩٩٧ للمرة الأولى منذ مغادرته فلسطين عام ١٩٤٧، لكنه أصبح بعد فترة وجيزة أحد أشد منتقدي أوسلو والزعيم الراحل ياسر عرفات.

قدم شرابي للمكتبة مؤلفات عديدة أكاديمية وعامة بينها أعمال سردية عن حياته مثل «الجمر والرماد»، و«الرحلة الأخيرة»، و«صور الماضي»، إلا أن الكتاب الذي ارتبط باسمه هو: «النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي». وهنا صفحات من الكتاب.

وجهات نظر

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

صعاليك الزمن الجميل
يوسف الشريف
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢٣٨ صفحة



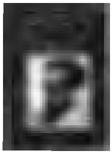
هذا - بالفعل - كتاب ممتع - يقول عنه الكاتب الصحفى كامل زهيرى إنه يعبر عن رحلة طويلة قام بها مؤلفه الكاتب الصحفى يوسف الشريف مع ظرفاء وصعاليك مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، ليعود بذكريات وطرائف وتفاصيل تكشف حنايا القاهرة وأجواءها الثقافية.

ولهذا الكتاب كما يقول مؤلفه قصة طريفة.. فقد تعرف منذ عشرين عاماً على المستشرق اليابانى «نوتاهارا» وكان آنذاك أستاذاً للأدب العربى بجامعة طوكيو، ومع ذلك فقد كان صعلوكاً على غرار صعاليك الشعراء النبلاء إبان العصر الجاهلى، خفيف الظل متوقد الذكاء لا يكل ولا يمل من اللف والدوران والبحث والتجريب فى عوالم القاهرة الشعبية.. وكانت شخصية هذا اليابانى هى الجسر الذى عبرت من خلاله فكرة هذا الكتاب التى كتبها الشريف عن عشرة شخصيات مصرية أسماهم بالحرافيش الظرفاء أو الصعاليك النبلاء، والذين كانوا منارات شامخة فى مجتمع ذلك «الزمن» وبينهم صحفيون وكتاب كبار وشعراء لامعون ونجوم فى السياسة والفن وقد حباهم الله بمواهب وملكات تميزهم عن غيرهم وتشد الناس للتحلق حولهم.

يسرد الكتاب طرائف مثيرة منها قصة زواج الموسيقار الراحل مدحت عاصم من زوجته الأولى على المونوسيكل «البارلى»، ومقالب حفنى محمود باشا، ومصطفى حمام فاسوخة ثورة ١٩١٩، وعبد الحميد الديب الشاعر الذى تعقبه النحس، ومحمود السعدنى عاشق الحياة، ومأمون الشناوى والزواج فى الثمانين، والشيخ سيد مكاوى فى مقهى الحرامية، وأمين بك المهدى يدخن الحشيش، واللص الشريف نجيب حافظ، والفقير الهندى أستاذ الجيل محمد عودة.

وهذا الكتاب يكمل ثلاثية كتب الشريف عن الصعاليك النبلاء بعد كتابيه «آخر ظرفاء ذلك الزمن» حول سيرة كامل الشناوى و«القديس الصعلوك» عن سيرة عبد الرحمن الخميسى.

أهل الكهف
توفيق الحكيم
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ١٣٥ صفحة



أصدرت «دار الشروق» هذه المسرحية ضمن مشروع كبير يتضمن إعادة نشر الأعمال الكاملة لأبى المسرح العربى توفيق الحكيم. وكما يقول الأديب والصحفى محمد سلماوى فى تعليقه على هذا المشروع، إن الأمم لا تنمو ولا تزدهر إلا بمقدار ما يكون تراثها ماثلاً فى حاضرها، وإلا انفرط عقدها وفقدت ماضيها ومستقبلها معاً فى التاريخ والسياسة كما فى الآداب والفنون.

ويقول سلماوى أيضاً «إن المشكلة ليست فقط فى عدم إبقاء تراث الحكيم حياً على خشبة المسرح، وإنما أيضاً فى عدم توفره كنص مطبوع، حيث إن الكثير من مسرحياته نفدت من الأسواق ولم يعاد طبعها منذ سنين».

ولا شك أن إعادة طبع هذه المسرحية التى تدور حول قصة أصحاب الكهف التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، يلبى نداءات عديدة من جمهور القراءة فى العالم العربى لطبع أعمال الرواد الذين ساهموا فى تشكيل العقل الثقافى العربى وفى ترقية ذوقه الفنى.

هوامش ثقافية
د. ماهر شفيق فريد
القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٤٠٠ صفحة



يضم هذا الكتاب مختارات من مقالات د. شفيق أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة على امتداد ٤٣ عاماً من ١٩٦١ حتى ٢٠٠٤، وينقسم إلى أربعة أقسام: فى النقد الأدبى، والشعر، والرواية والقصة القصيرة، والمسرح.

فى قسم النقد الأدبى يتناول عدداً من القضايا العامة مثل ثقافة الطفل وحوار الثقافات والمعارك الأدبية وأدب المقاومة الفلسطينية وغيرها.

وفى قسم الشعر، يتناول قضية الغموض فى الشعر الحديث وعدداً من الدواوين لفاروق شوشة وحامد طاهر وأحمد تيمور وماجد يوسف وغيرهم.

ومن الساحة الروائية والقصصية يسلط المؤلف الضوء على الروائى الراحل نجيب الكيلانى، وقصاصين معاصرين مثل أحمد جبريل وأحمد درة وغيرهما.

وينتهى الكتاب بقسم المسرح الذى يتراوح ما بين المسرح الشعرى المصرى فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين عنه نجيب سرور ومحمد إبراهيم أبو سنة، ودفاع عن المسرح الخاص، وعرض لعدد من المسرحيات.

والكتاب لا غنى عنه لدارسى المشهد الأدبى الراهن، إذ يجمع بين دفتيه عدداً من المقالات المهمة والمتنوعة.

مقدمة فى الأصولية المسيحية فى أمريكا والرئيس الذى استدعاه الله
عادل المعلم
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ١٧٣ صفحة



منذ مطلع العقد الأخير من القرن الماضى، يتصدر مصطلح الأصولية الإسلامية وسائل الإعلام الأمريكية، ومن ثم الغربية، وحتى العربية، ونادراً ما يذكر الإعلام «الأصولية المسيحية» أو «الأصولية اليهودية»، برغم حضورهما الناقذ على الحكومتين الأمريكية والإسرائيلية، واللتين تنفذان مخططاتهما بنجاح - منقطع النظير - خاصة فى الشرق الأوسط.

يقول المؤلف إن جورج بوش يتكلم عن الخير والشر وعن الحرب والإرهاب، كما لو كان نبياً ذا رسالة إلهية، ويكشف فى كتابه من خلال عرض لمقال من مجلة دير شبيجل الألمانية عن الكثير من خفايا شخصية الرئيس بوش كيف كان يعشق الخمر ثم كيف أقلع عنها بزعم أن الله يدخره لمهمة مقدسة، وكيف أنه بعد أن أصبح رئيساً أصبح يؤمن إيماناً جاداً بقضيتين: الأولى: إيمانه بعيسى المسيح، والثانية إبراز القوة الإمبريالية الأمريكية أمام العالم كله.

فبوش الذى عاش الأربعين عاماً الأولى من حياته مثالاً للشخص الفاشل، خاصة بعد أن خسر ملايين الجنيهات فى تجارة البترول، أصبح بعد ذلك متأثراً بالأفكار الدينية الأصولية، ومقتنعاً بأن الله وحده هو الذى سمح له بشغل منصبه الرئاسى فى هذه اللحظات الشديدة الأهمية فى تاريخ العالم.

يلقى الكتاب - أيضاً الضوء على الأصولية اليهودية التى تشترك مع البروتستانت فى الكثير من العقائد التى ترجع أصولها إلى العهد القديم. كما يولى الكتاب أيضاً اهتماماً كبيراً بالأصولية المسيحية فى أمريكا منذ هجرة البيوريتانز وهم طائفة شديدة التدين من البروتستانت من إنجلترا إليها، فراراً بدينهم ليعبدوا الله بالطريقة التى يرونها. ويتابع مسيرتهم فى المجتمع الأمريكى بين الخفوت والصحوة. كما يتابع الكتاب خلافات الأصوليين والحداثيين، وتأثيراتها على الجبهات السياسية والثقافية.

فى حب نجيب محفوظ
رجاء النقاش
القاهرة: دار الشروق، ٣١٨ صفحة



هذا الكتاب هو ثمرة أدبية ونقدية لعلاقة حب وثيقة نشأت بين مؤلفه رجاء النقاش، وبين عميد الرواية العربية نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨. وقد استمرت هذه العلاقة منذ سنة ١٩٥١ إلى الآن، مما أتاح لهذا الكتاب أن يكون مزيجاً من الدراسة الأدبية وسيرة حياة نجيب محفوظ فى نفس الوقت.

جاءت فصول الكتاب المختلفة كنوع من الطيران فى عالم نجيب محفوظ كما تطير العصافير فوق أشجار حديقة كبيرة واسعة، فتنتقل من غصن إلى غصن، دون أن يقيد أجنحتها قيد أو يعوق حركتها عائق.

سطور الكتاب جاءت بلا تعقيد أو غموض بل اعتمدت على الوضوح والسهولة، لتكشف جوانب مفصلية فى تكوين وعى نجيب محفوظ الأدبى والاجتماعى والسياسى.. كيف عاش طفولته فى القاهرة القديمة وكيف تربى ثقافياً على يدى رمزين كبيرين الأول هو

الشيخ مصطفى عبد الرازق والثاني هو المفكر سلامة موسى، وكيف أثرت هاتان الشخصيتان على أدبه وعلى شخصيات رواياته.

كما يكشف الكتاب علاقة محفوظ بالنقد، وكيف أن سيد قطب هو أول من تنبه إلى قيمة نجيب محفوظ الأدبية، وكيف احتفل به في مقال نقدي في مجلة الرسالة، ثم كيف هاجمه د. عبد العظيم أنيس بعد الثورة.

والكتاب أيضاً يقدم في الكثير من فصوله، آراء نقدية مهمة لرجاء النقاش في العديد من روايات نجيب محفوظ، تلقي الضوء على مسيرته الأدبية التي لم تتوقف أبداً عن التطور بالشكل الذي يجعل من هذا الأديب الكبير ظاهرة أدبية وفنية لا تعرف الصدا أو الجمود على الإطلاق، خاصة أنه لم يقف عند مدرسة فنية واحدة، بل جعل أدبه وفنه مجالاً للتجارب الجديدة باستمرار.

*

البكورية في المجتمع التوراتي

دراسة في ديانات الشرق الأدنى القديم
علاء عريبي
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥، ٢٠٨ صفحات، ٥٥٠ قرشاً



يحرص اليهود على القول بأنهم أصحاب أول فكر ديني منظم عرفته البشرية، ويؤكدون أصالة هذا الفكر وعبقريته منذ ظهوره في سنوات ما قبل الميلاد على أيدي أول مجموعة من العبريين. وأشاع بعض هؤلاء اليهود خاصة أصحاب الفكر الصهيوني منهم، أن بني إسرائيل نسبة إلى أولاد يعقوب النبي هم الذين أدخلوا هذا الفكر المتحضر إلى الشعوب المجاورة لهم في منطقة الشرق الأدنى القديم، وأنهم أصحاب الفضل فيما وصلت إليه الحضارات المصرية والعراقية والشامية القديمة، ويزعم بعضهم أن بني إسرائيل شركاء في هذه الحضارات بما قدموه من فكر أصيل، وأن الديانات التي ظهرت بعد اليهودية ـ المسيحية والإسلام ـ قد اعتمدت في مجملها على الشريعة اليهودية، وأن أتباعها قاموا بإعادة صياغة للنصوص التوراتية، وقد مال إلى هذا الادعاء العديد من الباحثين الغربيين والعرب الذين تناولوا حضارات الشرق الأدنى القديم بالدراسة.

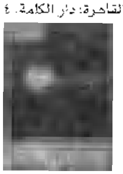
هذا الكتاب يؤكد على أهمية قيام الباحثين العرب بالبحث والتنقيب في حضاراتهم القديمة، بعد أن تركوا الأمر برمته لسنوات طويلة للبعثات الأجنبية تنقب عن الآثار وتسجل نصوص المكتشفات وتقوم بترجمتها إلى لغتها، ثم تقوم بقراءة هذه النصوص حسب هواها أو كما يتوافق والنصوص التوراتية أو مرجعياتهم الثقافية، وفي هذه الدراسة يحاول المؤلف أن يقف على بعض من أصول الفكر التوراتي، وهل هو بالفعل من نتاج العقلية العبرية الفذة، أم إنه نتاج عقليات أخرى؟ وما هي الجذور الحقيقية لهذا الفكر؟.. وذلك من خلال البحث في قضية البكورية، كما جاءت في التوراة من حيث دلالة هذا المصطلح اللغوية والنصية والاجتماعية والفكرية واللاهوتية والسياسية في النصوص التوراتية، وفي الحضارات الأخرى أيضاً.

يؤكد الكتاب أن حق البكورية أو اعتبارات البكورية كانت الميراث المادي (التركة)، والميراث الروحي (البركة)، وأن الثمرة الحقيقية لهذا الامتياز أو الحق هي توريث النبوة أو الكهنوت للبكوري، وأن هذا النظام كان عرفاً أو قانوناً شرقياً في الأساس أخذت به الحضارات البابلية والفرعونية والكنعانية والفينيقية والحيثية قبل مئات السنين من ظهور بني إسرائيل كجماعة أو كأسباط أو كشعب الله المختار، حتى إن بقايا هذا القانون مازالت موجودة في المجتمعات العربية حتى الآن. ويؤكد المؤلف أن هذا القانون قام محررو التوراة بنقله إلى النصوص التوراتية، ليصبح حجر الأساس الذي شيدوا عليها الأسفار جميعها.

*

قاموس الأديان ومعتقدات شعوب العالم

إعداد: نخبة من الخبراء
القاهرة: دار الكلمة، ٢٠٠٤، ٦١٦ صفحة



أعد هذا القاموس أكاديميون ومتخصصون في العلوم الدينية وفلسفة الأديان وتاريخها، ويحتوي على أكثر من ٨١٠٠ مادة علمية تغطي الأديان السماوية الثلاثة وديانات الشرق الأقصى وديانات العوالم القديمة مثل بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين والتيوتون وقبائل المايا والأزتيك وأستراليا وآسيا وأفريقيا، كما يغطي الممارسات والطقوس التي تفرضها تلك الأديان.

ويعتبر القاموس إضافة مهمة إلى المكتبة العربية التي تفتقر إلى هذه النوعية من الكتب، فهو يقدم للقارئ العربي مساحة مهمة تلبي احتياجاته للإلمام العاجل بالكثير من المفردات الدينية ومعتقدات الأقدمين في كل أنحاء العالم.

عمد القاموس إلى تجنب الوقائع والشخصيات التاريخية، وكذلك الأعراف التي لا تتصل مباشرة بالعقيدة أو الأسطورة على السواء، إلا أنه عني ببيان بعض المذاهب الفلسفية أو أصحابها، والحديث عن بعض الرواد أو المفكرين الذين لا يمكن إغفالهم لأهمية ما أعلنوه من توجهات معينة، أو ما صدر عنهم من أعمال أو آثار تتعلق بجوهر العقائد أو طبيعة الشعائر أو المعاملات.

وقد حرصت دور النشر أن يحرر مادة القاموس وبخاصة في الديانتين الإسلامية والمسيحية أن يحررها المتخصصون في كل منهما والمؤمنون بكل منهما بحيث لا تقدم المادة الخاصة بهما على نحو يدعي الحياد أو الموضوعية.

والقاموس يجمع معظم المواد التي تشغل اهتمام الباحثين، كما يتيح الفرصة للاطلاع الواسع والدقيق لجمهرة القراء والباحثين الذين يطمحون إلى مجلد واحد قريب التناول وميسر الفهم ويحيط بأبرز المصطلحات وأهم المعلومات.

*

خطة الهجوم

بوب وودورد
تعريب: فاضل جتكر
الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤، ٤٥٨ صفحة



يستهدف هذا الكتاب ـ كما يقول مؤلفه ـ تقديم صورة ما كان يجري وراء الكواليس لتوضيح دوافع قيام الرئيس جورج بوش ومجلسه الحربي وحلفائه باتخاذ قرار الحرب الاستباقية في العراق من أجل إسقاط صدام حسين.

حصل المؤلف على معلومات كتابه من أكثر من ٧٥ شخصاً انخرطوا بشكل مباشر في الأحداث، بمن فيهم أعضاء مجلس الحرب، وعناصر جهاز العاملين في البيت الأبيض، وموظفون يتولون مستويات متباينة المناصب في وزارتي الخارجية والدفاع ووكالة الاستخبارات الأمريكية، بالإضافة إلى لقاء جمع المؤلف مع الرئيس بوش شخصياً لمدة زادت على الثلاث ساعات ونصف الساعة، بالإضافة إلى لقاء آخر مع وزير الدفاع الأمريكي رونالد رامسفيلد. وقد استغرق المؤلف في التحضير لكتابه أكثر من عام كامل، والذي كشف فيه أن خطة بوش لغزو العراق وإزاحة صدام حسين بدأ الإعداد لها بعد ٣ أيام فقط من هجمات سبتمبر ٢٠٠١، على نحو بالغ السرية، وروى فيه قصة ٨٧ جاسوساً في العراق تابعوا الملفات الشخصية لـ ٦٠٠ من رجال صدام حسين المقربين.

يوضح الكتاب أيضاً مراحل الإعداد لغزو العراق وصعوبة اتخاذ هذا القرار وصراع الأطراف داخل البيت الأبيض، والنقاشات داخل وزارة الدفاع والسي آي إيه والمواجهات مع وزارة الخارجية ومع العالم في الأمم المتحدة ومع دول أوروبا، ومع العالم العربي، والأسلحة التي استخدمت في الحرب، واتصالات بوش وبلير ودور الاستخبارات الإسرائيلية ودور الحلفاء.. وأيضاً لماذا وقعت الحرب؟

تعرض الكتاب أيضاً للأوضاع في العراق ومحاولات صدام حسين قطع الطريق أمام خصومه في أمريكا لشن الحرب على العراق، كما يكشف الكتاب كذلك رؤية وأفكار الحكومة الأمريكية للعراق بعد سقوط صدام والمستقبل المعد له.

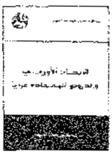
كما يقدم الكتاب فصلاً مهماً في تاريخ الجيش الأمريكي وسياسة البيت الأبيض وتاريخ منطقتنا وصراع العديد من الأطراف بتوجهاتها المختلفة حول تصوراتها لمستقبل عالمنا.

ومؤلف الكتاب هو الصحفي الشهير الذي ألف كتاباً مع كارل بيرنشتاين عن فضيحة ووترجيت التي أدت إلى سقوط الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون.

*

الاتحاد الأوروبي والدروس المستفادة عربياً

د. حسن نافعة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٦٣٦ صفحة



شهد النصف الثاني من القرن العشرين تجارب عديدة لتحقيق التكامل والاندماج الإقليمي في مناطق مختلفة من العالم: شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. غير أن التجربة الأوروبية وحدها هي التي استطاعت أن تفرض نفسها، وأن تحتل موقعاً فريداً ومتميزاً بين جميع التجارب.

يعود هذا التميز إلى أسباب كثيرة أهمها حجم الإنجازات التي حققتها هذه الوحدة الأوروبية من ناحية، وخصوصية المنهج المستخدم في بناء العملية التكاملية ذاتها، من جهة أخرى.

ولأن تجربتي التكامل العربية والأوروبية كانتا قد انطلقتا في وقت متزامن تقريباً، فقد توقع الكثيرون أن تحقق التجربة العربية، بسبب تفوق ما

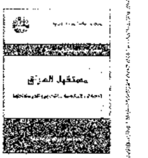
تملكه من مقومات وعناصر الوحدة، إنجازات أكبر وأسرع مما حققته التجربة الأوروبية. غير أن ما حدث جاء مخالفاً لكل التوقعات.

يحتوي هذا الكتاب على دراسة للتجربة الأوروبية بعيون عربية، تستهدف التعرف على الأسباب الحقيقية التى أدت إلى تعثر تجربة التكامل العربى حتى الآن، ووضع اليد على الآليات الكفيلة بإقالة هذه التجربة من عثرتها، وتمكينها من تحقيق انطلاقة جديدة تضمن استمرارها وتطورها فى مرحلة يواجه فيها النظام العربى تحدى البقاء أو الفناء.

مستقبل العراق الاحتلال - المقاومة - التحرير والديمقراطية

د. خير الدين حسيب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ٣٦٨ صفحة



لهذه النصوص التى يحتويها هذا الكتاب، أكثر من قيمة تبرر قراءتها، أولها أهمية الخطاب الذى تحمله من موقع وطنى عراقى.. خطاب يلتزم قضية الوطن، ويلتزم خيار التعبير الشجاع عن الموقف الوطنى منها فى لحظة حرجة ومفصلية من تاريخ العراق الحديث امتدت تأثيراتها عميقاً فى نسيج المجتمع العراقى، وتضع اليوم مصيره الوطنى أمام امتحان تاريخى عسير.

وثانيها، يكمن فى أن ما قيل فى الكتاب لم يقل من موقع وطنى عراقى فحسب، بل من موقع قومى عربى أيضاً.

ولأن خير الدين حسيب يمثل اليوم أحد أكبر رموز العمل القومى العربى، فإن آراءه تعنى قسماً كبيراً من النخب السياسية والثقافية خارج العراق وفى عموم الوطن العربى.

وفى هذا الكتاب يطرح حسيب من خلال العديد من الحوارات التى أجريت معه عدداً مهماً من القضايا ذات الشأن العراقى بكل امتداداته العربية، وكذلك ذات الشأن العربى بكل تأثيراتها على ما يحدث فى العراق.

كما يحكى أيضاً عن نشأته الأولى فى العراق، وكيف عانى من الفقر بعد أن ضاعت ثروة عائلته عقب وفاة جده، وكيف بدأ يمارس حياته السياسية ونشاطاته الحزبية، ودخول المعتقلات عقب ثورة ١٩٦٨ فى العراق، ثم الإفراج عنه بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر.

ويؤكد الكتاب أنه فى أواخر التسعينيات وبانتهاء الحرب الباردة، وصلت أمريكا إلى قناعة مفادها أنه فى السابق كانت القوى العسكرية هى المعيار الأول والرئيسى لتحديد من هى القوى الكبرى فى العالم، بعد أن بدأ العامل الاقتصادى يأخذ أهمية متزايدة.

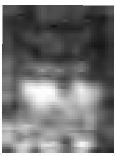
ولأن الاتحاد الأوروبى يعادل ناتجه القومى الناتج القومى للولايات المتحدة، والصين سيصبح ناتجها القومى معادلاً للناتج القومى الأمريكى عام ٢٠١٠ أو ٢٠٢٠، بالإضافة إلى تزايد القوة الاقتصادية لدول جنوب شرق آسيا. فقد نشأت فكرة السيطرة على النفط العالمى ليس لتوفير حاجة الولايات المتحدة فقط، ولكن لاستعماله كورقة ضغط فى علاقات الولايات المتحدة مع القوى الاقتصادية الأخرى فى العالم. فبهذه الورقة تستطيع أمريكا أن تتحكم فى توريد النفط وفى أسعاره، وبالتالى تكون أوروبا واليابان والصين والهند كلها مرتهنة بها.

والكتاب يحفل بالعديد من الآراء السياسية المهمة التى تفسر الكثير عن السيناريوهات التى اتبعتها أمريكا للسيطرة على العالم العربى، كما يقدم أيضاً عرضاً لمستقبل عربى جديد قابل لأن ينبنى بمقتضى الفعالية الإنسانية الواعية.

جامعة الدول العربية والمجتمع المدنى العربى

د. عبد الحسين شعبان

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، ٢٠٠٤، ٩٦ صفحة



يحمل هذا الكتاب الذى يعد رائداً من حيث موضوعه، رؤية مفكر عربى متميز وواحد من أبرز نشطاء المجتمع المدنى العربى، حول قضية مهمة: وهى إصلاح جامعة الدول العربية ودور منظمات المجتمع المدنى.

وقد جاءت فصول الكتاب لتكشف بعمق ورصانة أزمة جامعة الدول العربية وسبل الإصلاح، والعلاقة بين السيادة ومنطق التدخل الإنسانى فى زمن العولمة، وقضية الشراكة بين المجتمع المدنى العربى وجامعة الدول العربية، لتلبى حاجات العقل العربى إلى اكتشاف سبل جديدة وناجحة لتكريس قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان من المحيط إلى الخليج.

يؤكد د. شعبان أنه لا يمكن الخروج بالجامعة العربية من أزمتها وتفعيل دورها، إلا بوجود مجتمع مدنى نشط وحيوى، إضافة إلى خطط الإصلاح السياسى والقانونى والإدارى سواء فى كل بلد عربى أو على المستوى القومى، فضلاً عن إعادة النظر فى ميثاق جامعة الدول العربية وتكييفه ليستجيب للتطورات الدولية الراهنة، وكذلك لتطور الفقه القانونى الدولى ومواثيق حقوق الإنسان.

ويوضح الكتاب أن قضية الحرب على العراق فى ٢٠ مارس ٢٠٠٣ طرحت إشكالية خطيرة تتعلق بتعاطى الجامعة مع قرار الحرب، وجاء تنديد بعض الدول والجهات بالجامعة وأمينها العام وتحميلها ما لا طاقة لها به، ليؤكد أن مطلب الإصلاح أصبح مطلباً ضرورياً، خاصة أن البعض حاول ترويج فكرة غير صحيحة وكأن الجامعة هى المسئولة عما حل بالعراق.

يشير الكتاب أيضاً إلى النقص الفادح الذى يعانيه ميثاق الجامعة فى مجال المجتمع المدنى وحقوق الإنسان، والذى يتطلب معالجته فى أسرع وقت.

والكتاب فى مجمله يستهدف فتح أبواب النقاش حول مسائل الإصلاح والتحديث وقضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدنى، خصوصاً أنها أصبحت مطروحة على نطاق واسع، ولم تعد مسئولية الحكام وحدهم، بل أصبحت من خلال مبادئ الشفافية والحكم الصالح والشراكة من مسئولية المجتمع المدنى ومؤسساته والمثقفين ودعاة الحداثة، ولا أحد يعفى نفسه من المسئولية أو يتنازل عنها، فالتغيير يدق على الأبواب بقوة، وإن لم يكن سلمياً أو تراكمياً أو تدريجياً ضمن استراتيجيات واضحة ومحددة، فقد يأتى عاصفاً ومدوياً وملتبساً.

نجيب محفوظ.. وطنى مصر حوارات مع محمد سلماوى

القاهرة: دار الشروق، ١٠١ صفحة



تعتمد مادة هذا الكتاب على حوارات ممتدة بين كاتب نوبل العربى الشهير نجيب محفوظ، وصديقه الصحفى والأديب محمد سلماوى، وهى حوارات استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة مسجلة، يتحدث فيها محفوظ عن مصر التى يعرفها أكثر من أى شخص آخر، يعرف تاريخها وحضارتها وناسها الذين يسكنون الحوارى والأزقة فى المدينة القديمة، والذين تمتلئ بهم رواياته، كما يعرف أيضاً مشاكلها الحقيقية من الأزمة الاقتصادية إلى التطرف والإرهاب.

ومع انتماء سلماوى لجيل آخر فى الثقافة المصرية، فإن هذا الاختلاف يولد شرارة حديث شيق بين الرجلين.

فى أولى صفحات الكتاب، يلقى الحوار بين الرجلين الأضواء على فترة تكوين نجيب محفوظ من خلال كلامه هو شخصياً عن عالمه الخاص فى حى الجمالية الذى ولد فيه وتعرف من خلال مبانيه القديمة على شخصية مصر الحضارية وتاريخها العريق، وكان له الأثر الكبير فى تكوين شخصيته الأدبية.

وفى حوارات تنساب بهدوء وهى تفجر الأضواء عن جوانب شخصية نجيب محفوظ كإنسان قبل أن يكون أديباً، تكشف فصول الكتاب أفكار نجيب محفوظ عن القاهرة الإسلامية، وكيف أنه يعشق الأحياء المملوكية والأيوبية والفاطمية بشكل خاص. وكيف تشرب بروحها وتمثل كل جوانبها المختلفة، واستخدمها كمسرح لأحداث رواياته.

تطرح الحوارات أيضاً آراء محفوظ فى عوالم السياسة والدين والثقافة، وعلاقته بثورة ١٩١٩، وثورة يوليو ١٩٥٢، والعلاقة مع اسرائيل والسعى نحو السلام، والهجوم الإعلامى الذى لاقاه نجيب محفوظ فى هذا الخصوص، كما تطرح الحوارات أيضاً آراء محفوظ فى المرأة وكيف أثرت الأم فى حياته وعلى شخصيته وطريقة نظرته للحياة، وكذلك علاقته بابنتيه فاطمة وأم كلثوم وكيف يتعامل معهما بديمقراطية.

والكتاب بصفة عامة هو جولة ممتعة فى ثنايا شخصية نجيب محفوظ وفى آرائه السياسية فى مختلف القضايا.

وقد أختير هذا الكتاب كأفضل كتاب فى شهر ديسمبر ١٩٩٦ فى نادى الكتاب الفرنسى.

من يهودية الدولة حتى شارون

عزمى بشارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢٩٠صفحة



يقدم هذا الكتاب مساهمة بحثية مهمة فى تحليل إشكاليات وتناقضات نظام الحكم فى نقاط تقاطع السياسة مع الاقتصاد والأيديولوجية السائدة فى إسرائيل.

يكشف الكتاب تناقضات الديمقراطية اليهودية بشكل عام وعلاقة الدين بالدولة، وقضايا المواطنين العرب فى الكيان الصهيونى، بالإضافة إلى أنه يقدم بشكل مختلف وجديد طبيعة إسرائيل الكولونيالية.

وبشكل ديناميكي تتناول أبواب الكتاب الخارطة الإسرائيلية وتطورها بشكل يجسد التناقضات التي يحفل بها المجتمع الإسرائيلي. كما يتطرق الكتاب إلى الاقتصاد والنموذج الإسرائيلي للتفاعل مع العولمة.

يختلف الكتاب عن غيره في أنه لا يقدم تحليلاً تاريخياً للصهيونية، ولكنه يتعامل معها كفعل سياسي اجتماعي، ويشخص إشكالياتها الأساسية، فهو يقدم رؤية من الداخل للمجتمع الإسرائيلي، منتقداً في نفس الوقت العديد من الآراء المسبقة الخاطئة حول إسرائيل والمنتشرة عربياً.

ومؤلف هذا الكتاب هو الدكتور عزمي بشارة الحاصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة، وعضو الكنيست الإسرائيلي، والمناضل القومي وصاحب المواقف الوطنية ضد السياسة الإسرائيلية.

وهو في هذا الكتاب يقدم حصيلة بحث وتجربة طويلة يمكن اعتبارها تجمع بين النظرية الاجتماعية والفلسفة والمراقبة الميدانية التي تضاف إلى الجهد النظري الذي بذله المؤلف، والذي يستهدف من كتابه هذا - كما يقول هو - تفكيك ونقد وإعادة تركيب جوانب أساسية في المجتمع والسياسة الإسرائيلية تمكن من نقد شامل مبني على المعرفة لهذا المجتمع.

※

وصف مصر في نهاية القرن العشرين

د. جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٢٣٧صفحة



يقدم هذا الكتاب تصويراً بارعاً لما آل إليه المجتمع المصري في نهاية القرن العشرين، في الاقتصاد والسياسة والتعليم والثقافة والإعلام، وفي العلاقات الاجتماعية، بما في ذلك العلاقة بين الطبقات وبين الناس والحكومة، وبين المسلمين والأقباط.

يوضح الكتاب كيف قلبت سياسة الانفتاح الاقتصادي الكثير من ثوابت المجتمع المصري وكيف كان لها تأثيرات عديدة على ازدهار الثقافة الوطنية واستقلالها وعلى درجة العدالة في توزيع الدخل القومي، وعلى أنماط السلوك والعلاقات الاجتماعية السائدة، وعلى قدرة المجتمع المصري على الإبداع الناتج عن ثقافته الخاصة وشخصيته المتميزة، وكذلك على استقلال الإرادة السياسية للأمة.

وبتحليل علمي دقيق وموسوعية ثقافية يتميز بها د. جلال أمين، تتوالى فصول الكتاب ما بين نقد النموذج اللبناني في الانفتاح الاقتصادي والذي اختفى فيه دور الدول، وكيف أصبح النموذج المصري نسخة مكررة منه تقريباً.. إلى استعراض ظاهرة العمارات الجديدة المنهارة، باعتبارها عينة عشوائية لما يحدث في المجتمع المصري منذ تطبيق سياسة الانفتاح.

كما تولي فصول الكتاب اهتماماً كبيراً بالتأثيرات الثقافية لسياسة الانفتاح على المجتمع المصري، وكيف تغيرت الكثير من إيجابيات العقل المصري من الإنتاج إلى الاستهلاك، وكيف ظهرت أنماط جديدة من القيم والسلوكيات السلبية أصبحت منتشرة في شوارعنا ومؤسساتنا المختلفة.

والكتاب في مجمله رحلة داخل دهاليز المجتمع المصري يرصد أحوال فئات كبيرة من المصريين في أسلوب معيشتهم في مباريات الكرة، وفي قرى الساحل الشمالي، وداخل عربات المترو.. وغيرهما.

ويتحدث الكتاب أيضاً عن الحجاب والنقاب، ونظرة المجتمع إلى المرأة، وعن العنف الديني سواء بالسلاح أو بالمناظرات السياسية وتكفير الناس، وعلى ازدياد العنف في الصعيد الذي يعامل من حكام القاهرة على مدى أكثر من نصف قرن معاملة ظالمة ومجحفة.

يتجول الكتاب أيضاً في نظامنا التعليمي ويكشف سلبياته ونفاقه إلى درجة تقديس الحاكم، وتبجيل سياساته دون إعطاء الطلاب الفرصة لمناقشتها بموضوعية: بإيجابياتها وسلبياتها.

كما يشتمل الكتاب كذلك على الكثير من النقد لوسائل الإعلام، وحياتنا السياسية والاقتصادية ويفرد صفحات عديدة بعنوان دليل «الرجل الذكي إلى بيع القطاع العام» يربط فيها ما بين السياسة والاقتصاد، ليكشف بوضوح كيف تدار الثروة الوطنية في مصر لصالح فئات معينة.

※

التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ١٢٠٠ صفحة



يقدم مركز دراسات الوحدة العربية في هذا المجلد الطبعة العربية من كتاب معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولي «سيبري»، وذلك بالتعاون مع المعهد السويدي بالإسكندرية.

يوجه هذا الكتاب - وهو الخامس والثلاثون - اهتماماً خاصاً إلى أحداث سنة ٢٠٠٣، والتي يغطيها بمعلوماته وتحليلاته وتعليقاته على التطورات في مجالات الأمن السياسي والمؤسسي والحد من التسلح وحظر انتشار السلاح في جميع أنحاء العالم.

كان الحدث الأبرز هو الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله، وما طرأ على ذلك من تداعيات أهمها أو أكثرها تأثيراً: ميلاد المقاومة العراقية ونموها وتصاعد دورها.

إن موضوع احتلال العراق يطرح ذاته في هذا الكتاب السنوي بقوة مهيمنة تجلت في إفراد المقدمة له. وهي مقدمة شاملة جاءت لتسليط الضوء على عدد كبير من قضايا التسلح ونزع السلاح وسياسة الأمن الدولي من جوانب عديدة، وصولاً إلى استخلاص الدروس العامة للحد من انتشار السلاح.

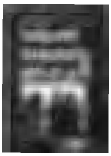
وما يميز تناول معهد سيبري عن غيره من التقارير السنوية التي تصدرها مراكز أخرى هو تفوقه في رصد المعلومات الاستراتيجية والسياسية والدبلوماسية والأمنية، ثم تفوقه في تحليلها بدرجة عالية من الدقة والموضوعية، ولعل ذلك هو ما ينشده القارئ العربي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا.

※

الأصولية اليهودية في إسرائيل «الجزء الثالث»

إسرائيل شاحاك - نورتون متر فينسكي

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ١١٧ صفحة



يلقي هذا الكتاب الضوء على الدور الذي تلعبه الأصولية اليهودية داخل إسرائيل، وكيف أصبحت خلال السنوات الأخيرة عنصراً أساسياً في صنع القرار الإسرائيلي: سواء في الاستمرار في سياسة الاستيطان أو التمسك بالترسانة النووية أو التطرف في رفض السلام العادل في المنطقة وإهدار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني.

والكتاب بأجزائه يقتفي التاريخ اليهودي وتطور الأصولية اليهودية على أسس الشعب المختار، وأرض الميعاد، ومجيء المسيح، كما يقدم رؤية هؤلاء الأصوليين اليهود للآخر، والمرأة، والديمقراطية، وقيم الحضارة الغربية، وهي قضايا تكتسب أهمية خاصة في هذه المرحلة، خاصة بعد أن ارتفعت أصوات عدد كبير من مفكري وكتاب الولايات المتحدة الأمريكية، بأن حضارتها وحضارة الغرب قائمة على أسس يهودية مسيحية.

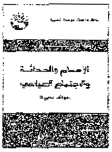
وفي هذا الجزء الثالث من الكتاب، يكشف المؤلفان أسراراً بالغة الأهمية حول المذبحة التي ارتكبها المتطرف اليهودي باروخ جولد شتاين داخل الحرم الإبراهيمي حينما أطلق النار على المسلمين الذين كانوا يصلون صلاة الفجر في صحنه فقتل العشرات منهم وأصاب ضعفهم، حتى تمكن منه المصلون وقتلوه، ثم كيف اعتبره الأصوليون اليهود بعد ذلك قديساً وشهيداً وشفيعهم في الفردوس، لأنه فعل ذلك - من وجهة نظرهم - باسم الله.

ويستعرض المؤلفان أيضاً في هذا الجزء، مصرع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين الذي أطلق عليه أحد المتطرفين اليهود ويدعى إيجال عامير النار مستنداً إلى أحكام الشريعة التي يؤمن بها، وهي ضرورة قتل الواشي.

※

الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي.. حوارات فكرية أجراها عبد الإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤، ١٤٧ صفحة، ٦ دولارات



يتضمن هذا الكتاب حوارات فكرية أجراها عبد الإله بلقزيز مع كل من: محمد عابد الجابري ورضوان السيد وهشام جعيط ووضاح شرارة وعلي أومليل، متناولاً جملة من أهم القضايا الفكرية التي اشتغل عليها التأليف العربي المعاصر في العقود الثلاثة الأخيرة كالحداثة، والدولة والمجتمع، والديني والسياسي، والثقافي والمثقف، والاستشراق، والديمقراطية والاختلاف، والوحدة والانشقاق في التاريخ العربي.

يجمع بين هذه الحوارات تناولها لموضوعات مترابطة يفضي بعضها إلى بعض، وانطواؤها على نفس فلسفي عرف به المفكرون الخمسة الذين أجريت معهم هذه الحوارات، وإن كان أكثرهم من ذوي اختصاص آخر لم يقطع صلتهم بالفلسفة، كما تجمع بينها القيمة العلمية الرفيعة لإنتاج هؤلاء المفكرين.

إنها حوارات شاملة تأخذ مداها في استنطاق المادة الفكرية التي أنتجها أصحابها بأسئلة تطل على معظم ما أنتجوه من بداية عقد الثمانينيات وحتى مطلع هذا القرن عارضة على القارئ غناها في اختلافها، وتنوع مقارباتها، ومنطلقاتها النظرية.

※

محمد لطفى جمعة.. انظر حولك فى تشاؤم!

فى المناخ السائد منذ أكثر من نصف قرن، بسبب ماران على البلاد من استبداد امتص العافية والصحة والحيوية. وداس على الصدق والأمانة والقيم، وشوه المفاهيم بالأكاذيب وعملق الأقزام وقزم العمالقة.. يصبح من الطبيعى أن يتضاعف الجهل وتتقهقر الأسماء العظيمة فى زوايا النسيان المتعمد: خدمة للسطحية والتفاهة والارتزاق. وينسى كاتب مجيد مثل محمد لطفى جمعة (١٨ يناير ١٨٨٦ - ١٥ يونيه ١٩٥٣). ولولا جهود ابنه رابح فى إصدار إبداع أبيه المتنوع، لأصبحت الجريمة كاملة.

ويساق الحديث عن أديبنا بمناسبة ظهور الجزء الثانى الضخم من كتابه «شاهد على العصر مذكرات محمد لطفى جمعة» ويقع فى ٨٨٠ ص من القطع المتوسط فى عام ٢٠٠٢.

ويتسم هذا الجزء من المذكرات بالتشاؤم والسوداوية فى الرؤية إلى البشر والأشياء والمجتمع والمستقبل أيضاً. وترجع هذه المرارة التى تغرق فى اليأس.. إلى إحساس صاحبها أنه لم يقدر حق قدره وأن الغبن ظلمه. وهذه الحالة النفسية أفسدت على محمد لطفى جمعة الكثير من أحكامه على الأفراد والجماعات والوطن. وجعلته يرى نصف الكوب الفارغ. ساعد على ذلك أنه لم يصارح نفسه بأخطائه: وأكبرها انضمامه إلى أحد أحزاب الأقليات التى بلا جذور شعبية وإنما تعتمد فى وجودها على الملك والإنجليز وتزوير الانتخابات. وهو الحزب السعدى برئاسة أحمد ماهر. ومن المؤسف أن هذا الحزب نفسه هو الذى خذله ولم يحقق له طموحه فى أن يرشحه لمجلس النواب.. ووصل به الحال إلى أن يمتن على وطنه بجهاده السابق فى سبيله!

ولتغطية موقفه من حزبه الفاسد. يصم كل الأحزاب بلا استثناء بالفساد. ويصم كل الانتخابات منذ بدايتها سنة ١٩٢٤ إلى عام ١٩٤٥ التى كتب فيها يومياته.. بالتزوير. نكاية أيضاً بحزب الوفد الذى يكرهه مفكرنا كراهة التحريم. يكتب فى الثلاثاء ٩ يناير ١٩٤٥: «أمس كان الانتخاب العام للبرلمان الجديد وهو انتخاب «مطبوخ» مثل كل انتخاب من سنة ١٩٢٤» (ج٢ - ص ٣٢٠).

والإحباط الكثير والتشاؤم المتدافع واليأس المرير تتراكم فى المذكرات عن أحوال مصر خاصة فى فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، بينما هى فى الواقع من أزهر صفحات اليقظة فى تاريخنا الحديث. ويرجع السبب المباشر فى ذلك. بجانب حزنه لتجاهل المجتمع له - إلى أن مفكرنا وقد اقترب من الستين.. ابتعد عن نبض الشعب وكفاح شبابه. بحكم اندماجه فى مجتمع جيله الذى شاخ هو الآخر وكثر فساده.

إن السوداوية بسبب ضيقها بالنفس والعالم، تنساق إلى التعميم الشديد وتجعل الاستثناء قاعدة، وتطمس المعالم الإيجابية حتى لا تكشف ما تحمل هذه السوداوية من هبوط وافتعال وتشويه.. وهكذا فعل كاتبنا الكبير.. فإذا الحياة كلها فى مصر فاسدة منحطة لا أمل معها فى شىء!

وتتراوح اليوميات بين سطر واحد إلى عدة صفحات بحيث تتحول إلى مقالات طويلة ليس فيها من روح المذكرات شىء، وقد أثقلت هذه المقالات المذكرات التى ضلت طريقها إليها وبعثت الملل، خاصة وهى تكرر نفس الموضوع السياسى، وأكثرت من عدد الصفحات بلا ضرورة وبعضها نشره الابن لأبيه كمقال مستقل فى الصحف، مثل «الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط وفكرة الفرعونية» من مذكرات عام ١٩٤٣ وشغل ست صفحات من ص ٢٠٤ - ٢٠٩!

وأهمية شاهد العصر أنه يملك بحكم نظرته أدق التفاصيل، التى يمكن أن تغيب عن المراجع. ومذكرات محمد لطفى جمعة زاخرة بذلك والتى تنفث الحياة فى الأيام الخوالى.

ومن الأشياء التى يقود إليها صدق المذكرات.. صور الضعف الإنسانى فى شكل صريح أو ضمنى، ومهما حاول صاحبها تبريرها فهى تعلن عن نفسها. وتظهر جلية عندما يخفق محمد لطفى جمعة فى مسعى أو يتعرض لنقد. من الأولى تأمله وغضبه لعدم استجابة الحزب السعدى، ومفكرنا من رجاله أيام رئاسة أحمد ماهر للوزارة، لرغبته فى ترشيح نفسه لمجلس النواب.. وإذا هو بين إدانتهم والتقرب منهم. ومن اللون الثانى عنفه الغاضب إزاء نقد المستشرق «جب» له.

ومذكراتنا حافلة بخفايا الحياة الفكرية وكثير منها فى حكم المجهول: مثل السرقات الأدبية أو ادعاء تأليفها. كقيام أحمد طلعت (زوج الشاعرة الإنجليزية فيليس) بكتابة بعض مؤلفات أحمد الصاوى محمد - رئيس تحرير «الأهرام» الأسبق والأديب المشهور - غير الأدبية مثل «الوحش الأصفر».. لقاء أجر! (ص٣٢٢). ووضع فتحى زغلول اسمه على «الكتاب الذى ألفه محمد عمر الموظف بالبريد على كتابه «سر تأخر المصريين»! (ص٣٢١).

وتتضمن الخفايا المبادل أيضاً، كقيام كامل الشناوى وقبله حافظ إبراهيم ليس بدور السمير للكبراء فحسب بل بدور المهرج أيضاً: كما كانا يفعلان فى حضرة محمد محمود باشا وغيره! (ص٧٥٤ - ج٢).

وإذا كانت كتابات محمد لطفى جمعة المختلفة تسعى إلى الموضوعية. فهو فى مذكراته يسقطها تماماً من حسابه. هل يكتبها لنفسه ولا يعمل حساباً لنشرها؟ - وإذا أراؤه فى ظل السوداوية تشوه الآخرين متعمدة، معتمدة على ملامح دون أخرى فيما يتناول يظنها تساعده فى التشكيك. ولنتمثل هنا بشخصية واحدة من عديدات أدبية وسياسية وهى توفيق الحكيم. يكتب مفكرنا فى يومية ٣ مايو سنة ١٩٤١: «إن جمود قريحة «الأستاذ توفيق الحكيم أمر لا شك فيه، فإنه لم يبتكر شيئاً بل عاش على إنتاج الأقدمين والجدد، مثال ذلك أنه انتحل قصة أهل الكهف كما وردت فى القرآن وتاريخ جيبون وكتاب Looking Backward، ثم اتخذ اسم شهرزاد وصنع قصته وكتاب البخلاء وغيره ووضع كتاب «تاريخ معدة» وحياة الرسول ووضع كتاباً، وقصة تمثيلية فرنسية اخترع منها «المنتحرة»، ثم سرق قصة «نهر الجنون» ونسبها لنفسه وهى بالإنجليزية فى دائرة المعارف لتشامبرز قرأتها بنفسى...» (ص٩٦ ج٤).

ويسقط صاحب المذكرات متعمداً للحكيم أعمالاً أخرى ظهرت إلى وقتها: «عودة الروح، يوميات نائب فى الأرياف، عصفور من الشرق، تحت شمس الفكر، عهد الشيطان. براكسا ومشكلة الحكم، حمار الحكيم، سلطان الظلام» وغيرها!

والمذكرات الشخصية كى تثمر فائدتها تحتاج إلى صراحة مطلقة تتصل بحياة صاحبها بالدرجة الأولى، ولكنها ليست كذلك عند كاتبنا.. فهى مقيدة. وقد أرادها كذلك منذ البداية: ولذا فإن مساحة القول فى العالم الخارجى المتصل بالآخرين وكشفه - من وجهة نظره التى تخالف الآراء السائدة - أكبر. يرى أن أسوأ ما قدم أحمد شوقى - أمير الشعراء - فى دنياه رعايته لمحمد عبد الوهاب! ويلجأ صاحب المذكرات إلى طريقة طريفة فى قراءة الكتب ذات الأحجام الكبيرة ومئات الصفحات كرواية توماس مان الحائز على جائزة نوبل «بودنبرو» ٩٠٠ صفحة. «فتحاملت على نفسى لأقرأه فتركت بضعة فصول فى أوله ووجدت فصلاً يحسن الابتداء به»! (ص ١٦٩ - ١٧٠ ج٢).

وبالرغم مما هو معروف عن سعة أفق محمد لطفى جمعة ودراسته فى الخارج ومعالجاته المتنوعة لقضايا المجتمع المغلقة، إلا أنه فى مذكراته لم يكن فى مستوى الصراحة التى تتطلبها كتابة المذكرات الشخصية، مما انتقصت من تناوله فى نواح كثيرة وهو يترك علامات استفهام عديدة بلا إجابة. والمتلقى الذى أقبل على المذكرات ظناً أن مثقفه الكبير يستهدى روح البوح الحقيقية كما فى الآداب الأجنبية التى درسها. فقد أخطأ. فشجاعة أو صراحة كاتبنا لم تمكنه من هذا المدى. فمع شدة نقده لقضايا المجتمع والأعمال الأدبية والفكرية، فلا يزال فى كتابة المذكرات رجلاً شرقياً. وتقود هذه السمة إلى أخرى تنبعث من تكوين الكاتب العربى - إلى اليوم.. وهى البون الكبير بين القول والفعل عنده، التى هاجمها محمد لطفى جمعة نفسه كثيراً(!) فمع كل الحديث عن الوطن والتضحية فى سبيله بالنفس والنفيس والمال والولد، فهو يرفض لابنه التجنيد فى الجيش ويدفع له «البدلية» التى كانت سائدة، وهى مبلغ نقدى - عشرون جنيهاً سنة ١٩٤٧! (ص٧٩٠ ج٢).

ومع الجهد الكبير الذى بذله رابح جمعة، إلا أن القارئ افتقد غياب منهجه فى نشر مذكرات أبيه. وعلى أى أساس جاء وعلة الموقف الذى اتخذه. ففصول اليوميات كلها بلا استثناء كما تدل عناوينها: ليست هى «كل» المذكرات بل بعضها فهى «من يوميات سنة».. فهل جاء ذلك فى الأصل بقلم صاحبها؟ أم بتحرير ابنه؟ وإذا كان الثانى فماذا ألغى؟ ولماذا؟

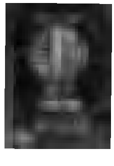
وبعد الزمن والأحداث والشخصيات، وتكاثف الجهل فى ظل حكم الفرد، تجعل من الماضى - من نصف قرن - ألغازاً تحتاج للقارئ العادى وربما غير العادى أيضاً إلى التفسير، ومن ثم إلى المزيد من الاستعانة بالهامش، خاصة فى ظل غياب كتابات محمد لطفى جمعة سنوات طويلة عن نظر المتلقى.

علاء الدين وحيد

شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفى جمعة
تقديم ومراجعة: رابح لطفى جمعة
القاهرة: عالم الكتب ٢٠٠٢ الجزء الثانى، ٨٨٠ ص

في مواجهة الأمركة

د. محمد أحمد النابلسي
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤، ٢٠٤ صفحات



يبين هذا الكتاب أن حقيقة الأمركة هي فعل اعتداء ناجز، ومخالفة صريحة للشرعية الدولية والأخلاق، وسطو على ثروات الآخرين لإنقاذ الشركات الأمريكية المفلسة، كما أنها تجعل المواطن الأمريكي يعيش أزمة اقتصادية وعجزاً في الميزانية، وتهديداً لمدخراته وجانه وتعويضات تقاعده.

يقدم المؤلف في كتابه مقترحات لمواجهة الأمركة، من خلال كشف حقيقة الديمقراطية الأمريكية الموعودة، بمراجعة نقدية لمشاريعها وخلفياتها وطموحاتها وأدواتها، وترجمة نصوصها إلى العربية ووضعها أمام القارئ العربية بقراءة نقدية لها، كما يقدم المؤلف دراساته لعدة كتب تلعب دوراً مهماً في صنع القرار الأمريكي، وفي تحرك المخابرات الأمريكية في بلادنا، مثل: نهاية التاريخ، ونهاية الإنسان، والمخابرات في سوق الثقافة، واستندت هذه الدراسات أيضاً إلى تحليل لتحركات الإدارة الأمريكية السياسية، ولجماعات المجتمع المدني المصطنعة في مختبرات وكالة المخابرات الأمريكية.

يتوقع الكتاب عودة الاستعمار، ويشرح أهداف الحرب الاستباقية التي تتبناها إدارة بوش، وتغيير الخريطة العربية، والمقاومة الشعبية ضد الأمركة، والقطب الصيني البديل، ويقدم زمن الفوضى الأمريكية وأزمتها الاقتصادية، وانتهاكاتها للقانون الدولي. كما يناقش الكتاب مشروع بوش للعالم بعد أحداث ١١ سبتمبر وذيولها، واعتماده سياسة الأحلاف العسكرية، ويبين حقيقة المسيحية الصهيونية، وخصوصيات الأمركة الثقافية وكيفية اصطدامها بالخصوصيات الثقافية لبلدان العالم.

ويرى الكتاب أنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ترجمت الولايات المتحدة الأمريكية تفردها كقطب واحد، بحرب العراق الأولى، ثم طرحت بعدها النظام العالمي الجديد، ثم جاءت بقضية عولمة اقتصاد السوق الأمريكية، كما عدلت في استراتيجية حلف الأطلنطي كي تملك حق التدخل بالمناطق التي ترى فيها تهديد مصالح لدول الحلف، وهذه الذريعة هي التي استخدمها جورج بوش بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ ليشن حربه على ما يسميه بالإرهاب، ثم على العراق متجاوزاً الأمم المتحدة، وهو ما يعتبر مشروعاً لأمركة العالم.

كما يقرأ الكتاب مستقبل المنطقة العربية على ضوء ذلك الهوس الأمريكي.

صيد العصاري

محمد جبريل
القاهرة: دار البستاني للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ١٤٤ صفحة



«صيد العصاري» مثل سابقتها «حكايات الفصول الأربعة» قصة متوسطة الطول، تقع على نقطة ما من الخط الممتد بين الرواية والأقصوصة، وهي شكل أدبي صعب، برع في معالجته محمد جبريل، ومن أبرز نماذجه في الأدب العالمي والعربي «موت في البندقية» لتوماس مان، و«الدب» لفوكنر، و«المسخ» لكافكا و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقي.

هذا العمل الذي تربطه وشائج قوية بأعمال جبريل السابقة «الشاطئ الآخر» و«زمان الوصل» و«زوينة»، يواصل البحث من «زاوية جديدة» في القضية التي ما برحت تشغل بال جبريل في إبداعاته الأدبية الأخيرة: قضية الهوية القومية، ومعنى الانتماء ومتضمنات المواطنة في وجه الأجنبي الغريب. ها هنا جدل خصب - بلغة الفن - بين الأنا والآخر، يتجسد في شخصيات رسم الكاتب أبعادها النفسية والجسمية والاجتماعية بضربات سريعة من فرشاته «فراوي القصة صلاح بكر وهو أديب شاب وكاتب شبح يكتب ما ينشر باسم غيره، والدكتور جارو فارتان الأرمني طبيب الأمراض الباطنة والقلب، وتورا بابا جيان المصرية من أبوين أرمنيين التي تعد رسالة ماجستير عن مذابح الأرمن على أيدي العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، بالإضافة إلى شخصيات أخرى هامشية تدور في أفلاكهم مقتربة تارة ومبتعدة تارة أخرى.

تدور الأحداث في الإسكندرية في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، حيث الانتماءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعقائدية تدمدم تحت السطح كزلازل أرضية مكتومة.. وعلى هذا المسرح الساخن تدور دراما الشخصيات، إزاء خلفية من الأحداث العامة في «عالم غريب معقد مربك من الصعب تغييره».

يهود مصر من الازدهار إلى الشتات

محمد أبو الغار
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٤، ٢٤٦ صفحة، ١٥ جنيها



يعيش اليهود في مصر منذ زمن سحيق.. فحسب ما هو مسجل في الكتب السماوية، فإن اليهود طردوا من مصر في تاريخ يزيد على ألف عام قبل الميلاد. ويشير علم التاريخ الحديث إلى أنه كان لليهود تواجد دائم في مصر منذ القرن التاسع الميلادي.

يتناول الكتاب في بدايته انقسام اليهود المصريين إلى طائفتين حسب الانتماء الديني: طائفة الربانيين وهي الأغلبية ويؤمنون بالأسفار التسعة والثلاثين من التوراة «العهد القديم» بالإضافة إلى التلمود، والطائفة الثانية هي طائفة القرائين وهي أصغر حجماً وأقل نفوذاً ويؤمنون فقط بالتوراة.

وقد لعب اليهود دوراً مهماً في مصر الحديثة، والتي يمكن أن يعد قدوم الحملة الفرنسية نقطة بداية لها، حيث وصل عددهم في مصر إبان حكم محمد علي إلى حوالي ٩ آلاف يهودي، وبدأت أعدادهم في التزايد مع استمرار مناخ التسامح معهم وحصولهم على فرص كبيرة لتكوين الثروات، حتى أصبح عددهم قبل عام ١٩٤٨ أكثر من ٧٥ ألف يهودي.

وفي حين لم يلعب اليهود السفارديم أو الإشكناز أدواراً مهمة في حركة الثقافة المصرية، فقد برزت بعض الشخصيات اليهودية التي أثرت في الثقافة المصرية تأثيراً ملموساً مثل يعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) الذي انتقد الكثير من العيوب في المجتمع المصري بمنتهى الجرأة والشجاعة، وأضحنها انتقاداته اللاذعة لاستبداد حكام مصر، ومثل المحامي مراد فرج الذي كان شاعراً وناقداً، في نفس الوقت قام عدد من اليهود الأثرياء بتمويل عدد من المجلات والجمعيات الثقافية، منها مجلة «الكاتب المصري» التي كان يرأس تحريرها د. طه حسين، كما حفلت الموسيقى والسينما بالعديد من الفنانين اليهود مثل داود حسني وليلى مراد ومنير مراد وتوجو مزراحي ونجمة إبراهيم وكاميليا، ونجوى سالم وغيرهم.

ويفرد الكتاب صفحات طويلة لشرح الالتباس في علاقة اليهود «الأشكيناز» أو «السفارديم» بالحركة الصهيونية وكيف عارض الكثير من اليهود الماركسيين وجود إسرائيل باعتبارها دولة عنصرية، في حين أيدها فريق آخر منهم، وكيف خرج من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠ نحو ٣٦ ألف يهودي من مصر، وبقي من ٨ إلى ١٠ آلاف يهودي حتى نهاية الستينيات خرجوا بعد ذلك تباعاً.

أما عن اليهود المصريين داخل إسرائيل، فقد عاشوا منذ عام ١٩٥٠ حتى ١٩٦٠ في حالة عزلة وإهمال شديدين وكانوا يتولون أعمالاً تافهة ولا ينظر إليهم باحترام داخل المجتمع الإسرائيلي، ثم بدأت أوضاعهم تتغير عقب مفاوضات السلام بين إسرائيل ومصر وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد. حين بدأ هؤلاء اليهود المصريون يعبرون عن أنفسهم وعن الأيام السعيدة التي عاشوها في مصر قبل هجرتهم لإسرائيل.

ويورد الكتاب أمثلة لقصص وروايات كتبها يهود مصريون في إسرائيل، عن الحنين إلى الأيام التي عاشوها في مصر وكيف هاجمها النقاد المنتمون إلى الحركة الصهيونية بعنف.

يضم الكتاب أيضاً حوارات أجراها المؤلف مع عدد من اليهود المصريين في فرنسا منهم يوسف حزان وريمون استمبولي وألبير أوديز وأندريه كوهين الذين ساهموا بدور بارز في الحركة السياسية الشيوعية وغيرهم من اليهود الذين يعيشون في أوروبا ولا يزالون يحلمون بالأيام السعيدة التي عاشوها في مصر، وهم يرفضون الهجرة أو الاستقرار في إسرائيل رغم أنهم زاروها عدة مرات.

وكما يقول باحثون يهود فإن وجودهم في مصر كان يسري عليه ما يسري على المسلمين والأقباط، ويؤكد المؤلف أن اليهود خرجوا بأعداد كبيرة من مصر عام ١٩٥٦، ولم يخرجوا بعد حرب ١٩٤٨، لأنه في خلال هذه السنوات - ما بين هاتين الحربين - شعر اليهود المصريون بأن الظروف السياسية والاقتصادية تغيرت في غير صالحهم، ولم يصبحوا المميزين بين أفراد الشعب المصري، وكان اشتراك إسرائيل في العدوان الثلاثي ضربة نفسية قاصمة لأن هذا العدوان فك أواصر علاقتهم بالوطن لذا قرروا الهجرة، وقد ذهب أكثر من نصفهم إلى أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وأستراليا، والأقلية ذهبت إلى إسرائيل وكانوا الفقراء والأقل تعليماً وبعضهم كان بدون جنسية.

عدل المسامير

خيرى شلبى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٤٠ صفحة



عبر ١٣ قصة قصيرة تحويها هذه المجموعة؛ يأخذنا الأديب الكبير خيرى شلبى إلى عالمه الروائى الذى يتميز بثرائه بتفاصيله الدقيقة، وبتنوع شخصياته وبأحداثه التى تقلب حياة أبطاله وتضعهم على أول طريق الوعى بما حدث ويحدث فى حياتهم.

فنى قصته «عدل المسامير» التى أخذت المجموعة اسمها، تتحطم أحلام بطل القصة وهو طفل صغير عندما يحرمه أبوه تحت ضغط الفقر من التعليم، ويرسله إلى أحد النجارين فى بلدتهم لكى يتعلم صنعة.

ويبدأ الطفل مشواره الجاد مع الحياة التى حرمته من حقه فى اللهو، ووضعته تحت يد المعلم صاحب المزاج ومدمن الأفيون الذى لا يتورع عن ضربه بمنتهى العنف والقسوة بالشاكوش أو علبة المسامير أو قطعة حديد، إلى الحد الذى قام بتعليقه من ذيل جلبابه المبروم بعد أن دقه بالمسامير فى لوح سقف خشبى كان يبنيه، وتركه هكذا معلقًا من قدميه وجسده يتطوح فى الهواء..

وتنتهى القصة بنهاية ذات دلالة موحية حينما يقول الصبى: إنه رغم مرور خمسين عامًا على هذه التجربة القاسية، فإنه لا يزال يشعر بأنه معلق فى الهواء من ذيل جلبابه.. قدماه مصلوبتان فى وجه السماء ورأسه يتدلى فى اتجاه الهاوية.

أحداث قصص المجموعة كلها لها طابع مصرى أصيل، ينسج من خلالها أديبنا الكبير خيرى شلبى، تفاصيل العذابات التى يواجهها أبطاله وأيضًا تفاصيل أفراحهم الصغيرة التى تبدو وكأنها تحيل حياتهم المتعبة إلى لحظات من السعادة الصافية تعوضهم عن شقائهم الطويل.

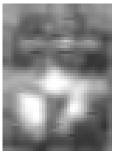
المجموعة كلها تشع بالبهجة وبالانتصار للحياة وسط أحداث سطرها المؤلف بقدرة وموهبة زادتهما خبرة السنين تألقًا ولمعانًا.

❋

صور من الكفاح السياسى والدينى فى مصر الحديثة

المستشار: محمد سعيد الجمل

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٤، ١٩٧ صفحة



يشرح هذا الكتاب فى جزئه الأول، التطور الدستورى الديمقراطى فى مصر منذ عهد الخديو إسماعيل فى منتصف القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٩، وصدور دستور سنة ١٩٢٣، وانتخاب أول مجلس نيابى فى ظل الدستور الجديد.

يؤكد المؤلف أن هذا الكفاح الدستورى استمر طيلة حياة الزعيم سعد زغلول فى مراحل عمره الأخيرة ضد الملك والاحتلال البريطانى حتى وفاته فى أغسطس سنة ١٩٢٧.

وقد كان هذا الكفاح كما كشف عن تفاصيله هذا الكتاب، هو المحرك الحقيقى لنهضة الشعب المصرى فى كل مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما الجزء الثانى من هذا الكتاب، فيوضح مدى الارتباط بين الكفاح الدستورى والتطور الدينى منذ رفاعة الطهطاوى وحتى جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما أشار الكتاب إلى أهم مدارس التطور الدينى خلال القرن العشرين، وأوضح كيف أن تعثر الإصلاح الدستورى كان ينعكس بدوره على الإصلاح الدينى، بما يؤدى إليه هذا التعثر من قيود عديدة على حرية الرأى والتعبير، وهى التى يتيحها عادة وجود إصلاح دستورى.

يؤكد المؤلف أن الإصلاح الدستورى والإصلاح الدينى هو مطلب النخبة المثقفة مهما اختلفت وتعددت مناهجها السياسية، فإن الكتاب يلقى الضوء على التطور الذى حدث فى كلا المجالين.

❋

دوريات

الحياة التشكيلية

دمشق: وزارة الثقافة السورية،

العدد ٦٩

يستجيب هذا العدد من المجلة لهواجس الباحثين فى مجال الفنون، حيث يقدم محورها «علوم الفن» عددًا من مقالات النقد التشكيلى.

كما يحتوى العدد على حوار مع المصورة أسماء فيومى، بالإضافة إلى دراسة عن «الاستشراق الروسى فى القرن ١٩ وبداية القرن العشرين». ويلقى العدد الضوء على الفنان السعودى «طه الصبان»، والفنان السورى «نزار علوش».

بالإضافة إلى مقال بعنوان «فيكتور هوجو.. رساما».. وفى العدد أيضًا مقال بعنوان الشخصية اليابانية فى الإعلان اليابانى المعاصر.

❋

شئون عربية

القاهرة: جامعة الدول العربية، شتاء ٢٠٠٤، ٤ جنيهات



بدراسة بعنوان «ياسر عرفات ثائرًا ورئيسًا» افتتح هذا العدد من المجلة أبوابه التى حفلت بالموضوعات المتنوعة.. منها ملف عن «الإدارة الأمريكية الجديدة والمنطقة العربية»، وشملت أربع دراسات لسعيد رفعت ود. محمد السيد سعيد ومحمد وهبى ود. السيد أمين شلبى.

وبالعدد أيضًا دراسة للدكتور سالم البيض حول دور العولمة فى أحداث ١١ سبتمبر واحتلال العراق.

ودراسة أخرى للدكتور أحمد ثابت بعنوان: «العرب والعولمة ومخاطر التخطط الثقافى».

❋

دبى الثقافية

الإمارات، يناير ٢٠٠٥، ٢٢٦ صفحة

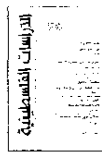


اشتمل هذا العدد على العديد من الموضوعات المتميزة التى تغطى المشهد الثقافى العربى بكافة ظلاله، منها تحقيق بعنوان «المسرح الإماراتى فى غرفة الإنعاش»، تناول المشاكل التى تواجه الإنتاج المسرحى فى الإمارات، وغياب النص وإحجام الجماهير عن ارتياد المسارح إضافة إلى دور جمعية المسرحيين. واهتم العدد أيضًا بملف عن أحوال السينما فى مصر وسوريا والمغرب، بالإضافة إلى موضوع بعنوان: الروائيون قادمون فى العراق، وحوار مع الشاعر عبد الرحمن الأبنودى. وعلى نفس المستوى المتميز للعدد الأول، حفل هذا العدد بأبوابه الثرية بموضوعاتها، كان منها موضوع عن «أكل لحوم البشر» وجولة فى ثلاث مدن هى روما والشارقة وثلا اليمنية وموضوع ثالث عن «النزار»، ورابع عن الأشرار فى السينما المصرية وغيرها. وانفرد العدد بحوار مع فضيلة لعنان وزيرة الثقافة البلجيكية، المغربية الأصل.

❋

مجلة الدراسات الفلسطينية

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شتاء ٢٠٠٤، ١٩٢ صفحة



حول العراق وفلسطين وهموم الرواية العربية، تشر هذا العدد من المجلة آخر حوار مع الأديب الكبير الراحل عبد الرحمن منيف، وبالعدد أيضًا دراسة عن تجربة المقاومة فى مخيم جنين، ودراسة أخرى عن «التعليم الحريدى فى إسرائيل» وثالثة عن العلاقات النيجيرية الإسرائيلية.

❋

أحدث إصدارات
دار الشروق



Distant Star

(نجــم بعيــد)

Roberto Bolano

The Harvill Press:160pp, £ 10.99



فى هذا العمل الأسطورى، يحقق بولانو فى شأن العقلية الخاصة بالفاشية، وحدود الشر فى قدرته على التأثير على الحساسية الأدبية.

ولد روبيرتو بولانو فى سانتياجو، شيلى عام ١٩٥٣ وتوفى فى كاتالونيا عام ٢٠٠٣. ومن أعماله الأخرى فى ليلة فى تشيلى (٢٠٠٣).

وقد أشـــادت به سوزان سونتاج بوصفه أكثر الروائيين تأثيرا و إثارة للإعجاب فى جيله فى العالم الناطق بالأسبانية.

Life after Theory

(نظرية الحياة فيما بعد)

Michael Payne and John Schad

Continuum: 208pp, £ 9.99, 2004

يعد هذا الكتاب إسهاما مفيدا لكل المهتمين بموضوع ما بعد البنيوية ونقد المتبقى منها.

يتكون الكتاب من سلسلة أحاديث مع جاك دريدا، فرانك كيرمود، توريل موى وكريستوفر نوريس.

وقد وصفت مجلة الفيلسوف هذا الكتاب المهم بالقول انه يتسم بالطزاجة. كما انه يتناول قضايا شديدة الحيوية ومثار جدل واسع بين المفكرين والفلاسفة فى أنحاء كثيرة من العالم، وأشارت إلى ان الكتاب يذكرنا بأصول التفكير فى أفضل حالاته.

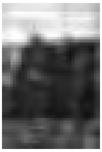
يحاول الكتاب الإجابة عن بعض التساؤلات أهمها: إذا كان موت المؤلف قد تبعه الأن موت مؤلف النظرية، فماذا يتبقى إذن؟

The Face of Battle

(حقيقة المعركة)

John Keegan

Pimilco: 352pp, £ 8.99, 2004



إن «حقيقة المعركة» هو تاريخ عسكرى مأخوذ من أرض المعركة: إنه يقدم نظرة على الخبرة المباشرة للأفراد عند «نقطة الخطر القصوى». إنه يختبر الشروط الجسدية للقتال، المشاعر والسلوكيات الخاصة التى تولدها المعركة، وأيضا الدوافع التى تجبر الجندى على الوقوف والقتال بدلا من الهرب. فى إعادة تقييمه لثلاث معارك هى أجنيكورت، ووترلو، وسوم، ينقل جون كيجان حقيقة ما جرى للمشاركين فيها. إن الكتاب بلا شك هو أحد أفضل الكتب التى نشرت عن حالة الحرب فى اللغة الإنجليزية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية..

Arts in Britain
A History

(تاريخ الفنون فى بريطانيا)

Roy Strong

Pimilico: 720 pp, £ 9.99, 2004



يعد كتاب الفنون فى بريطانيا مدخلا رائعا لكل فرد حيث يعرض لنمو وتطور الأدب والموسيقى والشعر، الفن التشكيلى والمعمارى، والمسرح وكل الموضوعات ذات الصلة بالفن والتى منحت عبر القرون الفكر البريطانى والحياة الثقافية شخصيتها وحيويتها الفريدة.

يعرض الكتاب أيضا بانوراما للقوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأيديولوجية التى شكلت هذه الفنون. يأتى هذا الكتاب فى وقت يتغير فيه شكل أوروبا، موضحا كيف بقيت بريطانيا بعيدة ثقافيا عن بقية أوروبا وما العوامل التى ساعدت على وحدة الثقافة البريطانية؟

Modern British History.. The Essential A-Z guide

(التاريخ البريطانى الحديث.. الدليل الأساسى من الألف إلى الياء)

Mark Garnet and Richard Weight

Pimilco. 448 pp, £ 9.99, 2004

يعد كتاب التاريخ البريطانى الحديث من قبيل المسوح الشاملة المثلية والمثيرة للاهتمام: حيث يشمل الأحداث، الناس والأفكار التى صنعت الشعب البريطانى المعاصر.

قام بكتابة هذا الكتاب اثنان من كبار أساتذة التاريخ فى بريطانيا. فى مائتى مقالة، تشمل موضوعات غاية فى التنوع بدءا بالدعاية إلى حزب العمل الجديد، يكتشف الكاتبان التضافر الخاص بين نسيج كل من الثقافة والمجتمع والسياسة والاقتصاد فى الماضى القريب.

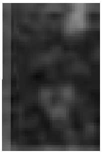
إن المقالات مدعمة بالمعلومات، وتقدم مداخلها بعض المجادلات ولكن فى ذات الوقت تمنح القراء الحقائق الضرورية التى تمكنهم من بناء رأيهم الخاص. وسواء قرئت منفصلة أو مجتمعة، فإن مقالات الكتاب تعد منجما من المعلومات المفيدة التى تمنح القارئ صورة جدلية حول بريطانيا فى بداية القرن الواحد والعشرين.

Nature and Mortality

(الطبيعة والموت)

Mary Warnock

Continuum: 232 pp, £ 9.99, 2004



مارى وارنوك هى فيلسوفة ومتخصصة فى شئون التعليم ولكنها تعمل الآن فى مجال حدودى بين الأخلاقيات والقانون فى العديد من القضايا المتعلقة بالسياسات العامة.

إن الطبيعة والموت هو نظرة متحدية على بعض القضايا العامة الكبيرة فى عصرنا هذا من خلال عينى أحد أفضل المتخصصين الليبراليين فى العلوم الإنسانية.

إنه رواية صريحة تحدد لنا أين نقف اليوم فى بعض الأمور المزعجة مثل الهندسة الوراثية والإجهاض وعلم الأجنة الإنسانى.

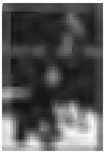
إن آراء وارنوك قد تكون صادمة للبعض، ولكن إسهامها فى هذا الجدال مثير للقراءة دوما.

Being an Actor

(أن تكون ممثلا)

Simon Callow

Vintage: 368pp, £ 7.99, 2004



هذه طبعة جديدة ومنقحة من كتاب أن تكون ممثلا. إن سيمون كالو هو واحد من الممثلين القلائل الذين يتسمون بالإخلاص والفصاحة والمرح. يتتبع هذا الكتاب رحلته المسرحية منذ الرسالة التى كتبها للورانس أوليفر والتى قادته إلى عمله الأول، إلى انتصاره فى شخصية موتسارت فى الإنتاج الأصلى لأماديوس. إن هذه الطبعة الجديدة تخبرنا بالمزيد عن قصته عبر عشرين عاما على المسرح. يحكى كالو عن شعوره غير اليقينى فى بعض الأحيان والجياش بالعاطفة دوما تجاه كل من السينما والمسرح.

أن تكون ممثلا هو دليل ليس فقط لمن يمتهنون مهنة الفن ولكنه أيضا يوضح صعوبة الفن، محكى بحس من المرح والصراحة لأحد أكبر الشخصيات المسرحية.

The Double

(القـــرين)

Jose' Sarmago

The Harvill Press: 288pp. £ 15.99, 2004



عمل آخر رائع يمتاز بالحس الكوميدى للكاتب الشهير خوزيه ساراماجو الحائز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨.

فى الرواية يقوم أحد المدرسين باستعارة شريط فيديو. إنه يشاهد الفيلم بلا تأثر ولكنه يستيقظ فى الليل منزعجا من شيء ما رآه. عاد المدرس إلى مشاهدة الفيلم مرة ثانية، فشاهد أمرا أصابه بالرعب، لقد أدرك أن أحد الممثلين يمكن أن يكون توأمه.

لم يخبر أحدا، ولكنه بدأ فى البحث للعثور على هذا الممثل. من خلال مشاهدة العديد من الأفلام نجح فى تحديد موقع قرينه. ولكن كيف سيكون رد فعل الممثل عندما يواجه برجل يدعى أنه توأمه المماثل؟

يختبر ساراماجو فى هذه الرواية التى ترجمت عن البرتغالية الطبيعة

الفردية والخوف الذى يظهر حينما تتعرض هوية الفرد للتهديد، حينما لا تستطيع الزوجة أن تفرق بين زوجها وبين أحد الدخلاء.

ولد ساراماجو فى البرتغال عام ١٩٢٢، وبالإضافة إلى رواياته العشر الشهيرة، فله مؤلفات فى القصة القصيرة والشعر والمسرح، ترجمت جميعا إلى أكثر من عشرين لغة.

❊

What's the Matter with America?
The Resistible Rise of American Right
(ماذا حل بأمريكا؟.. صعود اليمين الأمريكى)

Thomas Frank
Secker & Warburg: 320 PP,
£12.00, 2004



يحاول أحد أهم المراقبين الاجتماعيين فى أمريكا، وأكثرهم تبصرا فك شفرة الغموض السياسى الكبير فى وقتنا هذا: كيف اجتذب التيار المحافظ، والذى كان يوما ما علامة على التميز الطبقى، الملايين من الأفراد الأمريكيين العاديين.

بيقظته المعروفة، يحول توماس كوك هنا عينه إلى ما أسماه «رد الفعل العنيف» الذى امتد لثلاثين عاما وهو ما يقصد به تمرد رجل الشارع العادى إزاء المؤسسة الليبرالية.

يشير الكاتب إلى نجاح الحزب الجمهورى فى بناء تحالف غير طبيعى: بين العمال فى وسط غرب أمريكا ورجال الأعمال، بين العمال ورؤسائهم، بين الشعبيين، واليمينيين.

يصف فرانك كيف أصبحت ولاية مثل كانساس، والمعروفة باتجاهها الراديكالى، واحدة من أكثر الولايات محافظة.

يطرح الكاتب بعض التساؤلات مثل لماذا صوت الكثيرون من الأمريكيين ضد مصالحنا الاجتماعية والاقتصادية؟

ماذا حل بالحركة التقدمية الأمريكية؟

يحاول فرانك الكشف عن القصة الحقيقية، مظهرا كيف تم إقناع الناخبين بأن يرفعوا من شأن «القيم الأخلاقية» ويخفضوا من أهمية «القيم الوطنية».

نشر هذا الكتاب قبل الانتخابات الأمريكية الماضية حيث قدم تحليلا نقديا للحالة التى عليها الولايات المتحدة اليوم، ويحكى كيف أن مجموعة من الصبية والمحامين، والضباط التنفيذيين قد اقنعوا الأمة أنهم يتحدثون بالنيابة عن الشعب.

لقد شهدت الساحة السياسية الأمريكية خلال السنوات القليلة الماضية تحولا غير مسبوق لصالح اليمين الأمريكى سبق وصول الرئيس الحالى جورج بوش إلى السلطة قبل أكثر من أربع سنوات حينما نجح بحكم من المحكمة العليا الأمريكية إلا أن فترة رئاسة بوش الأولى ثم الثانية جعلت هذا التيار خاصة من يسمون بالمحافظين الجدد يمارس نفوذا شديد التأثير داخليا وخارجيا.

ويعتبر بعض المراقبين أن غزو العراق هو أحد تجليات سيادة اليمين المحافظ فى الولايات المتحدة.

❊

Things.. A Spectrum of Photography, 1850-2001
(الأشياء.. جولة فى فن التصوير ١٨٥٠-٢٠٠١)

Johnathan Cape
Mark Haworth-Booth, 244pp.,
£ 35.00, 2004

وصف مبتكر التصوير الفوتوغرافى البريطانى فوكس تالبوت فن التصوير بأنه بقلم الطبيعة.

لقد استخدم هذا الوسيط قوانين الكيمياء والفيزياء لخلق وصف مفصل للعالم المادى الذى تفوق على كل الوسائل الجرافيكية السابقة.

إن الأشياء كانت أول موضوعات فن التصوير.

نشر هذا الكتاب بالتعاون مع متحف فيكتوريا وألبرت، واستعان ببعض الصور من مجموعة المتحف الخاصة، التى قام بتصويرها الفنانون والعلماء والصحفيون والمصورون التحريريون، كما يعرض لصور رواد فن التصوير وحتى الفنانين المنتمين لما بعد الحداثة.

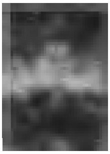
يتضمن كتاب الأشياء أعمال تسعين مصورا بدءا من فوكس تالبوت وجوليا مارجريت كاميرون إلى إيدوارد ويستون، كارتيه بريسون، إيرفنج بن وديان أربس، بالإضافة إلى الجيل الجديد الذى يستخدم التقنيات الجديدة فى أعماله.

ويعد الكتاب الأشياء مسحا شاملا يوضح لنا كيف يمكن أن نرى العالم المادى وبين طيات الكتاب نجد تاريخ التصوير الفوتوغرافى ذاته.

❊

The Great War
Perspectives on the First World War
(الحرب العظمى.. وجهات نظر فى الحرب العالمية الأولى)

Robert Cowly
Pimlico: £ 12.99, 512pp, 2004



فى هذا الكتاب «الحرب العظمى» يجمع روبرت كاولى ثلاثين مقالة مما كتبها علماء تاريخ بارزون مثل مايكل هوارد، جون كيجان، وجان موريس. يختبر هؤلاء الباحثون الحرب العالمية الأولى فى كل مظاهرها المتنوعة. ويجيب على بعض التساؤلات مثل: ما هى المعارك المنسية التى حطمت الجيش الفرنسى عام ١٩١٥؟ كيف أدى اكتشاف كتاب الشفرات للبحرية الألمانية إلى دخول الولايات المتحدة فى الحرب؟

كما يلقى هذا الكتاب نظرة على أسطورة «مذبحة الأبرياء» فى بايرس عام ١٩١٤ ويصف حملة جاليبولى كما لم توصف أبدا من قبل- من الجانب التركى.

و هنا أيضا نجد المعارك المرعبة للحرب البحرية، كما مر بها البحارة البريطانيون والألمان فى معركة جوتلاند، وقصة صعود وهبوط السير جون فيشر، والقصة النادرة للكارثة البريطانية على نهر الفرات.

❊

Body Parts
Essays on Life- Writing
(أجزاء الجسد.. مقالات حول كتابة الحياة)

Hermione Lee
Chatto & Windus 288pp,
£ 18.99 2004.



لم تكن قصص الحياة أكثر شيوعا وشعبية من قبل: نحن جيل من القراء مسحور بتاريخ حياة الأفراد الشخصية. فى هذه المجموعة الشيقة غير التقليدية، تأخذ هيرميون لى بعين الاعتبار الطرق المتغيرة التى تكتب وتناقش بها السير الذاتية، المذكرات والسير المروية عن آخرين. إنها تهتم أيضا فى هذا الكتاب بفكرة عودة الجسد للحياة وحضور حالته المادية والحسية فى قصص الحياة. إن الفصل المعنون «جين أوستين يغشى عليها» تأخذ الكاتبة روايات مختلفة للحظة الانهيار الجسدى لتتساءل: كيف يتعامل الكتاب مع الحياة الخاصة للنساء الشهيرات. أما الفصل الخاص بـ «فرجينيا وولف والمرض» فينظر فى كيف حولت وولف أعراض مرضها نحو الكتابة ويختبر «أنف فرجينيا وولف»: ما حدث لجسدها- وكتابتها- فى التحول من السيرة الذاتية إلى الكتابة الأدبية إلى الفيلم. وتكتشف لى المذاهب المختلفة للكتابة عن الحياة، حيث يختبر فصل «القراءة فى السرير» العلاقة بين قراءة النساء فى سن الطفولة، والكتابة الناضجة.

و يتساءل الفصل المعنون «كيف تنهى هذا كله» عما تفعله كتابة السيرة الذاتية بالموت. يحتوى الكتاب على دراسات قيمة حيث تثير قضايا عميقة عن المناهج المختلفة لكتابة وقراءة الحياة.

❊

I Die, but the Memory Lives on
(أموت ولكن تبقى الذكرى)

Henning Mankell
The Harvill Press: 112pp,
£ 5.99, 2004.



هذا الكتاب المترجم من السويدية للإنجليزية هو لكاتب من أنجح الكتاب الأوروبيين فى هذا الوقت. يجلب كتابه هذا الأمل إلى منطقة يسودها الحزن بكثافة، وهى قارة أفريقيا التى يفتك بها مرض الإيدز.

يوضح هذا الكتاب أهمية الكتب كوسيلة للاحتفاظ بالذكريات وتبادل الخبرات الحياتية.

فى أفريقيا، وتحديدا فى موزمبيق، حيث يعمل الكاتب نصف العام فى مجال التنشيط الثقافى، يؤدى نقص التعليم والمال لشراء المخدرات إلى انتشار الإيدز. وحيث يموت الأبوان فى سن مبكرة، فإنهما يتركان أبناءهما الأيتام خلفهما. إن «كتب الذكريات» هو مشروع يقوم فيه الآباء المصابون بفيروس الإيدز بكتابة بورتريهات عن حياتهم الشخصية وشهادات عن مدى حبهم لأبنائهم الذين سيعيشون من بعدهم. إن التراث المكتوب الذى سيتركونه سوف يكون مدادا بالأمل حتى لا يعانى الجيل الجديد من المصير القاتل ذاته.

❊

A life's Journey

(الرب غير المعروف.. مقالات غير إيمانية)

Continuum: 232pp. £14.99, 2004



كان أنطوني كيني لسنوات عديدة يعمل كاهنا كاثوليكيا، ولكن يبدو أنه استقال من الكهانة وأصبح فيلسوفا معروفا. ولكن، وكما يوضح هذا الكتاب، فإنه لم يستطع قط أن ينفلت من الذات الإلهية، واستمر في الصراع مع المشاكل الفكرية الناجمة عن الإيمان بإله واحد، وإمكانية هذا الإيمان في مناخ تسيطر عليه الفلسفة الوضعية المنطقية.

لقد أعاد قراءة «الكتب الخمسة» للقديس توماس الإكويني، وجادل بأن الكتاب لا يقدم دلائل كافية على تعريف الله. يعمل كيني حاليا كأستاذ في جامعة جون، أكسفورد.

※

Margret Thatcher
Volume 2: The Iron Lady

(مارجريت تاتشر.. الجزء الثاني: المرأة الحديدية)

John Campbell

Pimlico: 800 pp, £ 9.99, .2004



حظي الجزء الأول من كتاب السيرة الخاصة بمارجريت تاتشر والذي حمل عنوان «ابنة البقال» باهتمام النقاد، حيث وصفه فرانك جونسون في الديلي تيليجراف بوصفه «أفضل الكتب التي كتبت عن تاتشر». وبينما تناول الجزء الأول طفولة تاتشر وحياتها العملية المبكرة حتى الانتخابات العامة عام ١٩٧٩والتي أتت بها إلى مقعد الداونينج ستريت، فإن الجزء الثاني يشمل الأحد عشر عاما ونصفا من قيادتها لمنصب رئيس الوزراء.

وبعد ثلاثة عشر عاما من تركها للسلطة، فإن هذه هي أول دراسة متعمقة وشاملة لحكومة تاتشر من بدايتها غير الواثقة حتى نهايتها الدرامية. ويروي كامبل عدداً من المذكرات الخاصة بزملاء تاتشر ومساعديها ومستشاريها ومنافسيها أيضا، بالإضافة إلى عشرات من المقابلات الصحفية، كما يحتوي الكتاب على مواد أصلية من أرشيف رونالد ريجان، ملقيا ضوءا جديدا على علاقة ريجان-تاتشر الخاصة.

※

Winston Chuirchill
The Wilderness Years

(ونستون تشرشل.. سنوات الارتباك)

Martin Gilbert

Pimilico: 288pp, £ 12.50, 2004



كان تشرشل يبدو في عام ١٩٢٨ وكأنه في قمة درجات تفوقه العملي وكانت قيادة الحزب المحافظ ذي النفوذ الواسع تبدو في قبضته. ولكن حينما شكلت الحكومة الوطنية عام ١٩٣١، لم يطلب من تشرشل الانضمام إليها. منذ ذلك الوقت، وعلى الرغم من خروجه من اللعبة السياسية، فإن يقظة تشرشل وحسه السياسي المرهف لم يضمرا طريقته الخاصة، حصل تشرشل على معلومات تفيد بقرب وصول الخطر النازي. على الرغم من تحذير تشرشل للحكومة البريطانية بالخطر النازي القادم، حتى قبل ظهور هتلر، فإن الحكومة كان تقلل من أهمية رسالته، وقامت بمحاربته في كل مكان، كما رفضت أيضا السماح له بالإدلاء بأحاديث إذاعية. إلا أن كل ذلك لم يفت في عضد تشرشل، وحينما بدأ الشعب يدرك حقيقة تحذيراته، كان قد عقد الروابط السياسية التي أفادته في السنوات التالية.

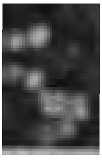
※

Signs & Wonders
Essays on Literature & Culture

(علامات تعجب)
مقالات في الأدب والثقافة

Marina Warner

Vintage: 528pp, £ 8.99, 2004



منذ بداية السبعينيات حينما أرسلت مارينا وورنر تقريرا من فيتنام فإنها كانت واحدة من أكثر المعلقين المتعمقين والمميزين في الحقل الثقافي الماضي والحاضر، كاشفة عن شبكات من الصور والأفكار والمعتقدات، صانعة ارتباطات جديدة ومستفزة.

إن مجموعة المقالات هذه تجمع ما بين مقالات كتبت على مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية، مقدمة مدى واسعاً من أفكارها المتطورة. سواء كتبت مارينا وورنر في الأدب، الدراما، السينما، الدين، فإنها تعكس حسا ثقافيا نادرا يمزج بين الرؤى التاريخية والأنثروبولجية.

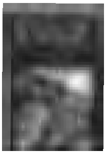
※

Recontructing Rural Egypt
Ahmed Hussein and the
History of Egyptian
Development

(إعادة تنظيم ريف مصر.. أحمد حسين وتاريخ التنمية المصرية)

Amy J. Johnson

AUC Press: 300PP., 2004



يقدم هذا الكتاب عرضاً شديد العمق لكيفية دخول الأفكار الغربية حول العلوم الاجتماعية إلى مصر وكيف أصبحت بعد ذلك جزءاً من برامج الإصلاح فيها. ويكشف الكتاب عن الصلة أو الرابط بين جهود الماضي والحاضر في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية وهو منظور يبدو بعيداً بشكل واضح عن هذا المجال من الدراسات.

ويركز الكتاب على نموذج مصري بارز هو الدكتور أحمد حسين المصلح البارز وأحد أهم المتخصصين في العلوم الاجتماعية في عصره والذي أكمل دراساته في ألمانيا ثم بدأ عمله الحكومي كمفتش في الإدارة التعاونية بوزارة الزراعة حتى عام ١٩٤٨.

وكان أحمد حسين ومجموعة من زملائه قد أعدوا خططاً عام ١٩٣٩ لإنشاء وزارة جديدة في مصر هي وزارة الشئون الاجتماعية ورأس حسين إدارة الفلاح بالوزارة ورسم خططاً لإعادة بناء الريف المصري وأصبح وزيراً للشئون الاجتماعية عام ١٩٥٠ في حكومة الوفد.

وكانت النماذج التي أعدها في المجال الاجتماعي أمثلة يحتذى بها في العالم إلا أنه بعد عام ١٩٥٢ تضاءل نفوذ أحمد حسين حيث رفض المشاركة في تنفيذ خطط الرئيس جمال عبد الناصر الاجتماعية. ووافق على أن يصبح سفيراً لمصر في الولايات المتحدة إلا أن عدم الانسجام مع التوجهات الجديدة للثورة أدى لاستقالته. ورغم أنه لم يشارك بعد ذلك في الحياة العامة إلا أنه أسس مدرسة للتفكير الاجتماعي في مصر مازالت موجودة حتى الآن.

وكان حسين مرآة للعصر الذي عاش فيه، فخبرته في حكومات ما قبل الثورة وخدماته في العهد الثوري ثم تقاعده وخلافه مع النظام الجديد تمثل إلى حد كبير مثالاً حدث مع مثقفي عصره.

ويشير الكتاب إلى أن هناك نماذج كثيرة مثل أحمد حسين كان لها أدوار بارزة في فترة ما قبل ثورة ٢٣ يوليو.

إلا أن اختلافها مع النظام الثوري الجديد حرم مصر من أفكارها وجهودها حيث آثرت الانكفاء على ذواتها في الوقت الذي لم يفكر هذا النظام في اغرائها لكي تشارك في النهضة التي حاول بناءها.

وإذا كان باحث أجنبي قد أخذ على عاتقه اضاءة تاريخ هذا العالم الجليل والسياسي المميز فإن الباحثين المصريين يتحملون مسئولية كبيرة في التأريخ لهذه المجموعة المهمة من مفكري وساسة مصر الذين ظهروا في النصف الأول من القرن العشرين.

※

Lifelines.. Biology, Freedom, Determinism

(خطوط الحياة.. البيولوجيا، الحرية، والإرادة)

Steven Rose

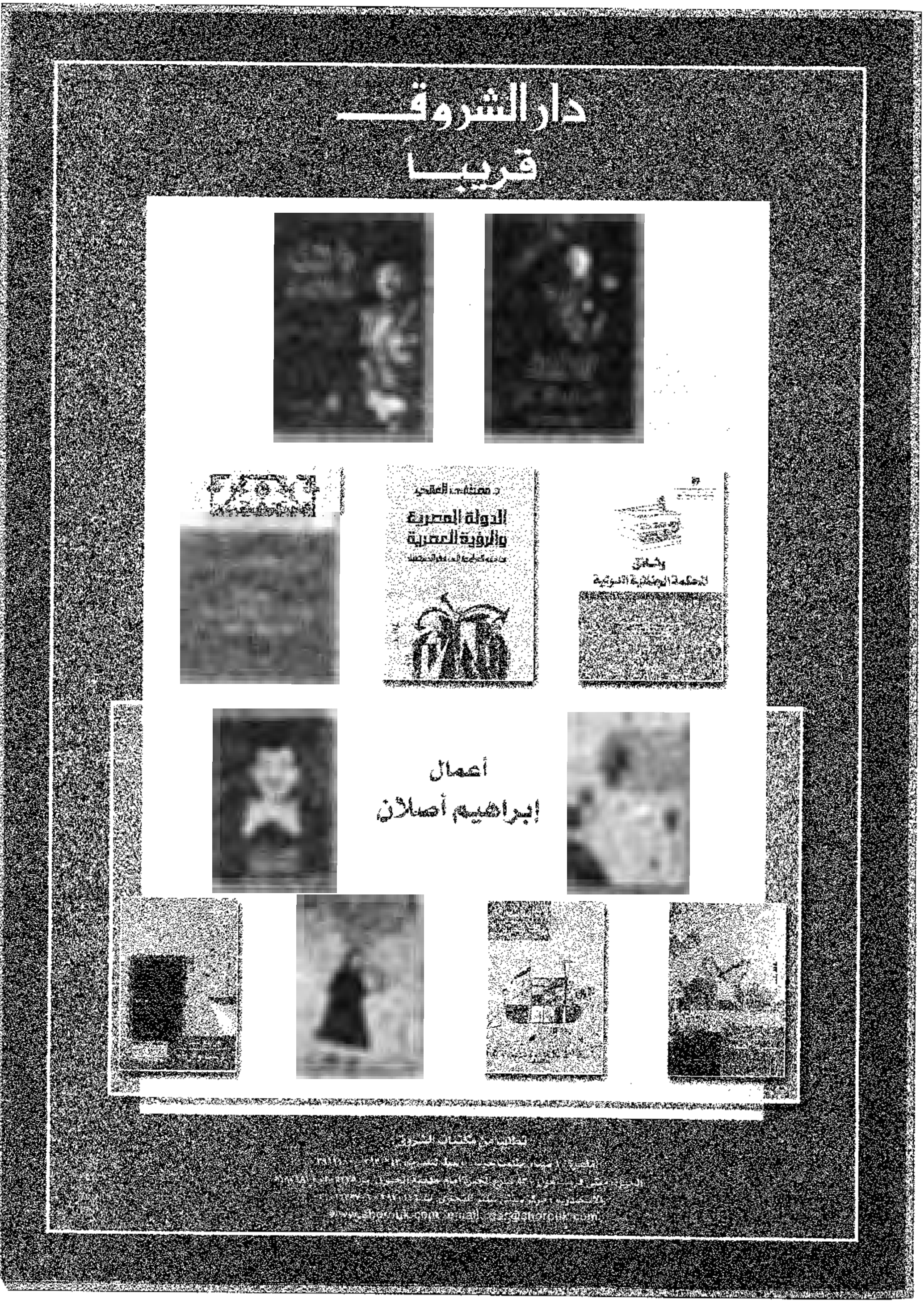
Vintage: 352pp, £ 8.99, .2004



في خطوط الحياة يقدم عالم الأعصاب ستيفن روز نظرية عن الحياة تصر على أننا نحن البشر - بالتساوق مع كل الكائنات الأخرى - نصنع مستقبلنا الخاص، على الرغم من الظروف التي لا نختارها.

بوضع الكائن الحي في مركز الحياة، يواجه روز بشكل مباشر أيديولوجية نظرية الإنقاص ونظرية ما بعد الداروينية، بإصرار مفاده أن كل مظاهر الحياة الإنسانية من الأفضليات الجنسية، إلى التوجهات السياسية، العنف، التسلط الذكوري، هي موجودة في جينات كل منا وهي النتيجة الحتمية لعملية الانتخاب الطبيعي.

※


دار الشروق
قريبا
د. مصطفى الفقي
الدولة المصرية والرؤية العصرية
أعمال
إبراهيم أصلان
تطلب من مكتبات الشروق

كـــــــتب للصـغــــــار

كان زمان: أبواب مصرية
كتاب تلوين للكبار والصغار

تأليف ورسم حلمي التوني
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



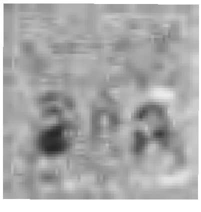
كتاب مختلف عما تعود عليه الناس في كتب التلوين «مجرد كتب للتسلية وإلهاء الصغار حتى يتفرغ الكبار لعملهم». جمع فيه الفنان حلمي التوني من ذاكرته مشاهد وصوراً من الحياة الشعبية المصرية، كادت أن تختفي تحت زحف الحياة العصرية. ويحمل الكتاب دعوة للكبار أن يتذكروا وأن يحكوا لصغارهم عن ماض بسيط وجميل.

عنون حلمي التوني كتابه الأول «مناظر مصرية»، ثم جاء الدور على الكتاب الثاني على نفس الطريق، طريق انتعاش الذاكرة والحفاظ على الذكريات.. وكان الموضوع هذه المرة هو «الأبواب المصرية» التي كانت تشكل لوحات فنية تزين بيوتنا وحياتنا، وكادت تختفي هي الأخرى تحت زحف الزجاج والألمونيوم.

وعبر بحث امتد من أبواب «بيوت بحري» في الإسكندرية أقصى شمال مصر إلى بيوت بلاد النوبة في أقصى جنوبها، يقدم الكتاب ثروة فنية صغيرة، ولكنها شهادة على خاصية حضارية مصرية: هي اختلاط وانصهار وتعدد الثقافات... دعوة للأسرة، للكبار والصغار، للتلوين، للعب والاستمتاع.. وأيضا للتأمل والتذكر واستخلاص العبر.

ثلاث حكايات وثلاث نهايات.. من هذا الزمان

عبد الوهاب المسيري
رسوم: صفاء نبعة
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



هل قرأت قصصا بلا نهاية؟ هل سمعت قصة طويلة لا تريد أن تنتهي؟ هل صادفتك قصة لها أكثر من نهاية؟ في هذه القصص الثلاث المليئة بالمفاجآت المضحكة والمتعبة أيضا، تتعرف على قصة الأطفال الذين يبحثون عن مشروب مثلج في يوم حار، وهي قصة عجيبة لا تريد أن تنتهي، كما تتعرف على قصة الأميرة عاشقة القصص والتي تريد قصة بلا نهاية، وعلى أميرة أخرى حزينة لأنها تريد أن تتحدث مع النجوم والشجر.

د. عبد الوهاب المسيري، الكاتب والفيلسوف يكتب للأطفال ثلاث حكايات وثلاث نهايات.

القطط العشرة

تأليف: سلوى العناني
رسوم: محمد فايد
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



من خلال قصة القطة الأم ومحاولتها تتبع تحركات قطيطاتها العشرة، تصحبنا سلوى العناني في رحلة طريفة يتعرف من خلالها القارئ الصغير على مبادئ الحساب من واحد إلى عشرة.

احتفالات مصرية
سمسمية بندقية

تأليف: راندا أبو المجد
رسوم: وليد طاهر
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



اشتهر الشعب المصري بحبه للاحتفالات في المناسبات المختلفة وتفننه في الإعداد لها بتزيين الأماكن وشراء الملابس وإعداد الأطعمة والحلويات الخاصة بكل مناسبة، وفوق ذلك كله بالإكثار من الزيارات العائلية ومشاركة الأهل والجيران أفراحهم وأعيادهم.

وتسعى سلسلة «احتفالات مصرية» إلى تعريف القارئ الصغير بجانب بهيج من تراثنا الشعبي عن طريق قصص شيقة تبين له أصل هذه المناسبات، إلى جانب مظاهر البهجة والسرور التي ينتظرها الأطفال بشوق من عام إلى عام.

فراس وأحلام المدينة

تأليف: رجاء نعمة
لندن: دار الساقي للطباعة والنشر ٢٠٠٤



تقع هذه الرواية قبل ألف عام، في مدينة تدعى العامرة، مدينة عرفت ازدهاراً فريداً قبل أن تدخل في مسلسل من الحروب ينهي عصرها الذهبي.

فراس، الشخصية المحورية في الرواية، فنان شاب، ينشأ يتيماً إذ يموت أبواه في الحرب وتربيه جدته. منذ طفولته وفراس يحلم بأن ترجع مدينته إلى ازدهارها الذي يسمع به ولم يشهده.

وذات يوم يتراءى له الحل في ما يشبه المنام... فيدعو سكان المدينة إلى إنقاذها عبر فكرة مبتكرة، من أراد منهم أن يحقق أحلامه، فعليه أن يبني ما تدمر وأتلف، ويرسم على أحد جدران بيته الأحلام التي يشتهي تحقيقها.

إثر انقضاء المهلة، وبنهضة أهلها، تبدأ الأحلام تتحقق، وتعود المدينة ثانية إلى ازدهارها.

وما بين ازدهار المدينة الأول والثاني، ومروراً بدمارها، تقدم لنا الرواية عدد كبيراً من الأحداث والشخصيات والملابسات والأسرار والعناصر الواقعية والمتخيلة والفانتازية.

المـــــاء

تأليف: مجموعة مؤلفين
بيروت: مكتبة لبنان ٢٠٠٥



هل تعلم أن...؟ الشمس مصدر معظم الطاقة في عالمنا. السوائل تشغلها الشمس. بالطاقة الشمسية يمكن تشغيل مبان كاملة.

هل تعلم أن...؟ الماء يمكن استخدامه في توليد الكهرباء. النواعير كانت منذ ألوف السنين مصدراً للطاقة. المياه الجوفية يمكن أن تزود بالكهرباء مدينة كاملة.

هل تعلم أن...؟ الفحم الحجري تشكل قبل مئات ملايين السنين. المناجم يمكن أن تكون بعمق ألوف الأمتار. الفحم الحجري يمكن أن يصنع منه صابون.

هل تعلم أن...؟ البلاستيك مصنوع من النفط، الغاز

كتب للصغار

يمكن أن يوجد عميقاً تحت قاع البحر. النفط والغاز يتناقصان وسينفدان في زمن غير بعيد.

هل تعلم أن...؟ طواحين الهواء تستخدم لاستخراج الماء من باطن الأرض، السفن السياحية الحديثة تسخر قدرة الرياح. مزارع الريح تولد الكهرباء.

هل تعلم أن...؟ محطات القدرة النووية بدأ بناؤها قبل نحو نصف قرن. السفن والغواصات يمكن أن تزود بمحركات نووية. النفايات النووية يمكن استعمالها في أغراض طبية.

موسوعة الطاقة المبسطة سلسلة جديدة حافلة بالمعلومات حول المصادر التي تغذي عالمنا بالطاقة.

تتكون الموسوعة من ستة كتب عن الماء والفحم الحجري والطاقة الشمسية والنفط والغاز والرياح والقدرة النووية كل كتاب يبحث بوضوح ودقة في شكل مختلف من أشكال الطاقة، وكيف يمكن أن نسخر ما في ذلك الشكل من قدرة. يزيد الكتب وضوحاً صور معبرة ورسوم بيانية مبسطة ودقيقة.

صنعت بيدي:
أعمال فنية للأطفال

تأليف: وفاء إبراهيم السبيل، فاطمة محمد الحسين

بيروت: دار المؤلف للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٤



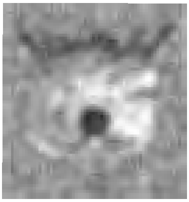
إن الفن هو اللغة التي يعبر بها الفرد عما في داخله. فنرى بعض الرسامين يرسمون ما يختلج في أنفسهم وما يحسون به، وما يرونه ويعجبهم ويتفاعلون معه وهم بذلك يعبرون عن أحاسيسهم وأفكارهم.

والطفل كالفنان، لديه طاقة يرغب في أن يخرجها، وأحاسيس يريد أن يعبر عنها. ولكن ما هي الطرائق السليمة لمساعدة الطفل في التعبير عن أحاسيسه وإخراج طاقاته الكامنة؟ فالطفل يحتاج إلى المساعدة في التنمية الجسدية والعقلية. وهنا تبرز أهمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا، بحيث يتطرق للأعمال التي تنمي قدرات الطفل ومواهبه ويرشد الوالدين إلى الطرائق الصحيحة لملء وقت فراغ الطفل والمحافظة عليه. ومكتباتنا تحتاج إلى مثل هذا الكتاب، فبعضهم ينظر إلى أعمال الطفل الفنية على أنها مضيعة للوقت وهذا من الأسباب التي عاقت انتشار مثل هذا النوع من الكتب. فجاء هذا الكتاب ليدحض مثل هذه النظرة الخاطئة. هذا الكتاب يمنح الأم والمعلمة فرصاً كثيرة للعمل مع الطفل والتفاعل معه. وبقليل من الجهد والتشجيع منهما يكتسب الطفل خبرات ومهارات كثيرة إلى جانب استمتاعه بوقته. والأدوات المستخدمة في هذا الكتاب متوفرة في المنزل والمدرسة.

أم جديدة

تأليف: سماح إدريس

بيروت: دار الآداب ٢٠٠٤



لماذا يريد أسامة أن يفتش عن أم غير أمه؟ وهل هناك امرأة ترضى بولد كهذا: كبير الأنف، وقليل التهذيب؟

تحت السرير الوضع لا يطاق غبار وعناكب، وأسامة مختبئ من والده لأنه قد قام بتمزيق اللوحة التي رسمتها أخته ياسمين في المدرسة وذلك لغيرته مما رسمت ياسمين.

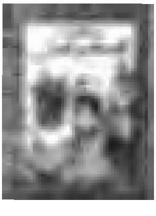
فماذا سيفعل أسامة ليهرب من العقاب؟

حكايات الحكيم لقمان

تأليف: أماني العشماوي

رسوم: مصطفى رحمة

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



كان الحكيم لقمان يعيش على الجبل الشرقي. فيأتي إليه الكبار والصغار من كل مكان لزيارته واستشارته.

وكان يجوب البلاد.. فيساعد من يحتاج الى المساعدة، وينصح من يطلب النصيحة

كان رقيق القلب. يحب الناس ويرأف بهم.. وكان شجاعا أبيا. يكره الظلم ولايقبل الإهانة.. فأحبه الأقوياء وتعلموا من حكمته.. وخافه الجبابرة. فحدوا من طغيانهم.. ولجأ اليه الضعفاء يحتمون به ويستمدون منه القوة.

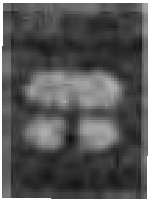
وهذا الكتاب يقدم أربع عشرة قصة طريفة شائقة من قصص هذا الحكيم العظيم. ليستمتع بقراءتها كل من يسعى في طلب الحكمة والعلم، لينتفع الناس بخبراته أسوة بتلاميذ الحكيم لقمان.

مجموعة شهرزاد

تأليف: يعقوب الشاروني

رسوم: هاني المصري

القاهرة: دار إلياس العصرية للطباعة والنشر ٢٠٠٤



١ - كان الشاطر حسن ابن نائب السلطان شابا ذكيا يترك له والده شئون الحكم. وقررت زوجة أبيه أن تقضي عليه وعلى فرسه التي يحبها كثيراً فطارت به الفرس بعيداً في رحلة مليئة بالمغامرات.. فياترى أين سيذهبان؟ وماذا سيقابلهما؟

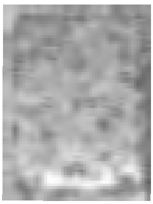
٢ - أثناء بحث حسن الصائغ في الصحراء عن المادة التي تحول النحاس الى ذهب، رأى عند حافة بحيرة فتاة جميلة لم ير مثل جمالها من قبل تلبس ثوبا من الريش وتطير به. فهام بها وظل المشهد يتأرجح لديه بين الحلم والواقع. فهل سيجد حسن حبيبته الطائرة؟

٣ - يحكى أن الفتاة رادوبيس كانت عبدة في بيت سيد طيب أعجب بجمالها وذكائها لكنها عانت الكثير من المتاعب والمهانة من خادمات القصر. ولم يكن لها أصدقاء إلا بقرتها قشدة التي كانت تتنبأ له دائما ببشرى طيبة. فما تلك البشرى؟ وهل ستتحقق؟

الإجابات كلها في سلسلة «مجموعة شهرزاد» التي صدرت منها ثلاث قصص: الفرس المسحور وأحلام حسن وحكاية رادوبيس.

أطلس الأطفال المصور

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٤



ما هي الخرائط؟ أين يقع أعلى جبال العالم ارتفاعاً؟ أين تبدأ الأنهار وأين تنتهي؟ ما هو أسرع حيوان؟ وما هو أطول نهر؟ أين تنمو الغابات المطيرة؟

هذا الأطلس يجيب على كل هذه الأسئلة وكثير غيرها، ومن خلال الخرائط الرائعة المزدحمة جداً بالتفاصيل المثيرة والصور البديعة يمكنك التعرف على القارات ومواقع الدول عليها وعلى التضاريس المختلفة، كما يمكنك التعرف على سكان وحيوانات ونباتات كل منطقة.

قـــــــراءة ..

للحــــرية .. لا لواشــــــنطن

فى ظلال الحراب الأمريكية، ذهب العراقيون - أو بالأحرى المغامرون أو الآملون أو المتهورون منهم - إلى صناديق "الاقتراع فيما قد يكون - ولو من باب المحاولة - أول انتخابات "حرة" يشهدها العراق الحديث.

ومع الإقرار بأنها - لعوامل عدة معروفة - انتخابات مشكوك فى شرعيتها، يبقى المشهد ضبابياً وملتبساً ومسكوناً بأسئلة لم تغادر عقولنا وساحاتنا الفكرية منذ سقطت عاصمة الرشيد (أبريل ٢٠٠٣)، أو حتى قبل ذلك بسنتين؛ منذ ذلك البرجان يزلزال مازالت توابعه تتوالى فى دوائر يتسع قطرها يوماً بعد يوم: عسكرياً وأمنياً وسياسياً .. بل وحتى ثقافياً.

حين ذهب جنود بن لادن إلى غزوتهم، كان جورج دبليو بوش قد ذهب قبل أشهر فقط إلى البيت الأبيض رئيساً - بدا يومها ضعيفاً - للولايات المتحدة الأمريكية؛ مركز القوة فى العالم الجديد.

وحين ذهب "بعض" العراقيين إلى صناديق الاقتراع "الأمريكية"، كان الرئيس العائد من حربين: فى أفغانستان والعراق، والعائد إلى البيت الأبيض بأغلبية ساحقة اعتبرها تفويضاً من مواطنيه، قد انتهى لتوه من إلقاء خطاب تنصيبه رئيساً للمرة الثانية.

يومها، بدا الرئيس الذى يتعمد "كبرياء" واضحة، فى مشيته، قوياً وواثقاً و"مؤمناً" بأنه مبعوث إلى العالم برسالة سامية تأتيه "من وراء النجوم"، كما ذكر نصاً فى خطابه. الذى اعتبر بمثابة "خارطة طريق" لفترة ولاية ثانية يتحرر فيها من قيود واعتبارات كثيرة.

فى أقل من عشرين دقيقة استغرقها الخطاب، وبعبارات "شكسبيرية" قوية، ذكر الرئيس الأمريكى الجديد/ القديم لفظة "الحرية" بتصريفاتها اللغوية المختلفة ثلاثاً وأربعين مرة. ولم يكن غريباً أن التكرار الملح بعث بكثير من القلق إلى كثير من النفوس.

ماذا فى نية الرئيس الذى ذهب إلى الحرب - دون تردد - مرتين؟! والذى أعلن يوماً أن واشنطن ليست فى حاجة إلى موافقة الآخرين على القيام بما تراه محققاً لأهدافها أو مصالحها؟!

رغم لهجة خطاب بوش المتعالية والقوية، تبقى حقيقة الهوة الطبيعية والدائمة بين "فصاحة" الحديث أمام الميكروفون و"تعقيدات" الواقع. إذ يكفى أن نتذكر أن محاولات واشنطن المختلفة فى تطبيق ديمقراطيتها فى هاييتى الصغيرة فشلت ١٠ مرات متتالية. وأن "باكستان - مشرف"؛ الحليف الرئيس فى ما يعتبره بوش "حربا على الإرهاب" بعيدة كل البعد عن النموذج الذى يجرى ترويجه أمريكيا للحداثة والديمقراطية.

ويكفى أن نلاحظ مع الكاتب الأمريكى هندى الأصل فريد زكريا أن الرئيس الروسى فلاديمير بوتن يشرف اليوم على حكومة عملت أكثر من أى حكومة أخرى فى العالم على السير فى الاتجاه المعاكس للحريات، ومع ذلك لم يجد من الرئيس بوش سوى غض الطرف عن مذابحه فى الشيشان، التى أجهز فيها على مائة ألف من المدنيين ضمن حملة وحشية تهدف إلى حرمانهم من حقهم فى تقرير المصير. ثم إن الرئيس المدافع عن الحرية - يذكر الكاتب الأمريكى - استضاف فى مزرعته الخاصة فى كروفورد زعيم دولة عربية تُصنف على أنها واحدة من الدول الثمانى الأكثر قمعاً فى العالم فى حين أن زعماء منتخبين فى الهند أو فرنسا أو تركيا أو إندونيسيا على سبيل المثال لم يحظوا بمثل هذا الشرف.

وعلى هامش ذى صلة، تبقى ملاحظة أن جوهر ما قاله بوش قاله جون كينيدى عام ١٩٦١ عندما وعد فى خطاب تنصيبه "بدفع أى ثمن وتحمل أى عبء لضمان استمرار وجود الحرية ونجاحها".

هل يعنى ذلك أن لا جديد هناك؟

يبدو أن الأمر فى الشرق الأوسط (فى الولاية الثانية) مختلف. فضلاً عن أن رئيس تحرير النيوزويك والذى يبدو أنه يعكس الرأى الذى بات سائداً فى الأوساط الفكرية الأمريكية، يرى أن بوش كان محقاً تماماً عندما قال "إن نشر الحرية فى هذه المنطقة من العالم هو ما يتطلبه أمن الولايات المتحدة بشكل ملح، وأن هذا هو هدفنا الآن". هناك حقيقة أن منطقتنا - لعوامل متعددة - قد تم تمهيدها لتصبح الوحيدة التى يستطيع الرئيس الأمريكى أن يصنع فيها تاريخه.

أين نحن من هذا البادى فى الأفق، تختلط غيومه القاتمة ببروق رعوده الوامضة؟

بداية، نعرف جميعاً السجل الأمريكى غير المشرف فى صناعة الديكتاتوريات، سواء بالإزاحة كما حدث ذات يوم مع الليندى فى تشيلى، أو بالتثبيت والدعم كما حدث مع كثيرين ليس آخرهم - ويجب ألا ننسى - صدام حسين ذاته.

وتتعثر فى أفهامنا - فضلاً عن ضمائرنا - المفردات البراقة لخطاب الإصلاح الأمريكى، حين تصطدم بأحجار "ازدواجية المعايير" وبانحياز مطلق لإسرائيل.

ونعرف أن خريطة الطريق الأمريكية للمنطقة - حتى لو عبدت مسالكها الحريات ونظمت مرورها الدساتير - هى خريطة إسرائيلية صرف.

وندرك بعد كل هذا، وربما قبله أن الوصفة الأمريكية للحريات فيها من التفاصيل ما هو موغل فى تطرفه ابتعاداً عن احترام واجب لخصوصيات ثقافية.

نعرف كل هذا.. "ولكن". وللفظة الاستدراك الشائعة هنا أهميتها الاستثنائية. نعرف "أيضاً" أن سجل أنظمتنا فى الديمقراطية "الحقيقية" والشفافية وحقوق الإنسان سجل لا يمكن الدفاع عنه. ويعرف مثقفونا خصوصاً، وبعضهم عن تجربة شخصية، أن ماكشفته "النيويوركر" - لا غيرها - فى سجن "أبو غريب" على فظاعته، لم يكن أول ماتشهده زنازين السجن العربى المتيد ذاته - ومثله كثير - على مدى عشرات السنين. ونعرف أيضاً أنه رغم الكلام المنمق واللافتات البراقة، ورغم كل محاولات التجمل البائسة والزعم بأننا الذين "بدأنا الإصلاح قبل ٢٠ سنة.." فاللفظة - للأسف، ومع كل محاولات استلاب بعدها السياسى - لم تعرف طريقها المعبد للمانشيتات والبيانات والمؤتمرات العربية إلا بعد أن صارت استحقاقاً أمريكياً، وبعد أن رأى كل القابضين على مواقعهم ما جرى فى العراق.

نعرف هذا ونعرف ذاك.. ونخشى أن يستدرج مثقفونا لما يحاوله البعض من إيجاد حالة من التماهى بين "واشنطن" التى هى مرفوضة لسياساتها، وبين "الديمقراطية" التى هى مطلوبة لذاتها - فترى - وقد رأينا وقرأنا بالفعل - من يدافع عن بقاء الحال على ما هو عليه (رغم فساد واستبداد وأحكام عرفية تبدو أبدية..) لا لشىء إلا لأن البديل تحمله رياح "تبدو" قادمة من الغرب. وكان لافتاً أن نرى من يذكى النعرات الطائفية والدينية، إما إلهاء أو حشداً للعامة ضد "خطر" تغيير قد يبزغ فى الأفق.

كما كان لافتاً أن نقرأ مرة أخرى لبعض كتابنا (فضلاً عن مسؤولينا طبعاً) من يصر على أن التزام الدول العربية المختلفة بالإصلاح داخل أوطانها مرتبط "شرطياً" بالتزام الولايات المتحدة بتحقيق السلام بين العرب وإسرائيل. ومرة أخرى يبدو الربط القسرى غير مفهوم. إذ يبقى من الطبيعى أن نفهم أن التزام الحاكم بالإصلاح الديمقراطى هو التزام حيال من قدر لهم أن يكونوا من محكوميه، وليس حيال أى طرف خارجى أيا كان. وعليه فإن هذا الالتزام يظل قائماً بغض النظر عن سلوك أطراف، هى بحكم المنطق والتعريف القانونى ليست طرفاً فى هذه العلاقة.

لا يعنى أى من ذلك أبداً أن "واشنطن - بوش" مبرأة من القصد والهوى فيما قد تذهب إليه. فأصحاب البيت الأبيض لم يزعموا يوماً أنهم يديرون جمعية خيرية. بل دولة كبرى لها سياسات ومصالح. وكان لسوء الطالع أن استقر فى يقين سياسييها ومفكريها بل وفق خبرتها الواقعية "السبتمبرية" أن الخطر قادم من "بلاد الأصولية والتخلف.. والاستبداد والفساد".. وللأسف يجد الأمريكيون من يذكرهم يوميا بجنسيات محمد عطا ورفاقه. وبأن على رأس "القاعدة" سعودياً ومصرياً.

نعرف جميعاً هذا. ولطالما ذكرنا بأن الأمريكيين - وهم لا ينكرون ذلك بل يعلنونه كل صباح - يقصدون تغييراً جذريا يهز إن لم يقتلع - كل ثابت مستقر؛ صالحه وطالحه. بداية من ديكتاتورية الفرد وحتى نمط الحياة الأسرية.. ووصولاً إلى استيعاب "الكيان" الإسرائيلى المتفوق نوعيا فى "وسط جديد" تفسح فيه مفاهيم القومية والعروبة وصلة الدين والدم مكانها لقيم المصلحة والحداثة بمفهومها الغربى.

وبغض النظر عن طوباوية القصد أو مكره، ومع التأكيد على ضرورة أن ندرك الخطر الحقيقى الذى يتهدد قيمنا وثوابتنا، يبقى ضروريا "أيضاً" أن نعترف - على الأقل لأنفسنا - بأن ليس كل ما يصف به الأمريكيون مجتمعاتنا ظلماً وبهتاناً. خاصة إذا كان الحديث عن الديمقراطية (الحقيقية) وحقوق الإنسان.

ويبقى لازما "أيضاً" أن لا يذهب العداء للسياسات الأمريكية ببعض مثقفينا إلى حد التشيع للديكتاتورية والفساد وانتهاك حقوق الإنسان نكاية فى الأمريكان. فالحرية لم تكن أبداً صناعة أمريكية. كما أن الديمقراطية لا تحمل جواز سفر مختوماً فى واشنطن.

أيمــــن الصيـــــاد